صالح جودت كاتباً

الكتابات المجهولة لشاعر الحب والحرية

محمد رضوان



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : صالح جودت كاتبًا

المـــــؤلف : محمد رضوان

رقـم الإيداع : ٢٤٧٥ / ٢٠١٥

الطبعة الأولى ٢٠١٥



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ـ ٢٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

كلمة واجبة

آثر الفنان الكويتي الكبير يوسف المهنا أن يكرم روح الشاعر الأديب صالح جودت في ذكراه الثامنة والعشرين حيث رحل عن الحياة في ٢٣ يونيه ١٩٧٦ بأن قدم بادرتين طيبتين وهما :

تلحين وغناء قصيدة عاطفية له والثانية تحمل نفقات طباعة هذا الكتاب الجديد الذي لم يسبق نشره للأديب الراحل والذي يضم مجموعة من أجمل مقالاته وصوره القصصية الرائعة.

وهي تحية حب وتقدير وإكبار لروح الشاعر الكبير علها تسعد روحه وهي في رحاب الله بهذا المولود الجديد للشاعر بعد رحيله.



مقدمة

متى ينصفون صالح جودت؟

للشاعر الكبير : فاروق شوشة

هذا شاعر لا يكاد يذكره الآن أحد بالرغم من أنه كان يملأ الدنيا ويشغل الناس بقلمه وبكتاباته وبمعاركه منذ بزوغ اسمه في حياتنا الأدبية والصحفية، في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن العشرين عندما أصدر ديوانه الأول "ديوان صالح جودت" عام ١٩٣٤ وحتى رحيله في عام ١٩٧٦ بعد أن أصدر آخر دواوينه "الله والنيل والحب"، بعام واحد عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

كان ومعه كوكبة من شعراء الثلاثينيات يعبرون عن ثورة تجديدية على شعر المدرسة الكلاسيكية المحافظة – التي كان من أقطابها شوقي وحافظ إبراهيم وإسماعيل صبري وغيرهم. وسميت حركة هؤلاء الشباب باسم جماعة "أبوللو" أو التيار الرومانسي الذي اجتاح الحياة الأدبية المصرية والعربية وكان بمثابة التهيئة الطبيعية لظهور حركة الشعر الجديد في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات.

كان صالح جودت ومعه أقطاب التيار الرومانسي: "إبراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمد عبدالمعطي الهمشري ومحمود حسن إسماعيل وأحمد رامي ومختار الوكيل وحسن كامل الصيرفي وغيرهم يهيئون الأرض – بنماذجهم الشعرية المبكرة – لمذاق شعري جديد – غير مألوف ولغة شعرية تلتمع في ثنايا معجم شعري يصف المحسوسات بصفات المعنويات والمعنويات بصفات المحسوسات ويطلق الخيال المحلق إلى تخوم

(*) فاروق شوشة : شاعر وناقد وإعلامي بارز ولد في قرية الشعراء بمدينة دمياط (١٩٣٦)، تخرج في كلية دار العلوم (١٩٥٨) له العديد من دواوين الشعر والدراسات الأدبية واللغوية.

شديدة البعد، لغة تتميز بالأناقة المترفة والصياغة المفعمة بالهمس والإيحاء والتأثر بأشعار الرومانسيين الإنجليز والفرنسيين، من أمثال كيتس وشيلي ووردزورث وبيرون ولامارتين والفرد دي موسيه والفرد دي فيني. وكان صالح جودت من بينهم جميعًا أقرب إلى الروح المصرية والمزاج المصري في أسلوب التعبير عن العواطف والمشاعر، واقتناص الكلمات المصرية ذات الدلالة المحلية الطابع، مما يذكرنا بشاعر مصري قديم فتن به صالح جودت وكان دائم الإشارة إليه وذكره هو "البهاء زهير" تميز شعره بدرجة عالية من هذه الروح المصرية والطابع المصري في الصياغة والتعبير.

الغريب أن صالح جودت كان على وعي بهذا الدور الشعري الذي قامت به الحركة الرومانسية. وفي حديثه عن صحبته لناجي وعلى محمود طه والهمشري في سنوات الصبا الباكر .. إشارة إلى التكوينات الأولى، والنزعة الشعرية المشتركة، والأفق المغاير الذي يتطلع إليه الأربعة .. يقول صالح جودت في المقدمة التي كتبها لديوان ناجي الذي صدر عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي عام ١٩٦١ "في المنصورة: عرفت ناجي، إذ كنت طالبًا بالمدرسة الثانوية، وكان لي زميل أثير هو الشاعر محمد الهمشري كان موهوبًا مرموقًا، لولا أن عاجلته النهاية وهو في أوج شبابه.

"كنا نخرج هو وأنا من المدرسة فنلتقي بشاعرين يكبراننا، وكان المستقبل يتهيأ لهما يومئذ هما المرحومان إبراهيم ناجي الطبيب وعلى محمود طه المهندس. فكنا نجلس نحن الأربعة على شاطئ النيل، نقضي أجمل ليالي العمر في حديث الأدب والشعر.

كانت هذه الصحبة مدرسة جديدة في الشعر، تتقارب خطوطها كل التقارب إلى حد أن اختلط شعرنا على الناس في كثير من الأحيان فنسب إلى غير صاحبه، وإلى حد أن أحدًا منا نحن الأربعة لم يكن يعرف من التلميذ ومن الأستاذ فقد كان كل منا يفيد من صحبة الآخرين.

وكان لنا أصحاب ثلاثة من شعراء الشباب في الأدب الإنجليزي، هم شيلي وكيتس ووردزورث، نقرؤهم دائمًا، ونحس بما بيننا وبينهم من أواصر الشعر ووشائج الشباب وعبادة الجمال وروح الثورة على القديم".

لكن المستقبل الأدبي بعد هذه السنوات التي يتحدث عنها صالح جودت وهي سنوات الدراسة الثانوية في المنصورة بين عامي ١٩٢٧، ١٩٣١ - التي جاءها من الزقازيق حيث كان مولده، هذا المستقبل قدم بتوزيع الحظوظ الأدبية على الأربعة فيما يشبه القسمة العادلة طبقًا لموهبة كل منهم وإخلاصه للشعر، فليس صدفة أن تقدم ناجي وعلي محمود طه، وجاء من بعدهما الهمشري وصالح جودت في ميزان الشعر الحقيقي. والتهمت الحياة الصاخبة الممتلئة التي عاشها صالح جودت كثيرًا من طاقته الإبداعية ومن تفرغه للشعر، كما التهمت معاركه الأدبية والصحفية والسياسية كثيرًا مما تبقى من هذه الطاقة، وحين مشى في طريق صديقه الأثير أحمد رامي وبدأ يتجه إلى كتابة الأغنية، خاصة للعديد من الأفلام السينمائية - أشهرها فيلم شاطئ الغرام - كسبته الأغنية العاطفية ولم تكسبه القصيدة المجددة المحلقة التي كان يبدعها ناجي وعلي محمود طه. وفي الإذاعة المصرية عمل صالح جودت عدة سنوات مشرفًا على الأحاديث ومقدمًا للبرامج الشعرية ومكتشفًا للمواهب الجديدة، ومن خلاله عرف الناس شعر شاعر الكرنك أحمد فتحي قبل أن تشدو به أم كلثوم ومن الإذاعة إلى الأهرام صحفيًا وكاتبًا فرئيسًا لتحرير مجلة "الراديو والإذاعة" فرئيسًا لتحرير "المصور" ورئيسًا لتحرير "الهلال" ونائبًا لرئيس مجلس الإدارة بدار الهلال.

ومنذ رحيله في ٢٣ يونيو ١٩٧٦ لم يذكره أحد بكلمة، بعد أن ألف عنه الأديب محمد محمود رضوان كتابه : "شاعر النيل والنخيل".

وبالرغم من وفرة إنتاجه الأدبي وتعدد جوانبه، إلا أن الوجه الشعري لصالح جودت يظل وجهه الأساسي والأصيل، وهو الوجه الذي شمل آخر تجلياته في قصيدة "الثلاثية المقدسة" التي تغنت بها أم كلثوم، والتي كتبها صالح جودت استجابة للفكرة التي ومضت في خاطر المفكر الإسلامي الراحل الدكتور عبد العزيز كامل عندما كان وزيرًا للأوقاف، وحدث حريق المسجد الأقصى، فرغب الدكتور عبد العزيز كامل إلى صديقه الشاعر محمود حسن إسماعيل في كتابة قصيدة تجمع بين الكعبة المشرفة، والحرم

النبوي الشريف، والمسجد الأقصى، وبالرغم من انفعال محمود حسن إسماعيل بالموضوع وتأجج الحس الإسلامي في داخله إلا أنه لم يكن سريع الاستجابة انتظارًا لمواتاة الوحي، وبالرغم من استحثاث أم كلثوم له عدة مرات، ثم بدأ التفكير في صالح جودت الذي تحمس للأمر، وأنجز القصيدة في أيام معدودة بعد أن شجعته أم كلثوم، وكان الغناء بالنسبة لصالح جودت قضية شديدة الأهمية خاصة إذا اجتمع له السنباطي وأم كلثوم، أما محمود حسن إسماعيل فكانت طبيعته تستعصي على طلب الشعر منه، كما أن التلويح بالغناء، حتى لو كان لأم كلثوم. لم يكن ليجعله يغير من عاداته!

يقول صالح جودت في قصيدته "أحلام المنصورة" مسترجعًا ذكريات الأيام البعيدة من الصبا ومطالع الشباب :

آه ممـــا بي، وهـــل تـــدرين مـــا بي
يـــوم ودعتـــك .. ودعـــت شـــبابي
أيـــن أحلامـــي عـــلى تلـــك الـــروابي؟
ذابـــت الأحـــلام في قلبـــي المـــذاب
لي حبيـــب فيـــك أفديـــه بعمـــري
ســـمرة النيـــل عـــلى خديـــه تغـــري
هـــو إلهـــامي وأحلامـــي وشـــعري
ونعيمـــي بـــين عينيـــه وســـكري
كـــان عنـــد الليلـــة الظلـــماء بـــدري

النزعة الحسية الطاغية، والظمأ الشديد لكل ما في الحياة من متع ورغائب، ملمحان لا يفارقان قارئ شعر صالح جودت. إنه ظامئ نهم بالجمال – يلمسه ويشمه ويتحسسه، لا يكتفي برؤيته أو تذوق عطوره، ولا يؤجل لذائذ يومه إلى غده. هذه النزعة الأبيقورية أو الخيامية أو النواسية هي التي تقربه أحيانًا من على محمود طه وتباعد بينه وبين إبراهيم ناجي، فكلاهما : على محمود طه، وصالح جودت حريص على تأكيد فروسيته في مجال العشق، وظفره بمن تشاغل خيالاته وأفكاره، يقول صالح جودت :

أجـــــل، ظمـــــآن يــــــا ليلــــــي
ومــــــاء الحـــــــب في نهـــــــرك
خـــــــــذيني في ذراعيــــــــــــك
وضـــــــــميني إلى صـــــــــدرك

****

في الثالـث والعـشرين مـن يونيـو سـنة ١٩٧٦ رحـل عـن عالمنـا الـشاعر صـالح جودت، وهو في الثامنة والستين من العمر وكأنما طويت برحيله صفحته الشعرية والأدبية والحياتية، فلم يعد يذكره أحد، بل إن ذكره أصبح مجلبة للسخرية والتندر.

وقـد أصـابني بعـض هـذا حـين كتبـت عنـه في عـدد أبريـل ٢٠١٣ مـن مجلة العربي الكويتية بمناسبة صدور الأعمال الشعرية الكاملة لصالح صورت تحقيق ودراسة الأديب محمد رضوان عن مكتبة جزيرة الورد بالقاهرة فوجدت من يلومني لأني تركت الكتابة عن القمم ونزلت إلى مستوى من هم في السفوح من الشعراء!.

ولقد كان من سوء حظ صالح جودت أن تمتلئ حياته بمعارك من كل لون كان أقساها وأشدها تـأثيرًا تلك التي شـنها على دعـاة الـشعر الجديـد الـشعر الحر واعتبـارهم هدامين ومتنكرين للشعر العربي والثقافة العربية، وكان يطلق على أعدائه ممن صنفهم على أنهـم يـساريون اسـم "القرامـزة". الـذين انـسلخوا في رأيـه عـن الوطنيـة والـدين ولم يقـصر هؤلاء بدورهم في الهجوم عليه، واتهامه بالرجعية وسـوء الفهـم، وافتقـاده لحس التطور والإيمان بالجديد. وزاد من ضراوة معركته إحساسه بأنه يعبر عن أفكار العقاد وآرائه التي كـان يحكـم بهـا زمـام لجنة الـشعر في المجلس الأعـلى للفنون والآداب حـين كـان مقررهـا والتحكم في مسيرتها. لكن هجوم العقاد على الشعر الجديد وعلى هؤلاء، كان خاليًا من اللغة العنيفة والاتهامات القاسية التي أطلقها صالح جودت، الذي حـول معاركه الأدبية إلى معارك سياسية.

أما مناسبة هذا الكلام الآن، هو ذكرى رحيله، ولأن كتابًا جديدًا عنه قد صدر من تأليف الأديب الباحث الدؤوب محمد رضوان، "في سلسلة كتاب الهلال" الذي هيأته الأقدار لدور شديد الأهمية في حياتنا الأدبية المعاصرة، هو الاهتمام بجمع آثار عدد من الشعراء والأدباء الذين تعرضوا للإهمال والنسيان، وأصبح هذا الاهتمام لديه رسالة حياة، منذ كان كتابه الأول عن عبقرية زكي مبارك الذي أنجزه وهو لا يزال طالبًا في كلية دار العلوم عام ١٩٦٨ وكان هذا الكتاب سببًا في تعرفه على صالح جودت الذي ساعده في نشره بسلسلة كتاب الهلال عام ١٩٧٤ بعنوان "صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك"، وعمل تحت رئاسته في مجلة الهلال في الفترة من عام ١٩٧٢ حتى عام ١٩٧٦ وساعده على العمل في دار الهلال بعد حصوله على ليسانس كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٧١.

اختار الأديب محمد رضوان لكتابه الجديد عن صالح جودت عنوانًا لافتًا هو "قيثارة مصر: صالح جودت"، وأقول كتابه الجديد لأن له كتابًا سابقًا عنه نشر بعد وفاته، صدر في أغسطس ١٩٧٧ بعنوان "صالح جودت: شاعر النيل والنخيل" كتب مقدمته الشاعر السفير أحمد عبد المجيد. وقد اتسعت دائرة اهتمام محمد رضوان بغير صالح جودت من الشعراء فكانت كتبه وكتاباته عن أحمد فتحي والهمشري وعبد الحميد الديب وعلي محمود طه وناجي وأحمد خميس وغيرهم. وهي كلها كتابات أهم ما فيها ذلك الحشد الهائل من الوثائق والمعلومات التي توفر عليها وجمعها على مدار سنوات.

كان صالح جودت الذي لا يكاد يذكره الآن أحد واحدًا ممن يملأون الحياة الأدبية، ويشغلون الناس بقلمهم وكتاباتهم ومعاركهم، منذ بزوغ اسمه في عالم الصحافة في النصف الثاني من ثلاثينيات القرن العشرين عندما أصدر ديوانه الأول "ديوان صالح جودت" عام ١٩٣٤، وحتى ديوانه الأخير "الله والنيل والحب" قبل رحيله بعام واحد. وقد كان معه أقطاب التيار الرومانسي في الشعر الذي عرف بتيار جماعة أبوللو من أمثال إبراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمد عبد المعطي الهمشري ومحمود حسن إسماعيل وأحمد رامي ومختار الوكيل وحسن كامل الصيرفي وغيرهم، يهيئون الأرض بنماذجهم

الشعرية المبكرة لمذاق شعري جديد غير مألوف، ولغة شعرية يلتمع في ثناياها معجم شعري يصف المحسوسات بصفات المعنويات، والمعنويات بصفات المحسوسات ويطلق الخيال إلى نجوم شديدة البعد. لغة تتميز بالأناقة بأشعار الرومانسيين الإنجليز والفرنسيين، من أمثال: كيتس وشيلي ووردزورث وبيرون ولامارتين والفرد دي موسيه والفرد دي فيني وغيرهم.

وكان صالح جودت من بين ثلة شعراء أبوللو أقربهم إلى الروح المصرية والمزاج المصري في أسلوب التعبير عن العواطف والمشاعر، واقتناص المفردات المصرية ذات الدلالة المحلية.

في حديث صالح جودت في المقدمة الضافية التي كتبها لديوان صديقه أحمد رامي إشارة إلى هذا الدور الشعري الذي قامت به الحركة الرومانسية، وعن صحبته لناجي وعلي محمود طه والهمشري في سنوات الصبا الباكر، في إشارة إلى التكوينات الأولى والنزعة الشعرية المشتركة، والأفق المغاير الذي كان يتطلع إليه الشعراء الأربعة.

غير أن الحياة الصاخبة الممتلئة التي عاشها صالح جودت التهمت كثيرًا من طاقته الإبداعية ومن تفرغه للشعر، كما التهمت معاركه الأدبية والصحفية والسياسية كثيرًا مما تبقى من هذه الطاقة. وحين جذبه صديقه الأثير أحمد رامي إلى طريق كتابة الأغنية، وبخاصة للعديد من الأفلام السينمائية أشهرها أفلام "شاطئ الغرام" "وألمظ وعبده الحامولي"، كسبته الأغنية العاطفية وخسرته القصيدة المجددة المحلقة التي كان يبدعها ناجي وعلي محمود طه. وفي الإذاعة المصرية عمل صالح جودت عدة سنوات مشرفًا على الأحاديث ومقدمًا للبرامج الشعرية، أشهرها "روائع الشعراء" ومكتشفًا للمواهب الجديدة. ومن خلاله عرف الناس شعر شاعر الكرنك أحمد فتحي قبل أن تشدو به أم كلثوم. ثم أخرج من الإذاعة مع من أبعدوا عنها بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فاتجه إلى صحيفة الأهرام صحفيًا وكاتبًا فرئيسًا لتحرير مجلة الراديو والإذاعة فرئيسًا لتحرير "المصور" ورئيسًا لتحرير "الهلال" فنائبًا لرئيس مجلس الإدارة في دار الهلال.

ولقد أصدر صالح جودت ستة دواوين هي : ديوان صالح جودت (١٩٣٤)، وليالي الهرم (١٩٥٧) وأغنيات على النيل (١٩٦٢) وحكاية قلب (١٩٦٥) وألحان مصرية (١٩٦٨) والله والنيل والحب (١٩٧٥). كما أصدر عدة دراسات أدبية هي بلابل من الشرق، وشاعر الكرنك، وشعراء المجون، وملوك وصعاليك، وناجي : حياته وشعره، والهمشري: حياته وشعره كما أصدر روايتين هما : الشباك وعودي إلى البيت، وعددًا من المجموعات القصصية هي : في فندق الله، ووداعًا أيها الليل، وخائفة من السماء، وبنت أفندينا، وكلنا خطايا، وأولاد الحلال. وعددًا من كتب الرحلات أبرزها: قلم طائر، وأساطير وحواديت لكنها في مجموعها تنتسب إلى عالم الكتابة الصحفية أكثر من انتسابها إلى عالم الإبداع القصصي والروائي.

***

ويبقى الوجه الشعري لصالح جودت هو وجهه الأساسي والأصيل، وهو الوجه الذي عرفه الناس في آخر تجلياته مع قصيدة "الثلاثية المقدسة" التي شدت بها أم كلثوم. فهل يشفع له هذا كله، عند مؤرخي الحياة الأدبية والشعرية ونقادها، حتى يلتفتوا إليه بما يستحقه من تذكر؟ وهل ينصفه الحاضر بعد أن سكنت نيران المعارك التي أشعلها في حياته، وظلت تطارده بعد موته.

فاروق شوشة

(الأهرام – ٢٢ يوليو ٢٠١٤).

صالح جودت القلم الطائر!

بقلم : محمد رضوان

احتل صالح جودت (١٩٠٨ – ١٩٧٦) مكانته الأدبية الرفيعة كأحد أبرز شعراء الوجدان في مدرسة أبوللو الشعرية منذ عام ١٩٣٢، وأصبح هو وعلي محمود طه وإبراهيم ناجي وأحمد فتحي وأحمد زكي أبو شادي وحسن كامل الصيرفي والهمشري هم أبرز نجوم جماعة أبوللو بمكوناتها وسماتها التجديدية في الشكل والمضمون.

ولما كان الشعر في منطقتنا العربية لا يمكن الشاعر أن يعيش من ريعه إلا بعض الاستثناءات النادرة مثل نزار قباني مثلًا – فما كان من صالح جودت إلا أن امتهن صناعة القلم منذ التحاقه بدار الهلال منذ عام ١٩٥٣ بعد أن ترك عمله بالإذاعة المصرية في نطاق "حركة التطهير" التي لحقت إبراهيم ناجي وغيره من أعلام الأدب والفن بدعوى انتمائهم للنظام الملكي الغارب.

ومنذ مطالع خمسينيات القرن العشرين شارك صالح جودت بكتاباته الصحفية والأدبية في مجلات دار الهلال : المصور وحواء والكواكب والاثنين والدنيا والهلال يتناول فيها مختلف الشئون والموضوعات الأدبية والاجتماعية والفنية والسياسية، وكان أثناء رحلاته الصحفية حول العالم يبعث بانطباعاته ومشاهداته وخواطره لتنشر في هذه المجلات لتشكل في النهاية كتابًا فريدًا في أدب الرحلات صدر تحت عنوان "القلم الطائر" ويعد من أبدع ألوان أدب الرحلات في أدبنا العربي المعاصر.

وبجانب كتاباته الصحفية والأدبية كان صالح جودت ظاهرة فريدة، فكان يشارك في المنتديات والمؤتمرات الأدبية ممثلًا لمصر في العواصم العربية ويلقي فيها قصائده العروبية التي تنادي بالتآلف والتكاتف من أجل مستقبل أفضل للوطن العربي مع حرصه على عدم المساس بوطنه مصر الذي كان يعشقه لدرجة الهيام.

وقد ظل صالح جودت يكتب في مجلات دار الهلال لأكثر من ربع قرن من الزمان في مختلف الشئون والشجون وأثار العديد من المعارك الأدبية والفنية والسياسية الساخنة التي كان ينافح فيها عن آرائه ومعتقداته وأفكاره الأدبية والسياسية والفنية منها أنه كان يؤمن بأصالة الشعر وتمسكه بقواعد الشعر وأصوله، وأنه كان ضد الموجات والتيارات المتطرفة يمينًا وشمالًا، ومنها أنه كان يؤمن بعروبة مصر وأصالتها وحسها العروبي وكان يتصدى لكل من يحاول أن يخدش مصر أو يسيء إليها.

وبالرغم من أن صالح جودت أصدر العديد من الكتب الأدبية النثرية ومنها : أساطير وحواديت – قلم طائر – ملوك وصعاليك – بلابل من الشرق – م.ع. الهمشري – ناجي، حياته وشعره – أحمد فتحي شاعر الكرنك. كما أصدر عدة مجموعات قصصية هي: بنت أفندينا – أولاد الحلال – كلنا خطايا – كلام الناس – في فندق الله، وأصدر روايتين : عودي إلى البيت – وداعًا أيها الليل. كما ترجم عن الإنجليزية رواية "العجوز والبحر" لهمنجواي ورواية "الأفق المفقود" و"سيدتي الجميلة".

وبالرغم من صدور هذه الكتب إلا أنه لم يتسن له أن يجمع مقالاته الكثيرة في كتب قبل رحيله، فكان هذا الكتاب الذي يجمع لأول مرة مقالات الشاعر الأديب صالح جودت، وقد آثرنا أن نختار مجموعة من مقالاته التي نشرها بمجلة الهلال التي شهدت الفترة منذ مطلع ستينيات القرن العشرين حتى رحيله في ٢٣ يونيه ١٩٧٦ العديد من مقالاته ودراساته ومساجلاته الأدبية، حيث احتجب قلمه في الهلال في الفترة التي كان يسيطر فيها مناوئوه من التيارات اليسارية على رئاسة التحرير فكانوا يحجبون كتاباته وقصائده ولذلك لم تشهد صفحات الهلال منذ خمسينيات القرن العشرين حتى نهاية الستينيات مقالات تذكر لهذا الكاتب الشاعر المجدد.

ولم تفكر جهة ثقافية أو أدبية مسئولة في نشر تراث صالح جودت الشعري والأدبي، ولولا جهودي الذاتية في جمع شعره المعلوم والمجهول ما وصل شعره للقارئ الذي حجب عنه اسمه وتراثه لسنوات طويلة.

وبعد، فليس هذا أول كتاب لي عن صالح جودت وأثاره الأدبية، فقد أصدرت في يوليو ١٩٧٥ أول دراسة عنه قرأها وأبدي رضاه عنها قبل رحيله بعام بعنوان "شاعر ليالي الهرم " كملحق لمجلة الثقافة التي كان يرأسها عبد العزيز الدسوقي، وفي أغسطس ١٩٧٧ أصدرت كتاب "شاعر النيل والنخيل"، وفي عام ٢٠١٢ أصدرت أعماله الشعرية تحت عنوان "صالح جودت شاعر الحب والحرية" حياته وشعره وقصائده المجهولة" وفي مارس ٢٠١٤ صدرت لي دراسة بعنوان" صالح جودت: قيثارة مصر" عن سلسلة كتاب الهلال وذلك وفاء لهذا الشاعر الوجداني المحلق الذي عملت معه إبان رئاسته لمجلة الهلال في الفترة من عام ١٩٧٢ حتى رحيله عن الحياة في يونيه ١٩٧٦ وأفسح لي صفحات المجلة لأنشر فيها رغم أنني كنت مجرد محرر مبتدئ أتلمس سبل النشر، ونشر لي كتابين هما :"صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك" عام ١٩٧٤ ، وكتاب "مأساة شاعر البؤس عبد الحميد الديب" في فبراير ١٩٧٦ وذلك في سلسلة كتاب الهلال من منطلق سياسته لتشجيع كل المواهب الشابة في كافة مجالات الأدب، ولذلك أصدر مجلة "الزهور" كملحق لمجلة الهلال في تلك الفترة لتشجيع كل المواهب الأدبية في العالم العربي، كما أن هذا الشاعر كبير قد ظلم ظلما بينا من بعض اليساريين وأنصار الشعر الجديد الذين ناصبوه العداء لأنه كان يشدد على أهمية الحفاظ على أصول الشعر وأصالته وضرورة وجود الموسيقي لأنها ماء الشعر.

ولذلك يصبح هذا الكتاب الجديد الذي يجمع بعض مقالاته ودراساته الأدبية مكملًا لآثاره الشعرية ومؤلفاته الأدبية الأخرى لتشكل جميعها تراث هذا الشاعر الوجداني، الذي عاش حياته كلها قيثارة مصرية وعربية أصيلة.

محمد رضوان

القاهرة – مارس ٢٠١٥.

صالح جودت شاعرًا وجدانيًا

كانت الأغنية المصرية والعربية تفتقر في مطالع القرن العشرين إلى التجديد في الكلمات والمعاني الشعرية الرائعة، فقيض الله للأغنية المصرية مجموعة من أساطين الشعر فأبدعوا لنا أجمل المعاني بأسلوب شعري راق بالفصحى والعامية مما أسهم في تطور الأغنية العربية شكلًا ومضمونًا.

ومن أبرز رواد الشعر الغنائي : إسماعيل صبري وأحمد شوقي وأحمد عبد المجيد وصالح جودت وبيرم التونسي وأمين عزت الهجين وحسين السيد ومأمون الشناوي ومرسي جميل عزيز وغيرهم.

وقد ملأ صالح جودت سماء الأغنية العربية في الوطن العربي بشعره الغنائي العاطفي والقومي المحلق في سماوات الحب والخيال على لهاة عدد من نجوم الغناء والطرب بأغنيات أسعدتنا وأطربتنا وأشجت قلوبنا وأرواحنا أبرزهم: أم كلثوم، محمد عبد الوهاب، فريد الأطرش، محمد فوزي، ليلى مراد، فايزة أحمد، عبد الحليم حافظ، كارم محمود، لور داكاش وغيرهم من أهل الغناء والطرب.

تغنى الموسيقار فريد الأطرش بقصيدة "يا زهرة في خيالي" التي تغنى بها في فيلم "حبيب العمر" الذي عرض لأول مرة على شاشة السينما بالقاهرة في ٢٧ مارس ١٩٤٧، ويقول مطلعها :

يـا زهـرة في خيـالي	رعيتهـا في فـؤادي
جنـت عليهـا الليـالي	وأذبلتهـا الأيـادي
وشـاغلتها العيـون	فـهات سحر الجفـون

كما تغنى فريد الأطرش أيضًا بكلمات أغنية "يا مالكة القلب في إيدك ... ده عيد الدنيا يوم عيدك" في فيلم "لحن الخلود" الذي عرض على شاشة السينما بالقاهرة عام ١٩٥٢.

كما تغنى الموسيقار فريد الأطرش بكلمات صالح جودت: "اسألي الفجر والغروب ... واسألي الشمس والقمر" في فيلم "رسالة غرام" الذي عرض عام ١٩٥٤.

كما تغنى الموسيقار فريد الأطرش بكلمات صالح جودت "يا شمس قلبي وضله، ... يا فرحة عمري كله" في فيلم "حكاية العمر كله" الذي عرض عام ١٩٦٥ وتغنى الموسيقار محمد فوزي بعدة أغنيات من كلمات صالح جودت منها أغنية "استعراض الزهور" أما ليلى مراد فقد تغنت بعدة أغنيات رائعة من كلمات جودت في فيلم "شاطئ الغرام" الذي صور على شواطئ مدينة مرسى مطروح الساحرة عام ١٩٥٠ وعرض في العام نفسه ومنها أغنية "باحب اتنين سوا يا هنايا في حبهم .. الميه والهوا طول عمري جنبهم" وأغنية "يا مسافر وناسي هواك ... رايداك والنبي رايداك" والتي تقول فيها :

"احكي له يا موج مطروح ع القلب اللي بات مجروح ... من فرقة حبيب الروح روح قول له دا قلبي معاك ... رايداك والنبي رايداك".

كما غنت له فايزة أحمد عدة أغنيات وطنية منها "قاهرتي" و"في شارع الأمل" وغنت له سعاد محمد أنشودة "اعلى يا مصر .. كبري يا أم المداين كبري" وذلك بعد انتصارات ٦ أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة.

وغنى الموسيقار محمد عبد الوهاب له عام ١٩٥٠ "أنشودة الفن": الفن مين يعرفه"وغنى قصيدته "أرض النسور".

كما تغنت أم كلثوم بأنشودته "دم الشعب":

قم واسمعها من أعماقي	فأنا الشعب
ابق فأنت السد الواقي	لمنى الشعب
ابق فأنت الأمل الباقي	لغد الشعب

التي كانت بمثابة إشعاع ضوء في لحظة حالكة السواد في تاريخ مصر حين تنحي الزعيم جمال عبدالناصر فكانت هذه الأنشودة بصوت أم كلثوم ليلة ٩ يونيه ١٩٦٧ نداء قويًا للزعيم الخالد للإصرار على استكمال مسيرة النضال والتحرير وصولًا لمعركة العزة والكرامة.

كما تغنت أم كلثوم بقصيدته "الثلاثية المقدسة" التي يقول مطلعها :

رحــــاب الهــــدى يـــا منــــار الـــضياء
ســــمعتك في ســــاعة مـــــن صـــــفاء
تقــــول أنــــا البيـــــت ظـــــل الإله
وركـــــن الخليــــل، أبـــى الأنبيــــاء

كما نغنى المطرب الأصيل كارم محمود بقصيدته "ما اسمك" التي يقول فيها :

مــــا اســــمك بــــين الأســــامي
يــــــافتنتي يــــا غرامــــــي
إن قلـــــــت أو لم تقـــــــولي
فاســـــمك أحـــــلى الأســـــامي

كما غنى له الفنان عبدالحليم حافظ أغنية "الوي الوي".

وغنت له الفنانة شادية أغنية : "أحبك أحبك واضحي بحبك أعز الحبايب" وغنت له صباح "باخاف من سحر عينيك" وغنت له المطربة لور داكاش عدة قصائد غنائية.

وأحدث من تغنى بقصائده الفنان الكويتي الكبير يوسف المهنا الذي اختار إحدى قصائده العاطفية الرقيقة.

كان صالح جودت شاعرًا وجدانيا، عبر عن وجدانه العاطفي وفي نفس الوقت عبر عن الوجدان الوطني المصري والوجدان العربي والوجدان الإنساني بصدق وأمانة.

عاشق البحر

كان البحر بالنسبة لصالح جودت شركًا للحسان، يرى على شاطئه الجسد العبقري، أو يلتقي على صفحاته بالفاتنات السابحات، وأحيانًا يغوص معهن إلى الأعماق. ولهذا، فقد تكررت قصائده "البحرية" التي يروى فيها "عهود المياه"، ومغامرات الشبيبة الموارة الفوارة بالعواطف المنطلقة.

ومن شعر صالح في هذا المجال قصيدته : "الجسد العبقري" على شاطئ ستانلي، وقد جاء فيها:

عبقري أنت ، في كل نتوء وثنيه
عبقري أنت، أوحيت لشعري العبقريه
لست أنسى لحظة الصيف وما جرت عليه
لحظة بين غواني الماء، في الإسكندريه
إذ تجردت وأبقيت من الثوب بقيه
حدثت عما طوته من ثنايا قدسيه

وحين يتذكر "ليالي الإسكندرية" يمر في باله حديث "البحر" ، و"الكورنيش" ، و"الرمل" ، و"أمسيات الصيف" ، وارتياد السابحات الفاتنات شواطئ المدينة المتوسطية. فيقول:

هذه الحسناء مرت فتن الصيف عليها
فكستها سمرة تجتذب الدنيا إليها
رقص الموج على لحن الهوى، بين يديها
فأجابت وابتسامات المنى في شفتيها
أنت أحلى من ليالي البندقيه
يا ليالي الصيف في الإسكندريه

لقد كان صالح جودت في فجر شبابه الغض يكثر من إبداع مثل هذا الشعر الغزلي الرومانسي المصرح، وكم طارد الحسان على الشواطئ، وحتى في الماء، حتى لم تكن أمواج البحر لتعيقه عن مغامرات هواه، وعن جرأة الفتى الجسور الذي لم ينس عهد المراهقة حتى وهو في سن الشيخوخة رغم تلك الموجة الصوفية التي انتابته في خريف العمر.

ولعل أجرأ قصائده "البحرية" ، قصيدة "عهد المياه" التي يقول فيها:

هنـاك ، عـلى الـشاطئ اللؤلـؤي ... وتحـت مظلتـك الوارفـه
جلـسنا نغنـي نـشيد الغـرام ... عـلى نغـم الموجـة العازفـه
وتـسعى إلينـا قلـوب الميـاه ... لتـسمع مـا تنـشد العاطفـه
تـود المويجـات لـو داعبتنـا ... وفاضـت عـلى روحنـا الهاتفـه
فتلقـى مـؤامرة في الرمـال ... فترتـد للبحـر كالخائفـه
وتـشتعل النـار في جـسدينا ... وتلهبنـا الرغبـة العاصـفه
فنمـضي لنطفئهـا في الميـاه ... فتهتـز فينـا اهتـزاز الحنـين
وتـضحك في القلـب مجنونـة ... بعهـد الميـاه، فهـل تـذكرين؟

ولا يلبث بعد ذلك أن يعلن في كثير من الجرأة، عن وقائع تلك التجربة، وعما جرى بينه وبين فتاته، وراء صخرة في المياه، ينشدان أنشودة الغزل:

وذويـت قلبـي في قطـرة ... وذويـت قلبـك في أختهـا
وقابلتـا رغبـة في الـصدور ... فبـددتا الـسحب عـن كبتهـا
وأطلعتاهـا مجوسـية ... تحـشرجت النـار في صـوتها
فرحنـا إلى صـخرة في الميـاه ... أجـادت يـد البحـر في نحتهـا
ولم نبـق سـاكنة في النـوازع ... إلا عـدونا عـلى بيتهـا

وقد تغنى صالح جودت كثيرًا بالإسكندرية التي اعتبرها شاطئ الحب الذي شهدت رماله صبواته وصولاته العاطفية منذ شبابه مع فاتنات الشاطئ اللؤلؤي:

إسكندريةُ، فيك الري والظمأ
بأي قصة حب فيك أبتدئ؟
أقصة الحب طفلا، في ملاعبه
لا همّ أترابه الدنيا ولا عبأوا
أيام كنا نرى الحرمان معصية
ونأخذ اللهو كلاًّ ليس يُجتزأ
ونجعل الرمل قصرًا، ثم نهدمه
ونركب الموج عرشًا، ثم ننكفئ
ولت طفولتنا كالحلم مسرعة
ودب في إثرها المستقبل اللكئ
جاء الشباب، وكنا في ملاوته
نلهو فنغلو، ونستشري فنجترئ
أما الشباب، فقد فُضت موائده
وما تخلفَ إلا الجوع والظمأ
منازل الوحي في مغناك ما برحت
والملهمون على شطيك ما فتئوا
يا ربة الشعر، يا بلقيس دولته
جودي علينا، فإنا كلنا سبأ
بناك للصيف ذو القرنين مروحة
تشفى بها المهج الحرى وتبترئ
سماء غيرك تزهى إن حوت قمراً
وأنت أرضك بالأقمار تمتلئ
إني رأيت طلوع البدر من "بحري"
فقلت هب لي أماناً أيها الرشأ

الحـب والفـن

بجانب مقالات صالح جودت الأدبية نقدم في هذا الكتاب مجموعة من المقالات الطريفة "بعنوان" الحب والفن "كشف فيها صالح جودت الستار عن بعض أسرار الوسط الأدبي والفني بأسلوب أدبي جذاب فقدم لنا مجموعة من التجارب العاطفية لبعض الشعراء والأدباء ورجال الفن والغناء في حقبة الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين وهي معالجة أدبية قصصية تعكس مدى قدرات صالح جودت الإبداعية في مجال القص الروائي وهو جانب مهم في ملكاته الأدبية.

وبعد، فإن نشر هذا الكتاب الجديد للشاعر الأديب صالح جودت بعد مرور أكثر من ربع قرن على رحيله يعتبر بمثابة تكريم لروح هذا الشاعر الفنان الذي لم يأخذ حقه من الدراسة والتكريم، خاصة أن مؤلفاته الأدبية ودواوينه الشعرية قد نفدت ولم يفكر أحد في إعادة إصدارها من جديد، فليكن هذا الكتاب تحية تقدير لروحه يجمع مجموعة من أحلى مقالات صالح جودت الأدبية وصوره القصصية ليقدم لنا الجانب الآخر من صالح جودت الكاتب والأديب القصصي المبدع.

لماذا يتجاهلونه؟

تساءل البعض عن سر تجاهل الشاعر والأديب الكبير صالح جودت منذ رحيله قبل أكثر من ثلاثين عامًا مضت رغم ما قدمه للحياة الأدبية والصحفية من إنجازات وإبداعات تحسب له كأبرز شعراء مدرسة أبوللو هو ومجايليه أمثال إبراهيم ناجي وعلى محمود طه والهمشري وغيرهم من أقطاب الشعر العاطفي الرومانسي في مصر خلال القرن العشرين.

ويأتي هذا التساؤل الآن بعد تساؤلات سبقته لعدد كبير من الأدباء والنقاد المنصفين الذي دهشوا لإسدال ستارة من السيان على ذكرى هذ العملاق ومن ضمنهم د. حسن فتح الباب الذي تساءل في مقال له بجريدة "القاهرة" بمناسبة ذكراه الثانية والثلاثين عن هذا الاسم الذي لمع كالشهب في الأوساط الأدبية والصحفية ثم ما لبث أن أدرج وراء أستار النسيان بسبب اختلاف النقاد في الحكم على مواقفه السياسية وأعماله الإبداعية التي رفعته إلى القمة عند بعضهم وهوت به إلى الرغاء عند البعض الآخر من منظور أيديولوجي بحت ثم طالب د. حسن أن ينسي النقاد مواقفه المثيرة للجدل حول عدائه للشيوعيين وأصحاب قصيدة النثر والشعر الحر ولنذكر جنبه الآخر المضيء حيث أمتعنا بقصائده الفصيحة والعامية التي شدا بها كبار المطربين ولنذكر حين نحلل شخصيته قول المسيح عليه السلام "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر" واليوم فنحن نحتفي بذكرى هذا الشاعر الثالثة والثلاثين – توفى في ٢٣ يونيه ١٩٧٦ – نسترجع بعض إبداعات شاعر الحب والجمال قيثارة مصر الذي تغنى بأمجادها وتاريخها ومرابع الحسن فيها.

ميلاد شاعر

ولد صالح جودت في الثاني عشر من ديسمبر سنة ١٩٠٨ رغم ما قيل أنه من مواليد عام ١٩١٢ – لأب مهندس وشاعر هو كمال الدين جودت، وتلقى دراسته الابتدائية بمدرسة مصر الجديدة بالقاهرة، ودراسته الثانوية بمدينة المنصورة حيث تعرف فيها إلى الشعراء الثلاثة : علي محمود طه، وإبراهيم ناجي والهمشري حيث كانوا يلتقون عند "صخرة الملتقى" بين النيل والصحراء بالمنصورة وبدءوا يراسلون صحف ومجلات القاهرة حيث نشرت لهم قصائدهم واحتفت بهم.

وكان تأثير المنصورة في صالح جودت كبيرًا حيث قال فيها حين ودعها :

آه مما بي، وهل تدرين ما بي؟

يــــــوم ودعتـــــــك ودعـــــــت شـــــــبابي
أيـــــن أحلامـــــي عـــــلى تلــــك الـــــروابي
ذابــــــت الأحــــــلام في قلبــــــي المــــــذاب

وعقب تخرجه في كلية التجارة جامعة القاهرة عام ١٩٣٤ عمل ببنك مصر ثم في الإذاعة المصرية ثم في دار الهلال التي ظل يعمل بها حتى رحيله عن الحياة في ٢٣ يونيه ١٩٧٦ بعد صراع مرير مع المرض.

معاركـه الأدبيـة

شارك صالح جودت في الكتابة بالصحف والمجلات منذ كان طالبًا وتفرغ للعمل الصحفي منذ التحق بدار الهلال في مطالع الخمسينيات من القرن العشرين حيث شهدت مجلات المصور والكواكب وحواء كتاباته الصحفية وإبداعاته الشعرية والقصصية ناهيك عن مجلة الهلال التي ترأس تحريرها حوالي خمس سنوات (١٩٧١ – ١٩٧٦) أضاف للمجلة الكثير من أفكاره وتجديداته شكلًا وموضوعًا.

وقد تفاوتت كتاباته الصحفية بين الموضوعات الأدبية والفنية والقضايا السياسية والتاريخية، فضلًا عن إبداعاته الشعرية والقصصية والروائية، لكنه منذ مطالع السبعينيات انغمس في غمار القضايا السياسية ومعاركها الساخنة خاصة بعد أن تولى منصب نائب رئيس مجلس الإدارة ورئاسة تحرير مجلة المصور بجانب الهلال، وهي الفترة التي جلبت له عداوات كثيرة أضيفت إلى عداوات سابقة بسبب آرائه الأدبية وفكره الرافض للتطرف يمينًا ويسارًا في الأدب والفن والسياسة، حيث هاجم أنصار اليسار والشيوعية وسماهم "القرامزة" وهاجم أنصار قصيدة النثر والشعر الحر واتهمهم بمحاولة هدم عمود الشعر العربي وأصالته، ودافع عن شوامخ الأدب والفكر خاصة أمير الشعراء أحمد شوقي الذي كان يعتبره سيد الشعراء القدامى والمحدثين. وكان في موقفه من قصيدة النثر والشعر الحر ينسجم مع موقف العقاد الذي هاجم هذا اللون بضراوة وكان يحوله إلى لجنة النثر أثناء

توليه رئاسة لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب (المجلس الأعلى للثقافة الآن) في أواخر الخمسينيات وحتى رحيل العقاد (مارس ١٩٦٤) وكانت حصيلة معارك صالح جودت الصحفية والأدبية المزيد من عداوات اليساريين وأنصار الشعر الحديث، فشنوا عليه حربًا شعواء حيًا وميتًا، وتجاهلوا ذكره بعد أن هيمنوا على العديد من الصحف والمجلات والهيئات الثقافية المختلفة، وشرعوا يمجدون كل من لف لفهم وسار في ركابهم وهو ما يحدث الآن من بعض منظري قصيدة النثر، وما هي بقصيدة، وما هي بشعر بعد أن أصبحت ملاذًا لكل فاقد موهبة شعرية ولكل عاجز عن أن يقيم بيتًا شعريًا صحيحًا وكيف لا وقد استباحوا تحطيم عمود الشعر العربي وكسر قواعده وأصوله.

صالح جودت شاعرًا

ظل صالح جودت طائرًا شعريًا محلقًا منذ مطلع شبابه حتى رحيله عن أربعة وستين عامًا، وغلب على شعره ذلك الجرس الموسيقي الناعم، وصوره الشعرية المبتكرة، وتجسيد أخيلته ومعانيه في صور شعرية مبتكرة راقصة.

وإذا كان جل شعر صالح جودت شعرًا عاطفيًا رومانسيًا، فقد أسهم كثيرًا في مجال الشعر القومي الذي تتجلى فيه مصريته الجارفة، وعروبته وأصالته.

وكان يرى أن سر رقة نغمه هو نبع الحب والجمال :

لولا جمالك ما شف الهوى نغمي ... ولا تعشقت الدنيا أغاريدي

ملأتها من سلاف الروح شعشعة ... فخالها الناس معصور العناقيد

وتتجلى في شعره ذاتيته وأصالته، مثل قصيدته "أرض وسماء" التي نلمس فيها مدى اعتزازه بذاته وفنه وكبريائه أمام تعنت محبوبته، حيث يضع كرامته فوق عاطفته :

نزل الستار على الروايه ... وتبدلت تلك الحكايه

يـــا مـــن جعلـــت الحـــب	تـــسلية لقلبـــك أو هوايـــه
إني استـــشرت العمـــر فيـــك	فقـــال لي عمـــري "كفايـــه"!
لا تـــــسأليني أن أعـــــود	فـــأين أرضـــك مـــن ســـمايه؟

وفي قصيدته "كبرياء" نلمس اعتزازه بنفسه ورجولته أمام طغيان سحر محبوبته ودلالها :

أجـــل أنـــت فاتنـــة .. إنـــما	أرى عـــزة الـــنفس لي أفتنـــا
وإن كـان عنـدك سـحر الجـمال	فـسحر الرجولـة عنـدي أنـا
وأنـــت المنـــى غـــير أني امـــرؤ	يـــــذلل للكبريـــــاء المنـــــى
ويكـره في الحـب بـذل الـدموع	وبسط الخضوع وفـرط الـضنى
إذا المـــرء هـــان عـــلى نفـــسه	لكـــان عـــلى غـــيره أهونـــا
فـلا تجعـلي مـن غـرور الأنوثـة	بابـــا يـــسد الهـــوى بيننـــا

ومن أبرز ملامح شخصيته إحساسه القوى بحيوية الفنان وتجدد شباب قلبه ووجدانه رغم عجلات الزمن، فيهمس لمحبوبته الصغيرة أنه دائمًا شاب الروح والقلب والوجدان :

يـا حلـوة العـشرين لا تفزعـي	مـن همـسة الخمسين في مسمعي
أنـــا شـــباب سرمـــدي المـــدى	أنـــا ربيـــع دائـــم المطلـــع
لا يكـــبر الـــشاعر يـــا طفلتـــي	فعمـــــره في حـــــسه الطيـــــع
لا زلـت بـالروح قـوى الـسري	كدفقـــة النهـــر مـــن المنبـــع
قلبـــي عـــلى العـــشرين قيدتـــه	فعمـر قلبـي لـيس يجـري معـي

وكـان لـصالح جـودت صبوات عاطفيـة سـجلها في شعره حتى مـلأ الـدنيا غـزلًا وتـشبيبًا حتى اضـطر أن يـبرر لرفيقـة عمـره "سـها" سر غزلـه وتـشبيبه وتنقلـه بـين ريـاض الهوى وألوان الجمال:

يطالعني وراء السرب سرب ... ولي قلب على الظبيات حدب
أشاهدهن ألوانًا حسانًا ... فلا أدري لأيتهن أصبو
فضامرة بكفي أحتويها ... وفارعة لقامتها أشب
وسمراء لها في القلب وقع ... وشقراء لها في العين وثب
وعاقلة لها فتن رواسي ... وماجنة لها هذر ولعب
يثير جمالهن شجون نفسي ... كأن جمالهن على ذنب

ثم يبرر لها سر ولعه بألوان الحسن وبدائع الجمال :

أنا إن أغر أحلام الصبايا ... بما أغري فليس على عتب
أترجمهن للأيام شعرا ... تضوع بنشره صحف وكتب

ثم يحاول أن يقنع شريكة عمره بفلسفته في الشرك في الحب وأنه ليس في حقيقة الأمر إلا من أكابر الموحدين في حبها :

وقالت لي "سها" أتحب غيري؟ ... فقلت : وحقك لا أحب
تخذتك دونهن هوى مقيما ... له بيت وناصية ودرب
وبعتك عشرتي ووهبتك اسمي ... ولي، مهما ارتحلت، إليك أوب
ولكن الخيال يعز إن لم ... يحرك شجوه بعد وقرب
وهل يرضيك أن أجفو خيالي ... وأشهد لهفتي والنار تخبو؟
وأما الأخريات، فهن كأسي ... من الآلام أشربها وحسب
وهن منابعي في الشعر، لكن ... إليك المنتهى، وهنا المصب!

لقد كان صالح جودت شاعر الحب الطروب اللعوب على - حد تعبير الناقد د. محمد مندور - الذي يملأ الدنيا غزلًا وتشبيبًا ويظل يتنقل من روض إلى روض ومن هوى إلى هوى دون أن يروي ظمأه ويبل غليله.

قيثارة مصر

كان صالح جودت شعلة من الإحساس الجارف في حب مصر والتغني بجمالها والدفاع عن كل حفنة تراب فيها، وهذا ما دفعه إلى الدخول في العديد من المعارك شعرًا ونثرًا للدفاع عن حماها المقدس.

وقد واكب بشعره كل انتصارات مصر وانكساراتها التي عايشها، منذ مطالبته إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وخروج الاحتلال الإنجليزي من مصر :

لا تـــضلوا فإننـــا لا نـــذل　　　مرحبًـا بـالخطوب مهـما تجـل
اخرجـوا مـن بلادنـا واتركونـا　　　واحملوا جندكم من النيل واجلوا

وأثناء معركة ١٩٥٦ تغنى بانتصار إرادة مصر، وأثناء محنة النكسة كان صوته مدويًا مطالبًا بالصبر والاستعداد وراح يبث روح الأمل في النفوس ويهمس لمحبوبته أن لا وقت للحب:

يـا طفلتـي لا وقـت للحـب　　　أمـا دعـا الـداعي إلى الحـرب
لا تـسألي الغيـب الـسلامة لي　　　إن الـشهادة قمـة الغيـب
الحـب يـوم أرى كرامتنـا　　　مرفوعـة الهامـات للـسحب
الحـب يـوم تطـير فرحتنـا　　　فـوق القنـاة وشـطها الرحـب

وعند انتصار مصر في حرب أكتوبر يتغنى بحلاوة النصر وعودة الكرامة لمصر والعرب.

أما موقفه المثير للجدل من الزعيم الخالد جمال عبدالناصر فقد أحبه وجدانيًا ودافع عنه وأشاد به شعرًا حيًا وميتًا، في عدة قصائد لا يتسع المجال لذكرها ومنها في رثائه:

أمـــع الإسراء نادتـــه الـــسماء　　　كـــدت أن أحـــسبه في الأنبيـــاء

وبالرغم من كتاباته الصحفية أثناء الحملة على مراكز القوى في عهد الزعيم جمال عبد الناصر إلا أنه بعد رحيله لم يكتب بيتًا شعريًا واحدًا هجاء في عبد الناصر حتى آخر أيام حياته.

عاشق القاهرة

ترجم صالح جودت حبه لمصر بالتغني بجمال ربوعها، وبأمجادها وعراقتها وتاريخها الممتد، فبعد نكسة يونيه ١٩٦٧ بث الأمل في النفوس بالتغني بمصر :

بلادنـــــا حـــــدائق الغـــــزل
نجومنـــــا عـــــلى الـــــسما قبـــــل
وبيتنـــــا في شـــــارع الأمـــــل

كما تغنى بالقاهرة التي كان يعشقها :

يـــا جنتـــي، يـــا كـــوثري، يـــا هبـــة النيـــل الثـــري
يـــا بهجـــة نائمـــة عـــلى بـــساط أخـــضر
يـــا شـــعلة دائمـــة عـــلى طريـــق الأعـــصر
حبيبتـــي، قـــاهرتي، لـــن تغلبـــي، لـــن تقهـــري

ويتغنى في موضع آخر بالقاهرة، فيقول :

لبيك يا أمل العروبة　أفديك لا أرجو مثوبة　أهواك قاهرتي الحبيبة

كان صالح جودت قيثارة لمصر في كل المحافل العربية والدولية، منافحًا عنها متغنيًا بجمالها وحضارتها وأصالتها.

عاشق مصر

كان صالح جودت يؤمن بأن مصر ستظل دائمًا كنانة الله في أرضه حتى في أقسى المحن التي مرت بها وردد ذلك في الكثير من شعره الذي يؤكد انتمائه لتراب مصر. وله قصيدة رائعة باسم "قرطاجية" ألقاها في مهرجان الشعر بتونس مطلع عام ١٩٧٣ قبيل حرب أكتوبر المجيدة، وكانت لا تزال بعض آثار النكسة بارزة في بعض أرجاء الوطن العربي، وقد جاء في تلك القصيدة الجميلة قوله:

قالت: وكيف النيل؟ قلت لها	رغم الحوادث لم يزل يجري
مستحملا لجراح عزته	متذرعا بالحلم والصبر
مترصدا للمحدقين به	متحفزاً للأخذ بالثأر
ما زالت الأهرام شامخة	والسد مختالا على النهر
والكرنك المرفوع مؤتلقا	يجلو دبيب الروح في الصخر
وصلاة إخناتون خاشعة	غبارة كمؤذن الفجر
وهواية الأمجاد ما برحت	مهوى قلوب الفتية السمر
الصامدين بحلو نكتتهم	يروونها في العسر واليسر
ومن العجائب في طبائعهم	لطف الحمام وعزة النسر
شربوا التفاؤل من تعطشهم	للنيل في تياره الثوري
يروى أبو الهول الأمين لهم	ما شامه من حادث الدهر
نقش الفراعين في براثنه	تعويذة مجهولة السر
مر الغزاة به فما هبطوا	من سفحه إلا إلى القبر

لم يلـــق مـــنهم فــــاتح ســـكنا — في أرض مـــصر عــــصية الظهـــر
إلا جنـــــود الله، إذا قـــــدموا — في موكـــب الإيـــمان والخـــير
يـــسعون والقـــرآن رايـــتهم — والله نـــاصرهم عـــلى الكفـــر
يمـــشون فيهـــا رحمـــة وهـــدى — ويبـــاركون الكـــون بالـــذكر
فتحـــت لهـــم مـــصر منازلهـــا — واســـتقبلتهم رحبـــة الـــصدر
وعنـــت لـــدين الله قانتـــة — ودنـــت لـــه بالحمـــد والـــشكر
وحنـــت عـــلى عمـــرو مهللـــة — يـــا بـــارك الـــرحمن في عمـــرو

وكتب الله للشاعر أن يعود إلى وطنه مصر، وشهد ساعة الصفر، وشهد الهجوم العظيم الذي انتهى باجتياح خط "بارليف" ودحر جحافل العدوان الصهيونية الباغية بزعامة أنور السادات العظيم، وشاء الله أن يكون انتقال صالح جودت إلى جواره الكريم بعد ذلك النصر العظيم الذي تنبأ به ، فسعد قلبه وهلل للنصر المجيد لمصر والعرب بعد معركة أكتوبر المجيدة ١٩٧٣ وعبور القوات المصرية لقناة السويس:

عـــاد لنـــا وابتـــسمت ضـــفتاه — أبـــو الحكايـــات الكبـــار العتـــاه
عـــاد القنـــال الحـــر صـــفواً لنـــا — الله مـــا أجمـــل عـــود الميـــاه
وعانقـــت ســـيناء أبناءهـــا — وهلـــل العـــشب وغنـــى الرعـــاه
وارتـــدت الأرض إلى أمهـــا — والتمعـــت بالبـــسمات الـــشفاه
وانتفـــضت مـــصر فمرحـــى لهـــا — وانعقـــد النـــصر، فـــوا فرحتـــاه

وقـد تغنـى صـالح جـودت بكـل بقعـة مـن بقـاع مـصر: بـسيناء ، والقـاهرة، والإسكندرية في قصائد غنائية وكأنها تراتيل عاشق متيم يرتل في محراب مصر المحروسة.

في ميزان التاريخ

وبعد، ماذا يبقى من صالح جودت للتاريخ؟

رغم كل غبار المعارك الأدبية والصحفية التي أثارها صالح جودت مع مناوئيه، ورغم كل ما هوجم به، ورغم تجاهل ذكره لأكثر من ثلاثة عقود يبقى لنا صالح جودت الشاعر الوجداني الكبير الذي يحتل مع مجايليه : علي محمود طه وناجي والهمشري وحسن كامل الصيرفي مكانة مميزة في الشعر العربي المعاصر، مما دفع القانوني اللامع والشاعر والناقد اللبناني د. فوزي عطوى (١٩٣٩-٢٠٠٨) أن تكون رسالته للماجستير عن "صالح جودت الشاعر والإنسان" التي صدرت في بيروت في أكثر من ستمائة صفحة عام ١٩٨٧.

ويبقى لنا صالح جودت الروائي وكاتب القصة القصيرة مثل "عودي إلى البيت" و"الشباك" و"بنت أفندينا" و"كلنا خطايا" وغيرها. ويبقى لنا صالح جودت كاتب أدب الرحلات مثل "القلم الطائر" و"أساطير وحواديت" ويبقى لنا كاتب التراجم الأدبية مثل مؤلفاته عن "ناجي" و"الهمشري" و"ملوك وصعاليك" و"شعراء المجون" وغيرهم أما معاركه الصحفية السياسية فهي غبار تلاشى بانتهاء الحدث، لكن يبقى إنتاجه وإبداعه الأدبي شاهدًا على مكانته وخلوده وأصالته وقيمته الباقية المتجددة، وإذا كنت قد عرفت صالح جودت شاعرًا وإنسانًا على مدى خمس سنوات (١٩٧١ – ١٩٧٥) أثناء رئاسته للهلال وعملي معه، فقد وجدت فيه إنسانية صافية، وقلبًا كبيرًا يمد يده للمواهب ويقف بجانب الآخرين حتى لو خالفوه الرأي (راجع مقال د. حسن فتح الباب الذي ذكر فيه بعض جوانب إنسانيته وشهامته معه رغم اختلاف التوجهات) ويكفي أنه أتاح لي أن أصدر كتابين في سلسلة كتاب الهلال وأنا ما زلت في مقتبل حياتي الأدبية والصحفية وهما: "صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك" (١٩٧٤) ومأساة شاعر البؤس

"عبد الحميد الديب" (١٩٧٦) وكنت واحدًا ضمن من شملهم برعايته وتشجيعه وشهامته. كان رجلًا من عصر الكبار في ذلك الزمن الجميل، لقد تقلبت في عدة مراحل وعاصرت عددًا من الكبار والصغار، ولكن دائمًا يبقى في الذاكرة صاحب الموهبة الأصيلة، والقيمة الكبرى الذي تبقى أعماله الإبداعية شاهدًا على صالح جودت الأديب والناقد والشاعر والإنسان الكبير الخالد واليوم، ونحن نقدم في هذه الصفحات بعض مقلاته وذكرياته وخواطره الذاتية والأدبية، فإنما تقدم جزءا مهما من تراثه الأدبي، ويبقي أن تتكفل إحدى الجهات الثقافية بجمع ونشر بقية تراثه الأدبي المتناثر هنا وهناك على صفحات المجلات والصحف القديمة وإعادة طبع كتبه العديدة، ونستطيع أن نقول يومئذ أننا أنصفنا صالح جورت كما طالب بذلك الشاعر المبدع الكبير والإعلامي المتميز فاروق شوشة، من منطلق إحساسه أنه ظلمنا هذا الشاعر الكبير الذي آن الأوان لإنصافه، وبذلك نكون قد بدأنا نرد الاعتبار بالفعل لتاريخنا الأدبي المعاصر بكل ملامحه وأبعاده ورموزه.



القسم الأول

حـول قضايا الشعـر

نظريتنا في الشعر

في البدء كانت الكلمة ..

وأول ما كانت الكلمة، كانت شعرًا لا نثرًا وهكذا شاء الله أن يولد الشعر من الأزل، ليعيش إلى الأبد.

وهذا هو شرف الشعر على النثر، حتى لقد قيل إنه لم يحفظ من المنثور عشره فسر الضياع في النثر إذن أنه لا وزن له، وسر الحفظ في الشعر أنه موزون.

وليس معنى هذا أن كل كلام موزون يكون شعرًا يدخل ذمة التاريخ، فإن بنية الشعر – كما قال أبو هلال العسكري – أربعة: لفظ ووزن ومعنى وقافية.

"وهذا هو حد الشعر، لأن من الكلام موزونًا مقفي وليس بشعر، لعدم الصنعة والبنية" (كتاب الصناعتين – لأبي هلال العسكري) وهكذا نلتقي مع دعاة الشعر الجديد في السخرية من القول بأن الشعر هو كلام موزون مقفي ... وحسب.

وعلى هذا الأساس، نسقط من عداد الشعراء في هذا الجيل - ومنهم من أصاب بعض الشهرة - كثيرًا من الأسماء، لأننا لا نرى في شعرها إلا كلاما موزونًا مقفي، ينقصه عنصران من بنية الشعر هما اللفظ والمعنى.

قد طال اللغط في حديث الشعر القديم والشعر الجديد، وكثرت العصبية، ووصلت المعركة في بعض أحيانها إلى حافة اللاأخلاقية.

ولقد أرقت ذات ليلة من حمى المعركة، على خاطر لطيف.

ما خلاصة هذه المعركة؟

خلاصتها إنه كان في مصر – قبل أن يوجد الشعر الجديد – عشرة شعراء على الأكثر.

وكان وراءهم صف قد يصل إلى الأربعين أو الخمسين، ممن أسلفت القول عنهم، ..ين يملكون الوزن والقافية، ولا يملكون شيئًا غير الوزن والقافية، فهم لا يملكون كل سـ الشعر، ولا يجوز لهم أن يدخلوا في عداد الشعراء.

وكان وراء هؤلاء وأولئك طوابير طويلة من عشاق الشعر، قوامها مئات وآلاف، يتمنون لو أصبحوا يوماً في عداد الشعراء، ولكنهم يدركون استعصاء الأمنية، لأنهم لا يملكون من بنية الشعر حتى ما يملكه من أخرجناهم من عداد الشعراء من قبل ... لا يملكون حتى الوزن والقافية.

فلما وجد الشعر الجديد، تكسرت النصال على النصال، وانفتحت الأبواب على كل المصاريع، وهان الطريق على كل طامع في الشاعرية، وأصبح في البلد آلاف من الشعراء.

ما خلاصة هذا؟ خلاصته فكرة متفائلة ......

خلاصته أن الشعر في رواج، وأن كلمة "الشاعر" أصبحت لقبا تخف إليه القلوب ويهفو إليه الطموح، بعد أن كانت منذ جيلين أو ثلاثة كلمة مزرية تقترن بالأدباتية وشعراء الربابة و"بتوع زمر".

إذن .. لنا أن نفرح – لا أن نكتئب – بهذه الظاهرة ... ظاهرة تكالب الآلاف على الشاعرية.

إذن ... نحن مخطئون في محاربة الشعر الجديد، فقد ينبثق من بين مريديه يومًا ما عشرة جدد، أو عشرون جددًا، أو ثلاثون، تهيئ لهم الدربة طريقًا إلى استكمال بنية الشعر، فيضيفوا إلى حصيلة هذا الجيل من الشعر ثروة مقدورة.

وأنا لا أقول هذا ساخرًا ولا عابثًا .... لا والله .... فالتاريخ يعيد نفسه دائمًا، والدليل على هذا – في مجال الشعر – أن هذا الشعر الجديد ليس جديدًا كل الجدة، فلقد لمحناه أيام صبانا – في عهد مجلة "أبوللو" – سنة ١٩٣٢

بل وعاه قبلنا – منذ نحو نصف قرن – جيل سابق لنا، هو جيل العقاد، وعبد الرحمن شكري، وأحمد زكي أبو شادي، حينما راودهم الشعر في أول الصبا، ولم يكونوا قد استكملوا عدته بعد، فخشوا أن تغدر بهم وعورة الوزن والقافية، فنظموا شعرًا كهذا الشعر الجديد.

فلما شبوا عن الطوق، وتهيأت لهم بنية الشعر بعناصرها الأربعة، نبذوا هذه المحاولة، ونظموا الشعر، وأصبحوا من أعلامه، وانبثق منهم صاحب الصيحة العليا إلى نبذ الشعر المجرد من الوزن والقافية.

بهذا الخاطر اللطيف هدأت نفسي، ورضيت عن المحاولة، آملة أن ينبثق من بين أصحابها "شكري" جديد، و"عقاد" جديد، و"أبو شادي" جديد .. عندما يواتيهم النضج، وتكتمل لهم القراءة، ويقعوا من عمدة ابن رشيق على قوله:

"والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجانس أو تقابل أو تطابق فتترك لفظة للفظة، أو معنى لمعني، كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في وضاحة الكلام وجزالته،، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض".

وتحقيق هذا يتطلب أولًا أن تتوفر للشاعر بنية الشعر، من لفظ ووزن، ومعنى وقافيه.

معنى أن هذه البنية وحدها ليست ضمنية بخلق الشاعر الكامل، بل ينبغي أن يضاف إليها ما قاله الجرجاني في تعريف الشعر، حين قال : "الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء.. ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه".

فالدربة إذن – الدربة الطويلة التي خلقت لشوقي مكانة الشاعر الأولى ......

الدربة التي لم تظهر نبوغ الذبياني إلا بعد أن أدرك الستين – هي التي تحدد مكانة الشاعر بين شعراء جيله، لأنها تزوده بمحصول من اللغة والتعبير والموسيقى والحس تعينه على ترويض المعاني للألفاظ، وترويض الألفاظ للأوزان، وترويض الأوزان للقوافي.

وتلك هي المهمة الشاقة في الشعر، ولهذا كانوا يسألون المفضل الضبي:

– لم لا تقول الشعر وأنت اعلم الناس به؟!

ومع كل علمه به، كان يحس أنه لم يستكمل دربته، فكان يقول بكل تواضع:

- علمي به هو الذي يمنعني من قوله ولولا علمه .. ولو رفعت منه تكاليف الوزن والقافية والصنعة والدربة لقال كما يقول الآخرون:

إخواننا الرافضون يقولون: لماذا يقف الاجتهاد عند الخليل بن أحمد؟

وأنا معهم في اتهام القائلين بوقوف الاجتهاد عند الخليل بن أحمد بالجمود

ولكن .. ماذا فعل الخليل بن أحمد ؟

هل كانت بحور الشعر من اختراعه؟

هل اخترع بحرًا واحدًا من عنده؟

إن من يصنع التاريخ غير من يسجل التاريخ، والخليل لم يصنع تاريخًا في بحور الشعر، بل سجل تاريخها وحسب.

وكانت كل مهمته فيما صنع أنه جمع كل ما طاب له بآذان الشعراء من ألحان، وسجلها في "نوتة موسيقية" حروفها التفعيلة، وأطلق على كل لحن منها اسمًا يميزه.

كان شأنه في ذلك شأن أبي الأسود الدؤلي حينما رأى العرب ينطقون – منذ الجاهلية – كلامًا سليمًا دون أن تكون له قاعدة مكتوبة، فهم يرفعون اسم "كان" وينصبون خبرها، ويرفعون الفاعل وينصبون المفعول، ويجرون ما بعد حروف الجر.. ويختلفون فيما يجيء بعد "حتى".

وسجل أبو الأسود هذه المسموعات التي تجرى صحيحة دون أن تكون لها قاعدة مكتوبة، وسمى تسجيلاته بالقواعد، فلم يزد فيها على أن سجل ما هو موجود بالفعل، غير مضيف ولا مخترع، إلى حد أنه سجل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، خلاف العرب على ما بعد "حتى" فكانت آخر كلماته : "أموت وفي نفسي شيء من حتى".

فالخليل بن أحمد لم يكن مخترعًا لبحور الشعر حتى يلقى اليوم هذه السخرية من دعاة الشعر الجديد، وإنما السجية الشعرية هي التي اخترعت هذه البحور على مدى التاريخ حتى ظهور الخليل.

ومع هذا، فإن باب الاجتهاد لم يغلق من بعده، وقد حاول كثير من الشعراء الاجتهاد من بعده ومع إدراكهم أن الرجل لم يكد يترك لحنًا إنسيًا لم يطرق آذان السابقين: فلقد درسوا غير الشعر العربي من آداب الشرق، ومنها الشعر الفارسي، واستخرجوا منه وزن "الدوبيت" مثلًا: ونظموا منه، ولم يفتهم – وهم يحاولون هذا – أن البحر الجديد لم يطرب الأذن العربية – فما لبثوا أن هجروه.

ذلك لأن ما يطرب الآذن العربية قد لا يطرب غيرها، وما يطرب الأذن الأعجمية – وأعني غير العربية، سواء أكانت عجمية أم آسيوية أم إفريقية أم أوروبية – قد لا يطرب الأذن العربية.

ولم يتوان شعراء العرب بعد هذا عن الاجتهاد في استنباط بحور غير بحور الخليل، كبحر شوقي إذ يقول:

مـــــال واحتجـــــــب	وادعـــــى الغــــضب
ليـــــت هـــــاجرى	يـــــشرح الـــــسبب

أو كبحر أبي القاسم الشابي حين يقول:

الـــــوداع الـــــوداع	يـــــا جبـــــال الهمـــــوم
ياضـــــباب الأســـــى	يـــــا فجـــــاج الجحـــــيم
قـــــد جـــــرى زورقـــــي	في الخـــــضم العظـــــيم
ونـــــشرت القـــــلاع	فـــــالوداع الـــــوداع

أو كاستعمال المجزوءات ومجزوءات المجزوءات، والأمثلة في ذلك كثيرة.

أو كاستعمال مجزوء من بحر في مصراع من البيت، ومجزوء من بحر آخر في المصراع الآخر، إذا توافقت موسيقاهما، أو كالاجتهادات الأندلسية في التوشيح وغيره، والاجتهادات المهجرية في اللعب بالبحور على نسق واضح، دون اللجوء إلى التفعيلة الواحدة كما يفعل الشعراء الجدد، ودون اجتراء على الوزن والقافية، اكتفاء بتنويعها على نسق يرجع إليه مقطعا بعد مقطع، كقول ندرة حداد:

لـــــك يـــــا نفـــــس حيــــاة
بعـــــد مــــا ألقـــــى العـــــصا
فالأمـــــــاني جائعــــــات
عليهـــــــا بالحــــــــــصى
كـــــــــي تنـــــــــام
هـــــــي تــــــذكارات شـــــاعر
عــــاش في الـــــدنيا شريـــــد
ومـــــضى في الأمــــــر حــــائر
يقــــصد الـــــضوء البعيـــــد
في الظــــــــــــــــــــلام

أو كقول الشاعر القروي:

أيـــــن يـــــا هنـــــد أنـــــت أيــــن
لــــــترى، آه لــــــو تـــــــرين
شـــــبحًا باســـــط اليـــــدين
يـــــسكب الـــــدمع جـــــدولين
أحمـــــــــــــــــــــــرين
كـــــل حظــــــي مــــــن الوجـــــود
قلــــــم ناحــــــل وعـــــــود
مــنهما، والـــورى هجـــود أتـــسلي ببلبلـــين شـــاديين

أو كقول إلياس فرحات عند ميلاد أولى بناته:

أولـــى فـــراخ البلبـــل الغـــرد هـــذا جنـــاح أبيـــك فاعتمـــدي
هــــــذا الريــــــاض منابــــــت الزهــــــر
تلــــــك البحــــــار مــــــصادر الـــــــدر
ذاك الفـــــــــضاء نجومـــــــه تجـــــــرى

بــــــــالله يــــــــا بنتــــــــي
مــــــــن أيهــــــــا أنــــــــت؟
في أيهــــــــا كنــــــــت؟

مــــا أنــــت مــــن هــــذا الــــتراب ولا
تلــــك الميــــاه وذلــــك الجلــــد
بــــل أنــــت مــــن روحــــي ومــــن كبــــدي

أو قوله في الحنين إلى الوطن العربي:

نــــازح أقعــــده وجــــد مقــــيم
في الحــــشا بــــين خمــــود واتقــــاد
كلــــما افــــتر لــــه البــــدر الوســــيم
عــــضه الحــــزن بأنيــــاب حــــداد

يــــذكر الربيــــع القــــديم فينــــادي
أيــــن جنــــات النعــــيم مــــن بــــلادي

يضاف إلى كل هذا، التجديد عن طريق استخدام الثنائيات والثلاثيات والرباعيات والخماسيات.

والتجديد عن طريق استخدام بحور الزجل في الشعر، كقول الشاعر القديم:

مــــن مــــثلي في عــــصري
بــــستاني في قــــصري
معــــشوقي مملــــوكي
أرويــــه مــــن شــــعري

كل هذه أبواب للتجديد في الشكل – وفي المضمون أيضًا – لا نقول إننا نطبقها وحسب، وإنما نرحب بها ونصفق ونهلل ونطرب لها، لأن فيها الموسيقى والصنعة والانسجام ... الهارمونية التي لا تكون بغيرها الموسيقى أيضًا.

ومن هذا الانسجام، سمى هذا الشعر بالشعر الغنائي، لأنه صالح للغناء.

أما الشعر الجديد، فلا يتضمن هذا الانسجام، ومن ثم فإنه يخرج من عداد الشعر الغنائي، لأنه غير صالح للغناء.

وتستطيع أم كلثوم أن تكون حكما فيصلًا بيننا وبين الشعراء الجدد، بالموهبة الفذة التي أنعم الله بها عليها فإن استطاعت أن تغني قصيدة من الشعر الجديد – المجرد من الوزن والقافية – وطرب لها الناس، فإنني يومئذ أول من يعترف بالشعر الجديد، ويهتف له، ويدخله في الأدب العربي الحديث كلون من الشعر الغنائي.

بعد هذا، أطرق ناحية من النقد الذي يوجهه دعاة الشعر القديم إلى الشعر العمودي.

هم يقولون إن الشعر العمودي ليس شعرًا ثوريًا، إنما هو شعر غزل ومديح وهجاء واستجداء. وأنا أعترف لهم بأن كثيرًا من الشعر العمودي قد هبط إلى هذه الأغراض، وإلى أغراض أوضح منها. ولكن .. هل يقع الوزر في هذا على الشعر نفسه، أم على الشاعر؟

إن الشعر الجديد نفسه قد يقع في هذا المحظور في أي وقت.

ولكن الوزر – كما أقول – يقع على الشاعر، لا على الشعر.

وطالما كان الشعر العمودي ثوريًا إلى أقصى حدود الثورية من قديم الزمان .

من ذلك قول دعبل الخزاعي، الذي اشتهر بعدائه للنظام الملكي في عصر العباسيين:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة
ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب

كـــذلك أهـــل الكهـــف في الكتـــب ســـبعة
كـــرام إذا عـــدوا .... وثـــامنهم كلـــب

ومن ذلك القصيدة التي اختلف في نسبتها إلى توفيق البكري أو مصطفى لطفى المنفلوطي – التي تقول للخديو – في مطلعها – عند عودته إلى العاصمة:

قدوم ولكن لا أقول سعيد
وملك وإن طال المدى سيبيد

ومن ذلك قول شوقي ينتقد تطلع الأحزاب إلى الحكم:

فـــما الحكـــم أن تنقـــضي دولـــة
وتقبـــل أخـــرى وأعوانهـــا .....
ولكـــن عـــلى الجـــيش تقـــوي الـــبلاد
وبـــالعلم تـــشييد أركانهـــا

وقوله :

ومـــا نيـــل المطالـــب بـــالتمني
ولكـــن تؤخـــذ الـــدنيا غلابـــا

وقوله :

والله مـــا دون الجـــلاء وعيـــده
يـــوم تـــسميه الكنانـــة عيـــدا

كل هذا الشعر الثوري – قبل الثورة .

- كان إرهاصًا بها ودعوة إليها.

وبعد الثورة.أتخلي عن التواضع مرة لأقول: إن قصيدة "نشيد الثورة" تعد من خير النماذج للشعر العمودي في احتماله للمضمون الثوري، حين تبدأ تبرير الثورة قائلة:

أيـــا شـــمعة عنـــد كـــوخي الحقـــير
وراء المجاهـــــــــل في قريتـــــــــي
أذوب مـــن النـــار، نـــار الـــشقاء
كـــما ذبـــت بالليـــل يـــا شـــمعتي

وأتخلى عن التواضع مرة أخرى، فأقول إنني لا أستطيع أن أظفر بأنموذج من الشعر الجديد الذي قيل في الثورة، يصل في مضمونه إلى هذه الذروة.

فالقضية إذن ليست قضية مضمون، لأن الشعر العمودي يحتمل كل مضمون، ولا يضيق به، ومتى توفرت البنية والدربة للشاعر، فلا حاجة به إلى تحطيم الشكل، وإنه لمستطيع – في حدود الإطار الأصيل – أن يخاطب أعماق الشعب دون أن ينزل عن حدود العمل الرائع.

فخير الشعر – كما قال أبو عبد الله وزير المهدي – ما فهمته العامة، ورضيته الخاصة.

ويؤكد هذه الحقيقة قول أبي هلال العسكري في تعريف الشعر بأنه : "كلام منسوج ولفظ منظوم، وأحسنه ما تلاءم ولم يسخف، وحسن لفظه ولم يهجن، ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفا بغيضا ولا السوقى من الألفاظ فيكون مهلهلًا دونًا".

بهذه الخواص حفظ الشعر على مر القرون، وقيل فيه: إنه مما يفضل به غيره، طول بقائه على أفواه الرواة، وامتداد الزمان الطويل به، وذلك لارتباط بعض أجزائه ببعض، وهذه الخاصية له في كل لغة، وعند كل أمة، وطول مدة الشيء من أشرف فضائله.

قلت وأنا أتحدث عن حدود الاجتهاد في بحور الشعر، إن ما يروق للأذن العربية قد لا يروق للأذن الأعجمية، والعكس صحيح أيضًا.

وقد عنيت بهذا أن النظر في "الشعر الحر" و"الشعر المرسل" في الأدب الأوروبي، ومحاولة الأخذ بهما في الشعر العربي كباب من أبواب الاجتهاد، عمل انقلابى غير مأمون العواقب

أولًا: لأن الأذن العربية لا تستطيع أن تستمرئ شعرًا بلا وزن ولا قافية.

وثانيًا: لأن غني اللغة العربية، واحتواء قواميسها لنحو خمسة ملايين من الكلمات الأصلية والمشتقة، على حين لا يصل الرقم النظير في أية لغة أوروبية إلى المليون، كل هذا يجعل أمر القافية من أسلس الأمور في يد الشاعر الخبير باللغة.

وأذكر أنني حين حاضرت في جامعة "أيوا" الأمريكية هذا الصيف عن الشعر العربي، ترجمت للطلبة – وهم طلاب دراسات عليا – مختارات من الشعر العربي، قديمه وحديثه – فراقهم إلى حد بعيد، وطالبوني بأن أقرأ لهم هذه المختارات باللغة العربية.

ومع أنهم لا يعرفون العربية، فقد استهوتهم موسيقى الوزن والقافية استهواء عجيبًا حملهم على استعادة قراءتها مرات ومرات.

وكانوا يتساءلون – وأنا أقرأ عليهم قصيدة "النيل" لشوقي – هل الكلمة الأخيرة – يعنون القافية – هي كلمة واحدة تتكرر في نهاية كل بيت!

فلما قلت لهم إن كل قافية هي كلمة جديدة تتفق في موسيقاها مع القافية السابقة، عرتهم الدهشة من غنى اللغة العربية بكل هذه القوافي.

وعندئذ، قال لي البروفيسور "بول أنجل" رئيس قسم الفنون الخلقية (الشعر والقصة والنقد) وهو شاعر وأديب كبير:

- ما دامت لغتكم غنية كل هذا الغني، فلا حجة لشعرائكم في اللجوء إلى الشعر الحر والشعر المرسل، ويجب أن تتقيدوا بالقوافي، ما دامت تمكن لكم من السير بها إلى مائة بيت، ومائتين، أما لغتنا، فلا تحتمل شيئًا من هذا، ولعل هذا هو سر جنوحنا إلى الشعر الحر والشعر المرسل.

وهذا صحيح ...

فكلمة "القبلة" مثلًا في العربية، نجد من نظيراتها في قاموس المحيط مائتي كلمة على الأقل، إذا أردنا أن نجعلها قافية لقصيدة، بينما الكلمة النظيرة لها في اللغة الإنجليزية، وهي kiss لا توجد لها من النظائر في قاموس أوكسفورد أكثر من عشر كلمات على أسخى

الفـروض، ويمتهـى الـترخص وإذا ظفـر شـاعر إنجليـزي بهـذه النظـائر العـشرة، واستخدمها، فليس لأي شاعر يجئ بعده لينظم من هذه القافية، إلا أن يستخدم الكلمات العشر بعينها.

وهكذا لا تكون القوافي في كل قصيدة تالية إلا تكرارًا لقوافي الشاعر الأول.

ثالثًا: أن أهم فارق بين العلم والأدب، أن جديد العلم ينسخ قديمه، أما الأدب، فلا يمكن لجديده أن يقوم إلا على أسس قديمة.

فالعالم الطبيعي المعاصر، غير مطالب في بحوثه الجديدة بأن يرجع إلى جابر بن حيان وفيثاغورس وجاليليو. ولكن الأديب المعاصر مطالب بأن يقرأ الأدب القديم، والشعر القديم، والقاموس القديم، ويعتمد عليها في كل كلمة يكتبها وفي كل بحث يمارسه.

هذه نظريتنا في الشعر، والله يهدينا وإياهم سواء السبيل.

قصة الخيط الذهبي
وحصاد المهرجان ...!

قضيت منذ أيام سهرة ممتعة مع أستاذ في علم الجمال هو "رينيه ويج" الأستاذ بالكوليج دي فرانس، وعضو مجمع الخالدين ... "الأكاديمي فرانسيز"

وتحدثنا في كل شيء ....

ثم انتهينا إلى حديث الشعر، فسألني:

- هل انتشرت عندكم بدعة الشعر الجديد؟

قلت :- نعم

قال :- الكارثة نفسها عندنا في فرنسا.

قلت :- ولكن دعاة هذا اللون يعولون إنهم مجددون.

فقال:- والحقيقة أنهم مخربون ..... إن هذه الحركات التجريدية في الشعر والرسم والنحت والموسيقى وسائر الفنون ليست إلا عملية تخريب تبعدنا عن الأصالة، وتقطع صلاتنا بأصولنا وأعراقنا ..... إنها تقطع الخيط الذهبي!

ومضى الأستاذ رينيه ويج يتحدث عن الخيط الذهبي ... الخيط الذي يربط الفن في كل عصر، بالعصور السابقة والعصور اللاحقة، فقال لي إن الفن كالمصعد ...... "الأسانسير" ...... يصعد طابقًا في كل جيل، دون أن يفقد ارتباطه بالخيط الذي يرفعه إلى أعلى ... ذلك هو الخيط الذهبي .... وعلى أهل الفن في كل جيل أن يضيفوا شيئًا إلى هذا الطابق الجديد، الذي يمثل جيلهم ... فإذا هم اجترءوا على قطع الخيط...سقط المصعد وتهشم..وانهار معه الحاضر والماضي والمستقبل أيضًا.

الهلال: يناير ١٩٦٤

قلت له :- إذن .... أنت كأستاذ للناحية الجمالية في الفنون، لا تقر مدرسة بيكاسو التجريدية؟!

قال:-إنني أعترف بمدرسة بيكاسو لو أنها بقيت داخل أسوارها الإسبانية، لأن العنصر الإسباني هو عنصر الانقلابات طوال تاريخه ... في أرضه .... وفي الأراضي التي امتدت إليها أرضه ... كأمريكا الجنوبية، فما يصدر عن العنصر الانقلابي من انقلاب فني، يجد له ما يبرره، لأن الخيط الذهبي في هذه الحالة هو خيط الانقلاب، أما أن ينتقل هذا الانقلاب إلى أرضنا، أو إلى أرضكم، أو إلى أية أرض بها أصولها الفنية العريقة الراسخة، فهذا تقليد يبعدها عن الأصالة، ويدنيها إلى التخريب، إن العمود الفرعوني عندكم - الذي هو أصل الفن الفرعوني - والذي امتد في العصر الإسلامي، بدليل تشابه المسلة والمئذنة ... هو الخيط الذهبي الذي يربطكم بالماضي ... ويجب أن تحرصوا عليه في حاضركم ومستقبلكم، على أن تضيفوا إليه مزيدا من الجمال في كل عصر .... وتبتروا اليد التي تحاول أن تبتر هذا الخيط الذهبي.

وعدنا نتحدث عن الشعر .... وقول رينيه ويج إن عمود الشعر - كالعمود الفرعوني والعمود الإسلامي - هو امتداد تاريخكم، فيجب أن تحرصوا عليه.

ذكرت قصة الخيط الذهبي، وأنا أشهد وأشارك في مهرجان الشعر الخامس، الذي أقيم في نوفمبر الماضي بالإسكندرية.

ولجنة الشعر بمجلس الفنون والآداب - التي أتشرف بعضويتها - قوامة على عمود الشعر، وقد حرصت في جميع مهرجاناتها الماضية، وستحرص في جميع مهرجاناتها المقبلة، على إحاطة الشعر العربي بسياج منيع يحول دون تسلل العابثين بالخيط الذهبي.

على أن هؤلاء العابثين استطاعوا في هذا العام أن يتسللوا إلى مقاعد المهرجان، لا إلى منبره، وسمعوا .... إذ هم في مقاعدهم.... قولة العقاد:

"لا شعر بغير فن .... ولا فن بغير قاعدة ......"

ووقف الدكتور زكي نجيب محمود، بعد العقاد، ليحدثنا عن ثلاثة من شعراء العرب، ذووا دون الثلاثين، بعد أن تركوا آثارهم الخالدة في كتاب الشعر في عصرهم هؤلاء الثلاثة هم: محمد الهمشري، المصري، وأبو القاسم الشابي التونسي، والتيجاني يوسف بشير السوداني.

قال زكي نجيب محمود :

"كان شعراؤنا الثلاثة من أصحاب الشعر الجديد.

"ولكن .... بأي معنى ؟

"لا يعني التخريب والتحطيم وإشاعة الفوضى، بل بالمعنى الوحيد الذي يجوز قبوله في كل فن جديد، وهو المعنى الوحيد الذي تجرى على سنته الطبيعة في خلقها لكل جديد، وإن شئت فانظر إليها في كل ربيع ماذا تصنع وهي تنبت الزهر اليانع من تراب الأرض، فهي لا تتنكر لعناصر التربة القائمة، وإلا ما أنبتت زهرا، إنما هي تؤلف من تلك العناصر نفسها تأليفًا جديدًا"

ثم انبرى الدكتور زكي نجيب محمود للرد على مقال نشرته "الأهرام" للدكتور لويس عوض وهو من أنصار بتر الخيط الذهبي قال زكي نجيب محمود:

"وإني لأعجب أن تكون الحقيقة ناصعة في الأعين، صارخة في الآذان، ثم لا يراها ولا يسمعها – لا أقول من لا يستطيع رؤيتها وسماعها – بل من لا يريد لها سمعًا ورؤية، وإلا، فكيف جاز لناقد منا معاصر، أن يكتب ذات يوم تحت عنوان "حطموا عمود الشعر" فيقول ما نصه إن الشعر العربي قد مات، وإن من يشك في هذه الحقيقة – أي والله هكذا سماها حقيقة – فليقرأ جبران وناجي وأمثالهما" .. ثم يقول :

"وأما شعائر الدفن، فقد قام بها أبو القاسم الشابي ضمن آخرين!"

"هكذا يقول الناقد الذي لا يريد أن يرى ويسمع، ولو أراد لقرأ للشابي نفسه في معنى التجديد كما يراه"

ثم أورد نص رأي للشابي في التجديد، يستنكر فيه هدم أصول الشعر، ويقول: "إن الحياة نفسها ليست إلا حرية ترسف في القيود، وسلسلة يتصل فيها الطريف بالتليد".

هكذا دوت من فوق منبر مهرجان الشعر بالإسكندرية صيحات كريمة حريصة على الخيط الذهبي من أن تبتره أيدي المتسللين.

وزادت الدكتورة سهير القلماوي على هذه الصيحات نغمات حلوة تربط بين فني الشعر والموسيقي وما يحكم الصلات بين الوزن والقافية والإيقاع، وبين فني الشعر والعمارة وما يحكم الصلات بين البحر والتناسق والانسجام.

ووقفت بعدها لأقول:

عـــدنا، وعـــاد المهرجـــان يـــزف موكبـــه وشـــعره

الـــشعر .... لا الـــشعر الجديـــد المـــستبيح لكـــل عـــوره

لا مـــا يقـــول العـــابثون بكـــل قافيـــة وشـــطره

مـــن كـــل مغمـــور ... يـــسب بغـــير موهبـــة وخـــبره

أو كـــل مـــأجور .. يـــدب وفي يديـــه خـــضاب حمـــره

أوكـــل مغـــرور ... يـــدير إلى عمـــود الـــشعر ظهـــره

الـــشعر؟ إن الـــشعر إلهـــام وأنغـــام وفكـــره

الـــشعر؟ إن الـــشعر ميـــزان وبنيـــان وقـــدره

الـــشعر؟ إن الـــشعر إيـــمان وبرهـــان وعـــبره

الـــشعر؟ لـــولا الـــشعر .. مـــا شـــبت عـــلى الطغيـــان ثـــوره

******

وبعد .. فهل صحيح أن الخيط الذهبي – عمود الشعر – قاصر عن أداء رسالة الشعر في هذا العصر .. كما يقول القرامزة من أعداء الخيط الذهبي؟

لقد اعتلى منبر المهرجان أكثر من أربعين شاعرًا، بينهم نحو عشر شواعر، مهما قيل في شعرهن، فإن أرقهن حالًا في هذا المجال يفضل شعرها شعر الشاعرتين الوحيدتين في تاريخ مصر الحديث، وهما: عائشة التيمورية وملك حفني ناصف.

حصاد الهشيم

مهرجان الشعر

كان مهرجان الشعر، الذي أقيم بالإسكندرية في الأسبوع الأخير من الشهر الماضي، رابع مهرجان يلتقي على منبره شعراء هذا العصر.

وكان هذا أول مهرجان يقام بالإسكندرية أما المهرجانات الثلاثة السابقة، فقد أقيمت جميعا بدمشق.

ولست بمحدثكم عن مهرجان الإسكندرية كشاعر اشترك في المهرجانات الأربعة كلها، ولا كعضو بلجنة الشعر في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .. وإنما يطيب لي أن أحدثكم كصحفي، دأبه أن يعرض ويستخلص.

أستطيع أن أقول إنني في هذه المرة بالإسكندرية، أحسست أنني أفقت لأول مرة من صدمة دمشق.

لقد عشت عامًا كاملًا في دوار من الشيء الذي حدث بدمشق يوم ٢٨ سبتمبر "أيلول" سنة ١٩٦١.

كان مهرجان الشعر الثالث منعقدًا يومئذ بساحة معرض دمشق الدولي.

وكنا نتأهب للاحتفال بذكرى البحتري، شاعر الشام، في أعقاب المهرجان..

وكان الجو كله شعرًا صافيًا ..... وقد أقبل شعراء سورية من كل فج عميق:

من دمشق الفيحاء، ومن حلب الشهباء، ومن حماة وحمص واللاذقية والقامشلي والسويداء ... ووقفوا على المنبر جميعًا وبغير استثناء، يتغنون بالوحدة.

الهلال: ديسمبر ١٩٦٢

وفجأة، تلبد الجو الصافي بالغيم،،، غيم الخيانة والغدر، وقام الانقلاب الرجعي، و يهدم المهرجان، وضاعت ذكرى البحتري، وخرجنا - أو أخرجنا - في ناقلة مزرية قذفت بنا إلى ما وراء حدود إقليمنا الشمالي، كما يلقى باللاجئين!.

تلك هي الصورة الحزينة التي لم أستطع أن أكتبها على منبر مهرجان الإسكندرية، فحاولت أن أرسمها بقولي:

ويا دمشق عتابًا، إن وحدتنا لما يزل جرحها يدمي ويتكئ

ذكرت يومك والأخلاق مطرقة من الحياء، ونور الشمس منطفئ

والمهرجان على من فيه منهدم والبحتري على ذكراه منكفئ

أقول إنني عشت في دوار من هذه التجربة المرة، ولم أفق منها قبل وقفة الإسكندرية.

وكان يضاعف من حدة هذا الدوار، إشفاقي على مصير الشعر ومهرجانه، بعد محنة دمشق.

ففي دمشق، كان المكان يضيق بروداه كل ليلة، وكان يخيل لنا أن أهل الشام هم وحدهم الذين يتذوقون الشعر دون أهل عصر....

كنت مشفقًا على مصير الشعر ومهرجانه، وقبل مهرجان الإسكندرية بأكثر من ليلة، كنت أنتفض في أحلامي، حينما أتصور ما كانت عليه ساحة دمشق من زحام، وما ستكون عليه ساحة الإسكندرية من فراغ.

ثم جاء يوم الإسكندرية...

وكانت القاعة التي التقينا فيها بجامعة الإسكندرية تتسع لأكثر من ألفي نفس ولم أملك أن أراجع دمعة الفرح في عيني، وأن أشهد اكتظاظ المكان برواده، عدا المستندين إلى الجدران والجالسين على الأرض،،، وعدا المظاهرات - المظاهرات فعلًا - المحتشدة في الخارج،، في ساحة الجامعة ... وخلف أسوارها الحديدية... تطالب بحق الدخول إلى مهرجان الشعر!

على أية حال: تحية للإسكندرية .. ولأهل الإسكندرية ... ولطلبة الإسكندرية ... ولجامعة الإسكندرية، لقد كانوا جميعًا عنصر النجاح للشعر ومهرجانه، وكانوا الدليل الرائع على أن دولة الشعر باقية في مصر.

وظاهرة أخرى أحب أن أشير إليها... كانت مهرجانات دمشق تحمل في صفوفها الأولى طابعًا رسميًا، فقد كان أكثر محتلي هذه الصفوف من الوزراء وأشباه الوزراء أما مهرجان الإسكندرية، فلم يشهده من المسئولين غير محافظ الإسكندرية ومدير بلديتها ومدير جامعتها، بوصفهم المضيفين وقد شهدوا أول أيام المهرجان فقط ...، أما بقية الوجوه، فكانت من الشعب، من الشعراء والأدباء، والطلبة والطالبات.

والأهم من هذا أنهم لم يحتشدوا كما يحتشد القطيع، ولم يحضروا لمجرد الزحام... بل جاءوا بعقول متفتحة وقلوب ذواقة، وأحاسيس مرهفة، يدمون أكفهم من التصفيق للشعر الطيب، ويفرغون سخريتهم فوق رأس الغث من الشعر.

أجل ... كان هناك الكثير من غث الشعر، وأكثره قادم من المحافظات، فقد شاء مجلس الفنون والآداب في هذه المرة أن يشرك شعراء المحافظات في المهرجان، فكتب إلى كل محافظ يدعوه أن يختار الشاعر الأول في محافظته.

ولم تكن الحصيلة طيبة، بحيث لا أستطيع أن أقول إن المحافظات جميعًا قد قدمت لنا أكثر من شاعرين أو ثلاثة ... على أكثر تقدير

ومع هذا، فإن المهرجان لم يخل من الكثير من جيد الشعر، ولم يخفق في أن يكشف لنا الستار عن كثير من المواهب الخافية.

لقد ارتقى المنبر أكثر من خمسين شاعرًا ... عدا الناثرين من أصحاب التحيات أو أصحاب الدراسات.

وكان هناك نفر من الفحول، وفي طليعتهم الشاعر الكبير عزيز أباظة، الذي جعل قصيدته غناء في روما ..... ردًا للجميل.

وكانت الصلة بين روما ومهرجان الشعر، أن روما احتفت بذكرى أمير الشعراء شوقي، أكثر مما احتفينا به نحن المصريين، فأقامت له تمثالًا في حديقة الخالدين بقصر بورجيزي.

وقد شهد عزيز أباظة حفل إزاحة الستار عن هذا التمثال في روما، ومن وقفته هناك، ومن روح هذه الشوقية، استلهم قصيدته التي افتتح بها قصائد مهرجان الإسكندرية،وكان مطلعها:

قف بروما في يوم موكبه الضخم ... وقل عشت معبد الفن روما

وكان هناك من الفحول أحمد رامي وكانت قصيدته تسيل عذوبة، وقد استهلها بقوله:

ذكرت شبابي وما قد لقى ... على شاطئ الأبيض الأزرق

وقد رسم فيها صورة لشبابه وتهويمه حول قصر المنتزه – في عهده السابق- يحلم بجولة بين مروجه وغدرانه وجواسقه وزنابقه، ولا يستطيع، لأن القصر كان حرامًا على الشعب، إلى أن هب الثائر الذي حطم الأسوار العالية، وفتح أبواب القصر للشعب.

وكان هناك كامل الشناوي، الذي رتل أغنياته المأثورة "لا تكذبي" و"جميلة" وغيرهما... رتلها بغير ألحان، فجاءت أقرب ما تكون إلى الألحان وأسهم في المهرجان شعراء يمثلون اليمن وفلسطين والجزائر والبحرين ولبنان.

وقد مثل لبنان شاعره الكبير أمين نخلة وهو من شعراء الفخر، ولهذا لم يفته أن يكرر ما يصنعه في كل مهرجان.

ففي المهرجان الثالث- بدمشق- استهل قصيدته بقوله:

أفسحوا في محفل الشعر لنا ... نحن من لبنان، من عليا الدنا

وأذكر أن شاعرًا من شعراء الشام صاح يقول له: شوعم بتحكى .. بدك تقول إننا من بدرون الدنا ؟

أما هذه المرة – في الإسكندرية – فقد كان مطلع قصيدة أمين نخلة ... أيضًا:

لا تقولوا سكنت ريح البيان ... جاء لبنان وماج المهرجان

واشتركت في المهرجان ستة شواعر، هي بترتيب الحروف الأبجدية حتى لا يغضبن:

جليلة رضا، روحية القليني، شريفة فتحي، لورا الأسيوطي، نجاة شاور، نسرين عبد الحي.

وقد أحرص على عدم إغضابهن في ترتيب الأسماء، ولكني لا أحرص عليه في ترتيب الشاعرية لقد كانت الأخيرة – نسرين عبد الحي – صاحبة أجمل قصيدة، وكانت شريفة فتحي صاحبة أجمل وجه، وكانت نجاة شاور صاحبة أجمل صوت..

أستطيع أن أسمى هذا المهرجان، مهرجان الوفاء: الوفاء للعروبة، والوفاء للذكرى، والوفاء للشعر.

كان جل شعر المهرجان تغنياً بالفكرة العربية، وكانت حماسة الجماهير لا تلتهب قدر ما تلتهب حينما تسمع كلمة الوحدة.

وقد خصص المهرجان يوميه الأخيرين للاحتفال بذكرى المازنى وعبد الرحمن شكري وأحمد محرم وخليل شيبوب وعبد الحميد السنوسي وحسن فهمي وزكريا جزارين، وكلهم من الشعراء الذي قضوا زهرة العمر على ضفاف البحر المتوسط ... أو "الأبيض الأزرق" ... كما سماه رامي.

وقد استهلت الأيام الثلاثة الأولى للمهرجان بثلاثة بحوث، للعقاد، وزكي نجيب محمود، وسهير القلماوي، دارت كلها حول موضوع التجديد في الشعر.

ولست بحاجة إلى أن أشير إلى ما تميزت به هذه البحوث الثلاثة من العمق والأصالة، ولكني بحاجة إلى تذكرة الحريصين على قوام الشعر، إلى أن البحوث الثلاثة قد أكدت معنى واحدا، هو أن الشيء الذي يسميه أصحابه بالشعر الجديد، ليس إلا أسطورة متهاوية، وخرافة تنم عن العجز، وهذه حقيقة لا نقولها نحن وحدنا، بل لقد أكدها شاعران عالميان زارا القاهرة في الشهر الماضي كان أحدهما من الغرب، من أمريكا، هو جيمس ستيوارت، من أعظم شعراء الدنيا الجديدة، وكان الآخر من الشرق، هو فاليري بتروف، صاحب جائزة الدولة للشعر في بلغاريا.

ومع اختلاف مذهبيهما ووطنيهما، فقد أكدا لنا في كل محفل شهدناه معهم أن حكاية الشعر الجديد هذه هي بدعة الأغرار والعجزة والجاهلين، وأن أبرز خصائص الشعر هي الوزن والقافية.

وهكذا تكلم العقاد قال:

"فالحجة التي لا تسمع في تغيير الفنون، أن يقال أن الفن بغير قاعدة، أسهل من فن القواعد، وأن سهولة الشعر بغير أوزان العروض، مسوغة للتخلص من صعوبة الأوزان، إن صح أن فيها صعوبة على الفنان".

"إن الحديث أسهل من الغناء وإن المشي أسهل من الرقص، وإن الأصوات المطلقة أسهل من الأصوات الموسيقية ... ومع هذا وجدت فنون الغناء والرقص والموسيقى، لأنها لا تكون فنونًا بغير قواعد، ولا تكون فنونًا بالجانب الذي يتساوى في القدرة عليه الفنان وغير الفنان".

أما سهير القلماوي، فقد أسكتت الشعر الجديد بألف حجة وحجة، وكانت هذه الحجة الأخيرة، أن العبقري وحده هو الذي يستطيع أن يفرض على الناس كل جديد.

ولكن هذا العبقري – من دعاة الشعر الجديد – لا وجود له بالمرة.

فليسكت – أو فليسقط – هذا الجديد!.



القسم الثاني

صفحات من حياتي

قصتي مع الأغنية

ما أجمل أن يستطيع الإنسان العودة بعمره إلى الوراء بضع عشرات من السنين..

وقد رجعت أنا بعمري عشرات السنين فعلًا ... والذي استطاع أن يهيئ هذه الفرصة لي، واحد من قرائي كتب يسألني:

- متى بدأت تتجه إلى كتابة الأغنية؟
- وما هي أول أغنية كتبتها؟
- ومن الذي لحنها .. والذي غناها؟

والحقيقة أن هذه الأسئلة تردني إلى عهد الطفولة المبكرة .. إلى سن الثامنة أو التاسعة .. حينما بدأت أقرأ شعر شوقي.. وأحاول أن أقلده وأنظم على غراره.

وفي الثانية عشرة – وأنا طالب بالمدرسة الثانوية – كنت من هواة التمثيل، وهي هواية صاحبتني أكثر من عشر سنوات، إلى أن وضع الفنان العظيم جورج أبيض، رحمه الله، نهاية لها في موقف عاصف.

ولا بأس من رواية هذه القصة، قبل أن استطرد في حديثي عن الأغنية.

كنت في المدرسة الثانوية عضوًا بفريق التمثيل.

وكبرت الهواية عندي وأنا بالجامعة.

وكنت أحب جورج أبيض، وأتردد على مسرحه دائمًا، ويطيب لي أن أتسلل وراء الكواليس، لأراه في مقصورته وهو يتأهب لأداء دوره، ولأراه بعد أن ينتهي من أداء الدور.

كان شيئًا فريدًا حقا ..

الهلال: مارس ١٩٦٣

كان إذا هم بتمثيل دور لويس الحادي عشر، مثلًا، يذهب إلى المسرح مبكرًا، ويلبس ملابس الدور، ويضع مكياجه، ثم يدخل إلى مقصورته، ولا يسمح لأي مخلوق أن يدخل عليه .. ولكنه كان يترك باب المقصورة مفتوحًا ..

وهكذا أتيح لي أن أراه من بعيد عشرات المرات، في طور التأهب لعشرات من الأدوار.

كان يدخل المقصورة، ويجلس أمام المرآة الكبيرة التي فيها، ويحملق .. ويحملق .. ويحملق في نفسه ... وفي ملابسه .. وفي التاج الذي يعلو رأسه .. إلى أن يتقمص الدور، ويخيل له أنه أصبح ملكًا، وأنه هو لويس الحادي عشر بالفعل.

ويبدأ يغمغم ويهمهم، كأنه يعاني إرهاص رسالة الملك .. ويستمر في الغمغمة والهمهمة بصوت غير مفهوم .. نصف ساعة .. وأحيانًا ساعة كاملة .. يردد في خلالها بعض العبارات الطويلة من دوره.

ويستمر هكذا إلى أن يسمع دقات المسرح الثلاث .. إيذانا بارتفاع الستارة فينهض من مكانه متجهًا إلى خشبة المسرح وئيد الخطي، لا يتلفت حوله، ولا يكلم أحدًا ولا يكلمه أحد، ويدخل المسرح .. وقد نسي تمامًا أنه جورج أبيض.

كان التمثيل عنده نوعًا من تقمص الشخصية وحلول الأرواح ....

كنت مفتونًا برؤية هذا المشهد كل ليلة ..!

ومن هنا نشأت الصداقة بيني وبينه.

وحينما تخرجت في الجامعة ..

كان جورج يبني مسرحة – الذي تحول إلى سينما فيما بعد – بحدائق القبة.

وكنت في بيته نتحدث عما هو فاعل بهذا المسرح، فقال لي أنه يزمع أن يقدم عليه بعض مشاهد من مسرحياته الكبرى، بمشاركة بعض الهواة ومنهم ابنته "سعاد".

وقال لي ذات ليلة : "أنت هاوي تمثيل، فلماذا لا تشترك معنا.

ولم أتردد .. وقبلت الدعوة على الفور واخترت مشهدًا من لويس الحادي عشر،

ليس فيه إلا ثلاثة ممثلين، هو وسعاد وأنا وكان من نصيبي دور "نيمور" وبدأنا "البروفات" اليومية...

ومنذ أول لحظة .. قال لي جورج: عظيم ... عظيم جدًا ... أن مستقبلك في عالم المسرح لا في الصحافة ... ولا في الشعر ... ولا في الاقتصاد ..

وأضاف كلمة الاقتصاد، لأنه كان يعلم أنني متخرج في كلية التجارة.

وبدأ الموسم ..

ومرت الليلة الأولى ... عال والليلة الثانية .. أحسن منها!

وفي الليلة الثالثة .. حدث ما لم يكن في حسبان أحد.

وجدت نفسي على المسرح، وقد نسيت دوري تمامًا، فلم أعد أذكر كلمة واحدة!

كنت مع سعاد على المسرح، وكان جورج وراء الكواليس.

وصاح بي: "تكلم ...."

ولم أتكلم

وعلا صوته من وراء الكواليس، وكان رحمه الله إذا غضب يتكلم باللهجة الشامية .. قال:

- ولاك أنطق يا أزعر.

وازداد اضطرابي، وأردت أن أخفف حدة توتري بتدخين سيجارة، فأخرجت من جيبي علبة سجاير "لاكي سترايك" ... وبدأت أدخن.

وجن جنون جورج من وراء الكواليس، وصاح بي .. بنفس اللهجة:

- يخرب بيتك ... يخرب بيتك .. ما كان فيه سجاير لاكي سترايك بزمان لويس الحادي عشر.

وأنقذت زوجته الرقيقة، السيدة دولت أبيض، أطال الله بقاءها، موقفي .. بان قامت بدور الملقن من وراء الكواليس، فعادت لي الذاكرة .. ومرت الليلة.

ولكني لم أقف على المسرح منذ تلك الليلة – حوالي سنة ١٩٤٠ – إلى الأبد .. أبدا!

وانغمست في كتابه الشعر العاطفي حتى نسيت دراستي وأفقت من غفوتي لعبارة كتبها والدي هي: "دع عنك هذا الهراء"، وتفرغ لدروسك يا ولدي"

وعدت من المدرسة، وقرأت هذه العبارة، وأحسست بالخجل، فمزقت الكراسة كلها.

وكأني مزقت معها حبي الأول ... حبي الذي ولد ومات في الوهم.

ونسيت خيرية

أنا ... ورامي

ومرت سنوات كثيرة، اتجهت فيها للشعر، وللشعر وحده، إلى أن تخرجت في الجامعة.

وكان صديقي رامي، كلما لقيني يقول لي:

- أهلًا بالشاعر الذي لم يزجل يقصد أنني لم أقل زجلًا .. ولم أنظم أغنية عامية..

والحقيقة التي قد لا يعرفها أحد، أن رامي خلق شاعرًا، وليس زجالًا.

وكان شعره في مطلع شبابه خليقًا بأن يصل به إلى مرتبة أمير الشعراء، لولا تعلقه بأم كلثوم منذ طلوع فجرها، مما حوله إلى نظم الأغنية الدارجة.

ورامي اليوم حزين على ما فات من عمره في نظم الأغنية، وإنه ليذكر لي فضلًا عليه، هو أنني أنا الذي حاربت فيه نظم الأغنية الدارجة في السنوات الأخيرة، ودعوته بإلحاح إلى العودة للشعر .. فعاد .. ونظم في العامين الأخيرين أكثر من عشرين قصيدة من عيون الشعر، أخص بالذكر منها قصيدته في مهرجان الشعر الأخير بالإسكندرية، التي جاءت من أجمل نماذج الشعر في هذا الجيل. ومطلعها:

ذكرت شبابي – وما قد لقى	على شاطئ الأبيض الأزرق
زمان خطرت على رمله	أجر ذيول الصبا المونق
مع الليل من مغرب ساحر	إلى الفجر في مطلع مشرق

أهـيم مـع المـوج في كـره ... متـي يتفـرق أو يلتقـي
وأسرى مع الـنجم عبر الـسماء ... تهـادي عـلى صـفحة الزئبـق
خليـا مـن الهـم، طلـق العنـان ... مراحـي عـلى الـورد والزنبـق
ومـاذا عـليّ، وظـل الـشباب ... نـديٌّ يـرف عـلى زورقـي

أقول .. كان رامي يطالعني دائمًا بهذه التحية : "أهلًا بالشاعر الذي لم يزجل" .. وكنت أحس بأنه يفخر بي حين يقول هذا ..

وهكذا كنت أفخر بنفسي، مع أنني لا أكسب من الشعر شيئًا، في حين أستطيع أن أكسب من الأغنية شهرة ومالًا وجمهورًا كثيرًا.

وذات يوم .. وكنت يومئذ مديرًا للدعاية في بنك مصر .. دخل على الريجسير المعروف قاسم وجدي، وقال لي:

- ألحقنا .. نحن في ورطة.

- خيرًا .

- هناك أغنية تلعب دورًا هامًا في فيلم يجرى تصويره الآن في ستوديو مصر. ولابد من تسجيلها الليلة.

- وما هو المطلوب مني؟

- أن تنظم الأغنية.

- ولكنى لا أنظم الأغاني الدارجة.

- نعم .. ولكنك تستطيع.

- يا سيدي .. لا

- يا سيدي .. أيوه .. إن كمال سليم يرجوك!

وكان بي ضعف لكمال سليم .. فلم أستطع أن أقول لا، ولا سيما حينما عرفت أن الأغنية لابد أن تؤلف وتلحن وتسجل في نفس الليلة، وأنها لا تعتبر أغنية عادية، بل أنها

تقوم بدور بطولي في القصة، وتتكرر ثلاث مرات، وفي مبناها مفتاح هام من مفاتيح الدراما في القصة.

قلت لقاسم وجدي: "ومن الذي سيغنيها؟ "قال : "فاطمة رشدي ".

وإذا كنتم تذكرون فيلم "العزيمة " .. لذي لا يزال يعد أعظم فيلم في تاريخ السينما المصرية مع إنه أنتج منذ عشرين سنة، فاذكروا أن أول أغنية دارجة نظمتها وخرجت إلى النور، هي أغنية:

يـــــا بلبلـــــين في الهـــوا	خـــايفين مـــن العـــاذل
قالـــت عيـــونهم ســـوا	امتـــــى حانتقابـــــل

التي غنتها فاطمة رشدي في ذلك الفيلم .. وقد لحنها رياض السنباطي.

وللحقيقة والتاريخ، أقول أن فاطمة رشدي غنتها بطريقة "الدويلاج " ... أعنى أنها كانت تهمهم بشفتيها فقط .. ووراءها صوت مطربة اسمها آمال حسين.

بقى سؤال .. قد يوجهه لي يومًا ما القارئ الذي أثار كل هذه الذكريات:

- كم تقاضيت من ستوديو مصر ثمنًا لهذه الأغنية؟

والجواب: ولا مليم .. لقد كنت يومئذ هاويًا .. قبل أن يأتي زمان الاحتراف.

وهنا .. لابد أن أعود إلى حديث أبي: رحمه الله .. الذي كتب لي عبارة "دع عنك هذا الهراء، وتفرغ لدروسك يا ولدي " كان رحمه الله على حق ..

فقد كان سعر الأغنية في زمانه جنيهًا واحدًا!

هكذا ذكر لي رامي .. الذي لا يزال يملك فونغرافا قديمًا، اشتراه من شركة بيضافون بعشرة جنيهات، لم يدفعها، لأنه حعل الثمن مقابل من أغنياته لأم كلثوم.. منها "إن كنت أسامح " و"الشك يحيى الغرام " و"أيها الفلك على وشك الرحيل " وغيرها وغيرها .. سجلتها له شركة بيضافون، وطبعت منها أكثر من مليون أسطوانة .. وقدمت له مقابل ذلك ورقة بعشرة جنيهات .. اشترى بها الفونوغراف!.

بعيدًا عن الجنس اللطيف ..!

لا أظن أن كثيرًا من القراء قد عاش هذه التجربة التي عشناها، مهدي علام ويوسف السباعي ونجيب محفوظ وأنيس منصور ومحمود حسن إسماعيل .. وأنا خمسة عشر يومًا في الطريق إلى اليمن، ومن اليمن، وفي اليمن ذاتها.

التجربة مثيرة في كل خطوة منها:

في البحر الأحمر بشعابه المرجانية الهوجاء ..

في الحديدة، حيث تصعد الحرارة إلى خمسين درجة، وحيث يصاب المرء بضربة الشمس وهو في الظل!

في صنعاء حيث يباع الماء المثلج في سوق خاصة .. الكوبة بقرش.

في مأرب، حيث تتناثر أشلاء مملكة سبأ خلف أسوار النسيان.

في تعز، حيث يتساقط المطر في عز الصيف، وحيث تشارف العين مناظر جبلية خضراء ذات عيون وينابيع لا تقل عن فتنة لبنان!

التجربة مثيرة من كل زاوية ..

خمسة عشر يومًا، على ظهر الباخرة، وفي مختلف ربوع اليمن، لم تقع خلالها عين أحد منا على امرأة، ولا سمعنا خلالها صوت امرأة!

تجربة مثيرة، أن يعيش الإنسان خمسة عشر يومًا بلا امرأة.

ذلك أن المرأة اليمنية لا تزال محجبة، تتحرك في الطريق تحت بردة كأنها خيمة اسطوانية لا يبدو منها إلا بصيص ضئيل من عينيها تتلمس به الطريق.

وقد عشت طول حياتي في وهم كبير ... كنت أحسب أن الحياة لا تحتمل بغير المرأة.

ولكني خرجت من تجربة اليمن بأن الحياة ممكنة، ومحتملة جدًا بغير المرأة!

بل خرجت من تجربة اليمن بأن الرجل يجب أن يعيش فترة من كل سنة، لا تقل عن خمسة عشر يومًا، بغير امرأة.

في خلال الأيام الخمسة عشر، قرأت أكثر مما أقرأ عادة في ستة أشهر كاملة وهذه هي أولى فوائد البعد عن المرأة!.

وكنت قد ملأت حقائبي بألوان كثيرة من الكتب، غير أني حينما لم أجد حولي امرأة، بدأت أنقب في حقائبي، وأتخير الكتب التي تدور حول المرأة، أو تفوح منها رائحة الجنس.

معركتي مع الأرواح

أنا لا أؤمن بحكاية الأرواح، وتحضير الأرواح، وتناسخ الأرواح ..

ومع هذا، فأنني لا أخفى أن أنيس منصور قد استطاع إغرائي بهذه الحكاية منذ سنتين تقريبًا، حين عاد من أندونسيا، ونشر أكثر من مقال في "أخبار اليوم" و"الجيل" عن تحضير الأرواح بوساطة السلة ..واستطاع أن ينشر هذه "التقليعة" في بيوت الناس الآمنين، الذين استغنوا عن الخروج والمسرح والسينما، وآثروا أن يقبعوا في بيوتهم يحضرون الأرواح على طريقة أنيس منصور.

وأنا أعيش في واحد من هذه البيوت الآمنة، وعلاقتي بزوجتي طيبة جدًا، وهي تثق في ثقة عمياء.

قالت لي ذات ليلة .. وكان عندنا ضيوف:- تعال نحضر الأرواح.

وجاءت بالسلة .. وبالقلم وبالورقة .. وبطفلتين من بنات الجيران في أول الصبا، وخفضت حدة النور، وأطلقت البخور، وقرأت الفاتحة واستحضرت روح أبيها .. رحمه الله

وبدأت السلة تهتز بين أيدي الصبيتين ... وراح القلم الذي في قاع السلة يعبث بالورقة التي تحته، إيذانا بحضور روح المرحوم الوالد.

وبدأت زوجتي تسأله أسئلة شخصية، عن نفسه، وعن مصيره، وعن إخوتها وأخواتها، وعن جميع المسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات.

واعتبرت أنا هذه الأسئلة شخصية، لا شأن لي بها ولا بأجوبتها، ما دامت لا تمسنى شخصيًا.

- الهلال: نوفمبر ١٩٦٢.

ثم وصلت إلى السؤال الأخير قالت له:

- وما رأيك في صالح جودت؟

فقال ... رحمه الله:

- إنه لعوب ... ولكنه طيب القلب!

وقالت له بصوت متهدج تخنقه العبرات:-متشكرة يا بابا.

وانصرفت روح المرحوم، بعد أن تركت هذا الإسفين يعبث بالثقة الكبيرة التي أرسيت قواعدها في أعماق زوجتي أكثر من عشر سنوات.

وبعد هذا الحادث... أصبحت زوجتي لا تجد تفسيرًا لأي شيء يبدر مني أو يظهر حولي أو يقال عني ... إلا كلمة أبيها رحمه الله: "ما انت لعوب ..على رأي بابا!

فإذا دق التليفون في البيت، ورفعت هي السماعة، ولم يجب أحد، نظرت لي نظرة ذات معنى، وقالت: ما هو بابا قالها ...

وإذا خلوت بنفسي في غرفة مكتبي أقرأ أو أكتب.. أو سرحت قليلًا أفكر في قصيدة ... أو جلست إلى جانب الراديو أستمع إلى موسيقى شاعرية هادئة .. ابتسمت ابتسامة خبيثة وقالت: "الله يرحمك يا بابا".

وإذا سهرت ليلة مع بعض الأصدقاء خارج البيت .. في ندوة ... أو في عزاء... أو في حفل بريء .. كان أول ما أسمعه منها عند عودتي إلى البيت: "والله لوما كنش بابا قال إنك طيب القلب .. ماكنت قعدت معاك ولا يوم ... يا لعوب".

أما أنا .. فقد كنت أكتفى في كل مرة بأن أقول: "منك لله ... يا أنيس منصور"

وأخيرًا ... طفح الكيل، فقلت لها :

- اسمعي ... هل تعتقدين أن أباك كان رجلًا طيبًا أم بطالًا؟

- فشر .. كان أبي سيد الرجال

قلت : حسنا .. وهل تتصورين أن سيد الرجال يرسل روحه إلى ابنته ليخرب بيتها؟

قالت مشدوهة :كيف؟

– يا سيدتي ... إن البيوت لا تستطيع أن تقوم إلا إذا قامت على أساس من الثقة فإذا ضاعت الثقة، أصبح البيت أوهى من بيت العنانى ... واندك على رءوس سكانه!

وارتسمت في ذهنها صورة بيت العنانى، عمارة الموت، التي انهارت على من فيها بأحد أحياء القاهرة منذ سنوات قريبة، فصرعتهم جميعا ... وارتجفت أوصالها أمام هذه الصورة.

واستطردت أقول لها : يجب أن تضعى كل ثقتك في واحد من اثنين: فإما أنا .. وإما روح المرحوم الوالد!

ووازنت المسكينة بين الاثنين موازنة مادية .. فرأت أنني أبقى، وأنفع ... فاختارت الأول .. ولم أعد أسمع منها كلمة: لعوب.

لم تكن هذه أول واقعة بيني وبين الأرواح.

أذكر أنني حينما كنت مراقبًا للبرامج الثقافية بالإذاعة، جاءني الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير، رئيس جمعية الأرواح – رحمة الله عليه – ودعاني وبعض زملائي مع نفر من أهل الفن إلى جلسة لتحضير الأرواح في بيته، واعدا بأنه سيحضر روح المرحومة "ألمظ" .. المغنية المعروفة .. حبيبة عبده الحامولي.

وذهبنا .. وجلسنا في غرفة مظلمة .. وسمعنا أصواتا عجيبة تتكلم بالسفلى ... لغة الجن !

ثم بدأ الغناء...

وأرهفت سمعى إلى صوت المرأة التي تغني، فتبينت من أول مقطع، أدركت أنه ليس صوت ألمظ، بل إنه صوت مغنية شابة تغني في الإذاعة، اسمها مديحة عبد الحليم وملت على أذن زميلي محمد فتحي – كروان الإذاعة يومئذ .. كما كانت تسميه الصحف – وكان يجلس عن يميني، وسألته:

– أليس هذا صوت مديحة عبد الحليم ؟

قال : بالضبط

وكانت ليلى مراد تجلس عن يساري، مع زوجها السابق المرحوم أنور وجدي.

فسألتها نفس السؤال، فقالت:- هي ... والله العظيم !

وانتهى الغناء .. وعادت أصوات العفاريت ثم تضاءلت رويدًا رويدًا حتى تلاشت وأضيئت الأنوار، وتلفت بعضنا إلى البعض وجاء الداعى يسألنا:

- ما رأيكم في صوت ألمظ ؟

فتحرجوا جميعًا ... إلا أنا

وبادرته قائلًا:- يا أستاذ .. نحن رجال إذاعة خبراء بالأصوات ... هذه ليست ألمظ

- إذن ... من تكون ؟

- مديحة عبد الحليم.

وأسقط في يد الرجل، وقال مرتبكًا :

- هذا صحيح .. "إنها مديحة .. ولكن روح ألمظ حلت فيها بإذن الله...

كانت هذه أول واقعة لي مع المرحوم أبي الخير.

أما الواقعة الثانية، معه أيضًا.... فكانت نسبب يتصل بشرف العلم.

ذلك أنني من هواة الإيجيبتولوجيا – علم الآثار المصرية – منذ زمن طويل، والفضل في هذا يرجع إلى صديقي الأثري المعروف الدكتور أحمد فخري، الذي حبب إلى هذه الهواية.

وحدث منذ أكثر من عشر سنوات، أن توصل الدكتور فخري – وكان يومئذ مديرًا لآثار الصحاري – إلى كشف أثري مهم بمنطقة دهشور.

وكان سبيله للوصول إلى هذا الكشف مجرد إيمانه بنظرية الفراعنة في بناء معبد جنائزي شرقي كل هرم يبنونه، وما دام هناك هرم في دهشور، فلا بد أن يكون في شرقه معبد مطمور تحت الرمال.

وبدأ عملية التنقيب في الجزء الشرقي من الهرم، فما لبث أن ظفر بالطريق الذي يؤدي إلى المعبد.

وتتبع الطريق حتى نهايته، فوصل إلى المعبد، ورفع عنه الرمال، فتكشف بجميع غرفاته!

واهتمت الدوائر العلمية بهذا النبأ، واحتفت به الصحف والإذاعات العالمية.

وفجأة طلعت "الأهرام" ذات صباح بمقال للأستاذ أحمد فهمي أبو الخير – غفر الله له – يقول فيه : إن الفضل في الكشف عن هذا المعبد لا يرجع إلى الدكتور فخري .. بل إلى الأرواح!

وأضاف إن وسيطًا روحيًا أجنبيًا – أظن أن اسمه رومانوف – زاره منذ شهور، وذهب به إلى منطقة دهشور، وعن طريق الأرواح، أشار إلى مكان هذا المعبد، قبل أن يكشف عنه الدكتور فخري بعدة شهور ولابد أن الدكتور فخري سمع بهذه الحكاية، وحفر، وادعى لنفسه شرف الكشف، منكرًا فضل الأرواح!

وثارت ثائرة الدكتور فخري .. وكان كل ما يملكه من متاع الدنيا ألف جنيه .. ثمن بضعة فدادين ورثها عن ذوية في الفيوم، فكتب للأهرام يقول إنه مستعد لأن يقدم كل ثروته – الجنيهات الألف – لأبي الخير، إذا أثبت أمام لجنة تختارها الجريدة أن الوسيط المذكور وقف في هذا المكان – مكان المعبد – أو أشار إليه.

ولم يتحرك أبو الخير طبعًا، ولم يقبل الرهان، ولم ينبس ببنت شفه ...

أما أنا، فقد تحركت ... وذهبت إلى دهشور .. وسألت كل من هناك عن حكاية الوسيط الروحى، فقالوا لى إنه جاء إلى دهشور حقًا ولكنه ذهب إلى مكان بعيد غربي الهرم لا شرقيه .. ولا غربيه بعدة كيلو مترات – وقال إن هناك كنزًا من الذهب!

وعدت ثائرًا لشرف العلم، ساخطًا على عبث الشعوذة.

وكتبت في مجلة "الإذاعة" – وكنت يومئذ رئيس تحرير لها – أتحدى أبا الخير أن ينطق.... فلم.... ينطق!

ومرة ثالثة خضت معركة مع الأرواح ..

كان ذلك منذ سنوات قريبة .. في ذكري أمير الشعراء شوقي .. وقد أقام المجلس

الأعلى لرعاية الفنون والآداب حفلة الذكرى في القاعة الذهبية بقصر النيل.

وإذا بسيدة تتوجه إلينا برسالة من الأستاذ أبي الخير – رحمه الله – يقول فيها إن هذه السيدة – وهي زوجة طبيب – متصلة بالأرواح، وإن صلتها وثيقة بروح شوقي، الذي يمن عليها ببعض الشوقيات بين الحين والحين .. من الآخرة!

وقالت لنا السيدة: إن روح شوقي قد أملت عليها شوقية خاصة لهذا المهرجان!

"وقرأنا القصيدة – يوسف السباعي ورامي وأنا – فوجدنا بها سقطات لغوية لا يسقطها إلا طالب بالمدرسة الثانوية.. وسقطات عروضية لا بسقطها إلا "القرامزة" دعاة الشعر الجديد ....

وعرضنا هذا الهذر على كل شاعر وكل أديب في الحفلة، فأنكروا جميعًا أن يكون هذا "الشعر العفاريتي" لأمير الشعراء.

ولكن مجلة "الروح" التي كان يصدرها أبو الخير رحمه الله، نشرت القصيدة، ونسبتها إلى شوقي، على أنه أملاها من الآخرة!

وواصلت المجلة بعد ذلك نشر عشرات من مثيلات هذه " الشوقية العفاريتى " في أعدادها التالية ... وأكثرت منها إلى حد أنني أشفقت فيه من يوم نلقى فيه وجه الله، فيندس هذا الهذر على شعر أمير الشعراء، ولا يجد من يدفعه عنه.

وكتبت في "المصور" ....

كتبت أكثر من مقال أهاجم فيه صنيع أبو الخير .

إلا قليـلا!

لي حكايات طويلة مع الأرواح .. حكايات قرأتها.. أو سمعتها أو عاشرتها.. أو عانيتها. أو جعلني القدر جزءًا منها على غير قصد. وكان بعض ذلك في مصر وبعضه الآخر في الخارج، ولو ضعف خيالي أمام هذه الحكايات لكان ممكنًا أن يستغرقني عالم الأرواح إلى حد الدروشة ولكنني كنت أفيق من كل حكاية على صوت الإيمان، وعلى ضوء الآية الكريمة التي تهتف في ضمائرنا دائمًا أن الروح من أمر الله، فهي لا تأتمر بأمر البشر.

جعلت عنوان هذا المقال " إلا قليلا " اقتبسته من الآية الكريمة التي تقول في مجال الروح "وما أوتيتم من العلم إلا قليلا".

ولهذا أقول إنه لا يجوز لنا أن نخوض في حديث الروح إلا في حدود القليل الذي أذن الله سبحانه وتعالى لنا به.

على أن هذا القليل يختلف من إنسان إلى إنسان، فالعلم الذي يؤتيه الله للعالم، قليله أكثر من كل ما يعلم الجاهلون.

كما أن القليل من العلم الذي يؤتاه عالم الدين، يختلف في جوهره عن القليل من العلم الذي يؤتاه عالم الذرة، وهذا وذاك يختلفان عن القليل من العلم الذي يؤتاه عالم الزراعة، أو الكيمياء، أو الكهرباء، أو الطب، أو الجيولوجيا، أو الفلك .. وكل هذه علوم تمس دراسة الروح، ولكن الله أتى كل عالم من هؤلاء العلماء قليلًا من العلم عن الروح، وكل قليل عند الواحد منهم؛ يختلف في جوهره عن القليل عند الآخر.

أقول هذا، لأنني -- أنا وغيري -- نقف في كثير من الأحيان حائرين أمام مشاهد وظواهر وخوارق من الجلاء البصري، يحار فيها الفكر البشري، وأذكر أننا في رواق الحكيم، الذي ينعقد في ردهة فندق سميراميس بالقاهرة كل يوم جمعة، وقوامه الأستاذ

توفيق الحكيم، والدكتور حسين فوزي، والدكتور مصطفى القللي، والأستاذ مصطفى مرعي المحامي، والأستاذ يوسف وهبي، وبعض أعلام الشعر والأدب والطب والفن ... أعني أننا زمرة لا يجوز أن تتهم بالسذاجة أو السطحية ... كثيرًا ما نتذاكر وقائع وقعت لنا أو لغيرنا، هي في الواقع أقرب إلى الخوارق الخارجة عن حدود الأمور الطبيعية.

سمعنا في الرواق لحكايات كثيرة عن أشخاص يمسون موضع الداء عند المريض فيشفى ... وعن أشخاص إذا طلب منهم أي شيء مادي بعيد عن متناول أيديهم، مدوا أيديهم في الهواء فأتوا به ... دون أن نجد لهذه الظواهر تعليلا!

ورويت لهم واقعة وقعت لي شخصيًا في أول يوم ذهبت فيه إلى أمريكا سنة ١٩٥٩ هي حكاية المستركول.

كنت قد ذهبت مع ثلاثين من كتاب العالم، للإعداد لدرجة علمية في دراسة منظمات الأمم المتحدة، بمقر الأمم المتحدة بنيويورك.

وفي اليوم الأول، ذهبت مع صديقي الكاتب السوداني محجوب صالح إلى بنك الأمم المتحدة، الذي يقع في قاعة فسيحة جدًا من نفس المبنى، لنصرف رواتبنا.

ووقفنا في الطابور أمام الشباك – وكان الطابور طويلًا ... وفجأة ... وقعت عيناي على مدير البنك، الذي يجلس وحده عند مكتب في ركن بعيد من القاعة ... فإذا عيناي تلتقيان بعينيه صدفة ... وإذا بالرجل يقف، ويحملق فيّ من بعيد ... ثم يقبل نحوي وئيد الخطا، جامد الوجه، كأنه يمشي وهو منوم مغناطيسيًا، إلى أن يدركني، فيصافحني ويشد على يدي بحرارة ويسحبني من الطابور، ويأخذني إلى مكتبه، ويقدم لي مقعدًا، ويسألني:

- ألا تعرفني؟

قلت :- من موقعك ... أتصور أنك مدير هذا البنك!

قال :- نعم ... أنا المستر "كول" ... أنا مدير هذا البنك ... وأنت صديقي ... صديقي الحميم ... إنني أعرفك منذ مئات السنين!

وبيني وبين نفسي، بدأت أشك في الرجل، وأعتقد أنه مجنون، وأعجب من أن تولى الأمم المتحدة أمور مصرفها رجلًا مجنونًا...

ولكنه عندما استطرد في الحديث، جعلني أشعر برهبة عجيبة ... قال :

- إنني أعرفك من مئات السنين ... ياما تلاقينا وتحادثنا وسهرنا ... ألست شاعرًا ؟

قلت : نعم..

قال : ألست مصريًا ... من القاهرة؟

قلت : نعم..

ومضى يذكر لي أشياء عجيبة عني وعن حياتي الخاصة، مع أنه لم يزر مصر في حياته، ومع أنني لم أكن قد زرت أمريكا في حياتي قبل هذا اليوم!

وطال حديثنا، ثم أخذ مني الشيك ليصرفه لي بنفسه ... فقلت له إن معي صديقًا سودانيًا، فذهب إليه، ودعاه إلى مكتبه، وصرف له الشيك هو الآخر، وودعنا وهو يرجوني أن أزوره دائمًا لنواصل سهراتنا وأحاديثنا القديمة عن الأدب والشعر والفن!

وأقول لك الحق أيها القارئ ... إنني خفت من هذه الظاهرة، وخرجت من بنك الأمم المتحدة أرتجف، ولم أعد إلى المستر "كول" أبدًا"، وجعلت أرسل شيكاتي بعد ذلك مع أي صديق بعد أن "أظهرها" ليصرفها لي!

كيف – مثلًا – أجد أو يجد غيري تعليلًا لمثل هذه الظاهرة، التي يروي علماء الأرواح نظائر كثيرة لها في المجامع والمجلات العلمية في الخارج؟

****

وأذكر أيضًا أنني كنت مفتونًا بصوت المغنية الباريسية المشهورة "أديث بياف" التي ماتت منذ سنوات قريبة، وقد أعلنت فرنسا الحداد مضاعفًا يوم وفاتها ... ذلك لأن صديقها الفيلسوف الكبير "جان كوكتو"، عضو الأكاديمي فرانسيز (والكاتب والشاعر والناقد والمؤلف السينمائي والمسرحي والممثل والمخرج) قد سقط عندما سمع بنبأ موتها ... ولحق بها في اليوم نفسه!

أقول ... كنت مفتونًا بصوتها إلى حد بعيد. وكنت كلما كتبت عنها سميتها "أم كلثوم باريس".

وذات يوم، حدث شيء هز باريس كلها ... ذلك أن صوت "أديث بياف" انحبس وهي على المسرح. وحار فيها الأطباء في فرنسا .. ثم في إنجلترا وألمانيا.

واستولى عليها اليأس، فنصحها صديقها "جان كوكتو" أن تلجأ إلى العلاج الروحي، عن طريق قوم يعرفون في باريس باسم "المعالجين" ... ومنهم النجار والحداد والبدال والقصاب – هذه حرفهم اليومية – ولكنهم يمارسون العلاج الروحي إلى جانب هذه الحرف، ويقال إنهم يستعينون ببعض الوسائل الروحية الصينية العريقة والمصرية القديمة في العلاج.

وذهبت "أديث بياف" إلى واحد منهم، وقضت في صومعته سبعة أيام، خرجت بعدها وقد استردت صوتها كاملًا، وعادت تجلجل على مسارح باريس، كما جلجلت حكايتها مع المعالجين بالأرواح على وجود الصحف الباريسية!

****

ومن هذا القبيل ما يرويه لنا الأستاذ يوسف وهبي من أنه حينما سقط من سلم بيته السقطة التي لا يزال يعاني آثارها منذ عدة سنوات قيل له إن في حي غمرة بالقاهرة شيخًا يعالج الناس بوساطة الأرواح.

ودفع حب الاستطلاع يوسف وهبي إلى استدعاء هذا الشيخ، الذي أظلم الغرفة ثم راح يخاطب الأرواح بالإنجليزية .. فيمتلئ جو الغرفة بأصوات غريبة.

إلى هنا يقول يوسف وهبي إنها عملية دجل ...

ولكن الشيء الذي أذهله، أن الشيخ سأله عن نوع الأدوية التي يتناولها لتهدئة الألم، فذكر له اسم الدواء، وأضاف أن الكمية التي كانت لديه من هذا الدواء قد نفدت وهو غير موجود في السوق، فضرب الشيخ على ذراع يوسف وهبي، وإذا بشيء يسقط من سقف الغرفة، وعندما أضيء النور، وجد يوسف وهبي على حجره علبة من هذا الدواء!

ويستطرد يوسف وهبي في حكايته، فيقول إنه لا يشك في أن هذا الشيخ كان دجالًا، وإن لم يستطع أن يجد تفسيرًا لحكاية علبة الدواء!

وسافر يوسف وهبي بعد ذلك إلى لندن للعلاج عند الدكتور "تانر" – المشهور في مصر – وطال العلاج عدة شهور، ازدادت فيها حالة يوسف وهبي سوءًا، حتى أشرف على الموت، وسمعهم في المستشفى يرددون أنه من الخير له أن ينتقل إلى القاهرة ليموت هناك.

وعندئذ استولى عليه شيء من اليأس من هذا العلاج. وكان قد سمع أن في لندن كثيرًا من المعالجين الذين يمارسون الوسائل الروحية في علاج الأمراض المستعصية، فلم يجد بدًا من الذهاب إلى أحدهم، كضرب من يأس الغريق إذا تعلق بعود من الحطب.

وذهب إلى أكبرهم، واسمه الدكتور "لانج".

ثم يروي يوسف وهبي حكاية هذا الدكتور، فيقول إن رجلًا ريفيًا إنجليزيًا دخل مدينة لندن ذات يوم، وسار في شوارعها يزعم أنه هو الدكتور "لانج"، الجراح الإنجليزي المشهور الذي مات منذ سنوات طويلة..

وتصور رجال الشرطة أن هذا الريفي ليس إلا مخبولًا. فأحالوه إلى الكشف الطبي، وجاء الأطباء للكشف عليه، فأصر الرجل على أنه هو نفسه الدكتور "لانج"، الجراح القديم الراحل، قد عاد إلى الحياة من جديد، وجعلوا يناقشونه في الطب وفي الجراحة بالذات، وفي بعض عملياته القديمة المشهورة في تاريخ الجراحة، وفي بعض العمليات الأخرى التي أجراها آخرون، والرجل يجيب في كل مرة إجابات علمية مذهلة.

وفي النهاية أقروا له بأن يمارس العلاج الروحي رسميًا، وبإذن من الدولة.

وذهب إليه يوسف وهبي، وهو في حالة إعياء، متكئًا على عصاه من ناحية، وعلى ذراع السيدة عزيزة عيد – ابنة الفنانة فاطمة رشدي والمرحوم عزيز عيد – من الناحية الأخرى.

واستقبله الدكتور "لانج"، وقال له :

– هل قالوا لك إنك ستموت غدًا، وذهل يوسف وهبي .. فابتسم الرجل، وقال له:

– لا تخف .. إنك ستشفى، وستعيش، ولكنك عولجت بطريقة خاطئة..

واستدعى الدكتور "لانج" الممرضة .. وطلب منها مصلًا روحيًا في إبرة روحية أيضًا – كلاهما غير مرئي – وحقن يوسف وهبي حقنًا روحيًا – أي في الهواء – ثم أجرى له جراحة روحية، أي إيمائية، من سبع غرز، بدون أية إبرة مرئية أو مشرط مرئي ... ثم قال له :

– والآن ... ألق بالعصا ... ولا تستند إلى ذراع السيدة التي معك .. وسر في الغرفة وحدك.

وسار يوسف وهبي، فإذا هو يسير صحيحًا معافى!

وعاد إلى مصر ... وعاش ... ووقف على المسرح!

ويؤكد يوسف وهبي أن آثار الغرز الروحية السبع – أي آثار الجراحة الروحية – لا تزال واضحة في جسمه حتى اليوم!

****

وحكاية أخيرة عن الأرواح ... نشرت مجلة "لوك" وهي من أعظم المجلات الأمريكية، منذ شهور قريبة، قصة فنانة في وسط العمر، في باريس، صحت من نومها ذات ليلة دون أن تشعر، ورسمت في الظلام صورة.

وعندما استيقظت في الصباح، واستغربت ما حدث في تلك الليلة، وتأملت الصورة. فزاد من دهشتها أن الأسلوب الفني لهذه الصورة التي رسمتها في الظلام من خطوط وألوان وأضواء وظلال، يخالف أسلوبها تمامًا ... بل هو أقرب إلى أسلوب الفنان الخالد "جويا".

وتكررت الحكاية أكثر من مرة .. أكثر من ليلة .. قامت غير واعية، ورسمت في الظلام صورة بعد صورة، كلها مخالفة لأسلوبها الفني، ومتابعة لأسلوب جويا..

وفي النهاية، ذهبت إلى طبيب نفساني يستعين بالتنويم المغناطيسي في علاجه لمرضاه، فنومها، واتصل بعقلها الباطن (اللاواعي) الذي اعترف بأن روح "جويا" تزور هذه السيدة أثناء نومها لتخدمها، ردًا لجميل قديم لأسرة هذه السيدة، أسدته إليه منذ مائتي سنة.

وعندما أفاقت السيدة، ذكر لها الطبيب هذه الحكاية، فذهبت السيدة إلى إحدى المكتبات، وراجعت سيرة حياة "جويا"، فعرفت أنه عندما هرب من إسبانيا خوفًا من القتل، لاذ بأسرة تعيش في جنوب فرنسا، هي أسرة "زايس" – جد زوج هذه السيدة!

******

أروى هذه الحكايات على ظاهرها. دون أن أتوغل في بواطنها، ولا أقول أكثر من أننا قد نقف حائرين أمام هذه الظواهر التي لا تفسير لها عندنا، لأننا لم نؤت من العلم إلا قليلا.

ولكن المتصوفة يقولون إننا كلما ازددنا زهدًا في الدنيا، وتقربًا إلى الله سبحانه وتعالى، صعدنا درجة من الصفاء، حتى أوشكنا في صعودنا أن نقترب من القمة، تحت أقدام العرش، فهذه هي درجة الصفاء السابعة، التي لا ترقى إليها إلا أنقى الأرواح ... وعندئذ تملك هذه النفوس مقدرة الجلاء البصري، الذي تكشف به عن أشياء لا يراها أمثالنا من البشر .. ولا أقول أكثر من قولي : الله أعلم...

ماذا أكتب في ربيع الشيخوخة؟!

بعض الناس يفرق من ذكر الشيخوخة، ويتمنى ألا تكون ..

أما أنا، فإنني أعيش في انتظار ذلك اليوم .. الذي لا يزال بعيدًا.. الذي أتلقى فيه من دار الهلال رسالة تقول: "لقد اتضح لنا بمراجعة ملف خدمتك أنك بلغت سن الستين، ولهذا قررنا إحالتك إلى المعاش، فعليك أن تبقى في بيتك، وسنرسل لك معاشك في أول كل شهر".

وقد تنتهي الرسالة بكلمة تقليدية .. كلمة شكر على "الخدمات الطيبة" الذي أديتها للدار طوال هذه السنين بمنتهى الكفاءة والإخلاص.

ولست أدري كم سيكون معاشي، ولكنى أتمنى أن يكون كريمًا، فإذا لم يكن كذلك، فسأطالب الدولة، بحق ما بذلت من جهد، أن تجعل لي معاشًا استثنائيًا يكفل لي أن أقضى بقية العمر هادئ النفس مطمئن القلب.

وأكبر الظن أن الدولة لن تبخل على بهذا الاستثناء، ولا سيما إذا علمت أن أجله لن يطول، فما هي إلا بضع سنوات حتى أذهب، ويرتد إلى خزانتها هذا المعاش برمته، إذ لا وريث لي يشارك الدولة في نصيب منه.

وإلى الذين يفرقون من ذكر الشيخوخة، أقول إنني لا أفرق منها لأكثر من سبب، لعل أولها أنني عاشرت قومًا يعيشون في ربيع الشيخوخة، وربيع الشيخوخة يكون بين السبعين والتسعين، فما رأيت أسعد منهم على وجه الأرض.

هؤلاء القوم يقولون عمن لا يزالون دون السبعين: إنهم لسه عيال..

وهم يرون أن الحياة تبدأ في السبعين ... وأن متع الشباب، من غزل ورقص وخمر، ليست وقفًا على الشباب، بل هي كذلك حق للإنسان إلى أرذل العمر!

رأيت هؤلاء القوم في لندن في ناد يقال نه "داربي أندجون"

.. أي الرجل والمرأة، أو آدم وحواء.

هذا النادي له نحو خمسمائة فرع في مختلف أحياء لندن، وله نحو خمسة آلاف فرع في أنحاء بريطانيا. وشرط العضوية فيه هو بلوغ السبعين.

ولقد أتيح لي أن أقضي أكثر من ليلة في أكثر من فرع من فروع هذا النادي، فأحسست أنهم يعيشون في "ربيع الشيخوخة" بالفعل.

إنهم يتناولون شاي الساعة الخامسة على نغمات الموسيقى، ثم يقضون بقية ليلتهم في طرب وغزل ومراح.

سمعت هناك في إحدى الليالي مغنية تردد أنشودة عن النيل.

وسألتها من أين جاءت بهذه الأغنية، فقالت لي – وكان ذلك سنة ١٩٥٥ – أنها كانت في أول شبابها تشتغل مغنية، وأنها كانت في مصر في أواخر عهد الخديو إسماعيل!

ورأيتهم يرقصون الرقصات الهادئة الحالمة .. التانجو والفالس ... ويستنكرون الرقصات الثائرة المجنونة الشائعة في هذه الأيام...

ورأيت في إحدى الليالي حفلة زفاف لعروسين، العروس في الخامسة والسبعين، والعريس في الثالثة والثمانين ..

وسألت العروس بعد انتهاء الحفلة: ماذا تصنعين لو خانك عريسك هذا في يوم من الأيام؟

فقالت ضاحكة: أخنقه .. وإذا لم أجد في نفسي القوة لخنقه. فإني أستأجر من يخنقه لحسابي!

****

ورأيت كثيرًا من الغراميات بين أبناء السبعين، والثمانين، والتسعين ...

ورأيت كذلك كثيرًا من "النفاثات في العقد" .. الذين يثيرون العقد القديمة الراسبة في نفوسهم منذ أيام الشباب، ولا ينسونها أبدًا.

فهذه ثلة من الرجال الذين خانتهم زوجاتهم أو حبيباتهم في عهد الشباب،

فأقسموا ألا يكلمون امرأة ما عاشوا، وقد انتحوا ركنا من النادي يسهرون فيه معا، ولا تقربهم امرأة!

وهذه ثلة من النساء تمثل العكس تمثل المنكوبات في غرامياتهن في عهد الشباب، وقد أقسمن ألا يكلمن رجلًا ما حيين، وانتحين من النادي ركنا لا يقربه رجل.

وتجلس مع هؤلاء، ومع أولئك وتسمع منهم ومنهن قصصًا تستحق أن تكتب، وأن تظهر على الشاشة.

****

لست لهذا وحده أتمنى الشيخوخة... ولكني أتمناها لعلي أستطيع في ظلها أن أحقق ما لم أستطع تحقيقه وأنا تحت شمس الشباب.

أريد – مثلا – أن أكتب سفرًا ضخمًا عن تاريخ الأزهر ... هذه الجامعة التي تعد أقدم جامعات العالم .. التي ولدت منذ أكثر من ألف سنة .. وخرجت كثيرًا من العبقريات والزعامات .. وأصابتها النكسة بعد النكسة، وأدركتها الطفرة بعد الطفرة، إلى أن تطورت في عهد الثورة تطورًا يضعها في مصاف أحدث الجامعات، دون أن يكلف أحد من المؤرخين نفسه مشقة كتابة هذا التاريخ الحافل.

وأريد أيضًا أن أنظم بعض المسرحيات الشعرية .. وصاحبي الشاعر الكبير عزيز أباظة، الذي حمل أمانة المسرحية الشعرية بعد شوقي، يقول لي، وللناس، وفي الإذاعة، وعلى وجوه الصحف، إنني أقدر المعاصرين على كتابة المسرحية الشعرية.

ولكن كيف أكتبها؟

أعني .. متى أكتبها وأنا مشغول بالرغيف اليومي؟

إن تأليف مسرحية شعرية واحدة، يتطلب سنة كاملة من التفرغ.. على الأقل.. وأنا عشت ما عشت، لم أنعم بإجازة كاملة أسبوعًا واحدًا في حياتي!

****

أحلام كثيرة تراود خيالي حينما أصل إلى ربيع الشيخوخة.

ولكن العمل الذي أريد أن أبدأ به، هو أن أكتب عن الطفولة!

أريد في شيخوختي أن أكتب عن أعلام الأدب والفن عندنا في طفولتهم: وأن آخذ من هذه الطفولات الأضواء التي تنير طريق دراسة الأعمال الأدبية والفنية التي أنجزوها حينما شبوا عن الطوق.

وطفولات أعلام الأدب والفن - عندنا وعند غيرنا - هي أعجب الطفولات، وقد تتنوع ظروفها وتتعدد ألوانها، ولكنها تشترك جميعًا في عنصر الحرمان.

ولنأخذ بعض الأمثلة ...

طه حسين، يوفر علينا كثيرًا من العناء إذ يحدثنا عن طفولته بكثير جدًا من التفاصيل، ويصف لنا نشأته الشقية في الريف، وحرمانه من نعمة البصر، وما كان بينه وبين "عريف الكتاب" .. إلى آخر ما يصارحنا به في كتاب "الأيام".

وتوفيق الحكيم، يصف لنا طفولته وصفًا ممتعا في قصته الأولى "عودة الروح" وكيف عاش طفلًا بعيدًا عن أبيه وأمه، وسط أسرة صاخبة الجو، متلاطمة الشخصيات.

وحافظ إبراهيم، نشأ يتيمًا جائعًا، يعوله قريب له يضيق بلقمته، ويتبرم بطعامه وشرابه، حتى يجيء يوم يخرج فيه حافظ - وهو صبي صغير - من البيت، ويهيم على وجهه في الأرض، بعد أن يترك لقريبه هذا بيتين من الشعر يقول فيهما:

ثقلت عليك مئونتي ... إني أراها واهيه

فافرح، فإني ذاهب ... متوجه في داهيه

وعباس محمود العقاد، لا ينكر عليك إذا سألته عن طفولته، ما تخللها من يتم وفقر وحرمان تحت شمس أسوان المحرقة، وكيف كان كبير الأحلام، وكيف تثاءبت أحلامه على ملل دقات آلات التلغراف وهو يشتغل عامل تلغراف في صباه - وأحمد رامي، لو سألته عن طفولته، فكأنما نزحت من عينيه الدموع إنه يقول لك : لقد عشت طفولتي يتيمًا في حياة أبي،

وكان أبوه طبيبًا مغتربًا دائمًا، في ربوع جزيرة طاشيوز باليونان أو ربوع السودان ..

وكان رامي الصغير يحيا طفولة شقية محرومة في بيت لذويه يقوم بين أحضان القبور بصمتها وكآبتها.

وهو يحدثنا عن يتمه في حياة أبيه، وهو يرثي أباه فيقول:

يا أبي كم رمت بك البعيد من	أجل بنيك الصغار قفرا فقفرا
وتغربت في البلاد تقاسي من	ضروب الجواء قرا وحرا

وبيرم التونسي ... عبرت به طفولة من أشقى الطفولات، إذ مات أبوه وهو طفل، فتزوجت أمه نجارًا في حي الأنفوشي، ونشأ الطفل يتيمًا، واشتغل صبيًا لهذا النجار، ثم فتح دكانًا يبيع فيه الزيت والزيتون، ولم يلبث أن أفلس... ثم عبر به الصبا والشباب وهو بين سياط الإرهاب وأنياب التشرد والغربة والجوع والمسكنة.

وأم كلثوم ... هذه التي تقف بين أمجادنا في القمة ... إنها تحدثك .... تحدثك كيف كانت تقطع عشرات الأميال على قدميها الصغيرتين بين قرية وقرية ... وكيف قضت ليلة قاسية في "حاصل" يشاركها فيه جمل، فباتت مرتجفة الأوصال حتى الصباح، وكيف كان يفوتها قطار الليل فتبيت على رصيف المحطة حتى مطلع اليوم التالي!.

طفولات شقية كئيبة، هي التي تفتحت عن كل هذه العبقريات، حتى لقد أوشكت أن أقتنع بأن العبقرية لا تنبت إلا في أرض الطفولة المحرومة .. عندنا وعند غيرنا على السواء!..

****

بودي، في شيخوختي، أن أكتب عن طفولة أعلامنا ... وعن أعمال أعلامنا في ضوء طفولتهم.

فإذا سبقني إلى ذلك أحد، فلن أخاصمه، بل سأشد على يده، لأنه سبق إلى الفضل، وسد الفراغ، وحقق الأمنية.

اعترافات نصف قرن

ولدت في يوم عجيب... يوم ١٢ شهر ١٢ سنة ١٢... أعني ١٩١٢ أي أنني، بعد خمسة أشهر فقط، أكون قد قضيت على ظهر هذا الكوكب نصف قرن من الزمان، وهي مرحلة يجمل بالمرء عندها أن يقف قليلًا. أو طويلا، ليحاسب نفسه عما قدمت طوال هذه السنين من خير أو شر وأنا- مع أني محاسب متخرج في كلية التجارة- أكره الحساب كراهية شديدة ولكي أسهل على نفسي إجراء العملية الحسابية التي لابد منها، لأنها حسبة العمر عدت إلى أضابيري أقلبها وأول ما وجدت في أضابيري، شهادة الميلاد وشهادات الميلاد تكون عادة أهم وثيقة في حياة الإنسان، ولكن يبدو أن شهادة ميلادي اقترنت بمشكلة.. فعندما ولدت، كان أبي يعالج سكرات الموت بالمستشفي وأرادت أمي أن تسميني عبد الرحمن، تيمنا باسم أبيها، فكان لها ما أرادت وفي اليوم السابع من مولدي، صنع الأطباء معجزة أنقذت أبي من الموت، وخرج من المستشفي ليثير معركة كبيرة حول الطفل الصغير، الذي اسمه عبد الرحمن، والذي يجب أن يكون اسمه (صالح) تيمنا باسم شقيق لأبيه كان لامعًا في دولة الأدب والقانون يومئذ. كان عمري- يوم هذه الحكاية- سبعة أيام ولا أظن أنه كانت في أذنان تسمعان أو ذاكرة تعي تفاصيل الخناقة، ولا الألفاظ الجارحة التي تبودلت بين أبي وأمي يومئذ، وكل منهما متمسك بقراره، في اعتزازها هي بأبيها وهو بشقيق أبيه... ولكن الرجل انتصر في النهاية، بصدور إعلام شرعي بتغيير الاسم ومات عبد الرحمن وولد صالح جودت.

كان لنا بيت صغير في مصر الجديدة، تلفه حديقة لطيفة وفي طفولتي المبكرة كنت أسمع أبي وهو شاعر في الحديقة بالليل، وحوله نفر من أصحابه، يتلو عليهم كلاما منغما عرفت أن اسمه: شعر وكانت في البيت مكتبة ثرية، وكان أبي، كلما ضاق صدره، يمد يده

الهلال: أغسطس ١٩٦٢.

إلى كتاب منها بالذات، يطيل النظر فيه وعندما تعلمت فك الخط، مددت يدي إلى هذا الكتاب، فعرفت من عنوانه أن اسمه (مقامات الحريري) وفي السابعة أو الثامنة- وأنا بالمدرسة الابتدائية- بدأت أقرأ (مقامات الحريري)... وأظن أنني أنجزته في شهرين أو ثلاثة وبدأت أقلده.. بدأت أكتب مقامات لا أعي منها الآن شيئًا بكل أسف، ومصدر الأسف أن مقاماتي هذه لو بقيت حتي اليوم، لكانت خليفة بأن تضحك القراء. بهذه البداية، كتب على أن أتصل بصناعة القدم.

وذكريات المدرسة الابتدائية في مصر الجديدة كثيرة ومريرة ولا أحسب أن تلميذا في أية مدرسة من مدارس الوجود قد نال من الضرب ما نلته أنا من ناظر المدرسة التركي المرحوم با يزيد أفندي، سامحه الله كان جبار' وكان المنطق عنده في إصلاح الخطأ هو سن المسطرة في عز الشتاء، والخيزرانة، والفلقة.. وأحيانا الكرباج السوداني وكان لي زميل يشاركني هذه (المتعة) في كثير من الأحيان، هو فتحي طه، مدير الأرصاد الجوية الآن.. الذي يعلن لكم كل صباح أن الطقس شاعري لطيف، فلا تلبث العواصف والزوابع أن تهب لتصل بدرجة الحرارة إلى ٤٥ درجة.. اغفروا له.. فقد دفع ثمن أخطائه مقدما... دفعها لعصا با يزيد أفندي ولكن الشيء الذي أحب أن أعترف به بكل صراحة، أني أومن بالعصا، لقد كنت طفلًا شقيًا حقًا وأذكر- قبل أن ألتحق بهذه المدرسة- أنهم فصلوني من مدرسة الفرير، ومن مدرسة إنجليزية أخري، لأنني كسرت عدادات النور والمياه، وأشعلت مجموعة من الحرائق، وقبلت أكثر من تلميذة رغم أنفها، وارتكبت جريمة صغيرة انتهت بي إلى قسم البوليس حينما أر د أحد القساوسة أن يجبرني على أداء الصلاة في كنيسة المدرسة لقد استطاعت عصا با يزيد أفندي أن تهذبني وتجعل مني طفلا وديعا طول العمر وهذه همسة أهمس بها في أذن لأستاذ السيد يوسف، وزير التربية والتعليم، رغم أنف المادة ٨٨ التي تحظر على المعلمين ضرب التلاميذ. كان عمري عشر سنوات حينما ظفرت بالشهادة الابتدائية وهذا الرقم مألوف اليوم... ولكنه أيامنا كان شيئا آخر كان معنا تلاميذ في السنة الرابعة الابتدائية تصل أعمارهم إلى العشرين والخامسة والعشرين وعندما وقفت لأول مرة في طابور الصباح بالمدرسة الثانوية، نادي ناظر المدرسة اسمي، وقال: إن هذا التلميذ هو أصغر من نال الشهادة الابتدائية. في تاريخ

الشهادة الابتدائية وصفقت المدرسة... فهل تعلمون ماذا كانت نتيجة هذا التصفيق؟ ركبني الغرور، خيل لي أنني عبقري هذا الوجود.. وأن من حقي أن أكون فرعونا في المدرسة وفي البيت أيضا وكانت النتيجة أنني رسبت في السنة الأولى الثانوية ثلاث سنوات متصلة، كان ترتيبي فيها الأخير دائما... بعد أن كنت الأول دائما في المدرسة الابتدائية!

منذ يومئذ آمنت بشيء كبير.......

ليس يجني على المرء شيء أكثر من كثرة التصفيق له وتذكرت –وأنا أذكر هذه الحكاية كلمة قالها لي الأستاذ العقاد منذ أيام إن من أكثر من يصفق لهم الناس هم الجرسونات في المقاهي

نسيت أن أقول لكم فيم ضيعت تلك السنوات الثلاث... أيامها، كنت أعتقد أنني ضيعتها هباء أما الآن، فلا أظن أنها كانت كذلك لقد ضيعتها في مسارح روض الفرج– وكانت مثيرة– وفي مسارح عماد الدين.. وفي هذا الجو، شربت النظم وحفظت الأغنية، واستوعبت الفكرة القصصية، وقرأت المجلات الناقدة، وتعرفت على عشرات من النقاد والممثلين والمؤلفين والمطربين والمطربات والراقصات وسهرت.. فكنت لا أعود إلى البيت قبل الثانية من الصباح!

وكان هذا التيار الساحر قد جرفني فيمن جرف من مئات الأعواد الغضة التي انتهت إلى نهاية حزينة، هي التسكع على مقاهي الفن.

ولكن المعجزة حدثت حينما قرر أبي– وهو يعمل يومئذ مهندسا بالمنصورة – أن ينتزعني من جو القاهرة، ويلقي بي في مدرسة المنصورة الثانوية، لعلي أفلح وأفلحت المحاولة فعلا.. ومرة أخري... أصبحت أول فصلي كل سنة!

والعبرة التي أحب أن أخرج بها من هذا الاعتراف في هذه المرحلة، أنني استطعت أن أستغل الفشل، وأزرع أرضه حبات النجاح فالسنوات الثلاث التي ضيعتها في جو المسرح هي التي هيأت لي– بعد حقبة طويلة– أن أكتب الأغنية والقصة والمسرحية وأن أمارس صناعة النقد.

والمنصورة أرض طيبة، تنبت الحب والجمال، وتثير الشعر والخيال وعلي ضفاف المنصورة، تعرفت إلى زميلين لي في المدرسة، هما المرحوم محمد الهمشري ومختار الوكيل (مدير الإدارة الاقتصادية بجامعة الدول العربية الآن) كانا ينظمان شعرا جميلا، فشاركتهما فيما يصنعان وكنا نخرج من المدرسة لنلتقي بشاعرين يكبراننا سنا، هما الدكتور إبراهيم ناجي، والمهندس علي محمود طه.. شاعر الجندول وتحولت الحياة كلها عندي إلى ملحمة شاعرية... فلم أعد أفكر في شيء إلا الشعر. حتي النثر. كنت أكرهه إلى أن قرأت يوما مقالا في مجلة أسبوعية معروفة، بإمضاء (أديب محايد) يتهجم فيه كاتبه على أم كلثوم وكنت أعشق أم كلثوم من بعيد وثرت من أجل أم كلثوم، وكتبت مقالا عنيفا أفند فيه مزاعم الأديب المحايد وبعثت به إلى المجلة، التي نشرته في مكان جلي، وبقلم الأديب الكبير الأستاذ صالح جودت!

كان عمر هذا الأديب الكبير يومئذ ١٤ سنة وعندئذ.. أدركت أن الشعر ليس كل شيء.. بل إن للنثر جماله، وأجمل مافيه هو لقب (الأديب الكبير)!

وأخذت أراسل هذه المجلة، وأكتب فيها مقالا كل أسبوع، وأظفر بلقب (الأديب الكبير) كل أسبوع.. إلى أن نجحت في البكالوريا، وزحفت إلى القاهرة وذهبت لأقابل رئيس تحرير المجلة، الذي فغر فاه عندما علم أن الشخص الذي خلع عليه لقب الأديب الكبير، ليس إلا غلاما قادما من المدرسة الثانوية ليلتحق بالجامعة وخرجت من عنده مكسور الجناح.. ولكني رغم هذا واصلت الكتابة وبعثت إليه بمقال عن انطباعاتي في القاهرة فنشر سطورا منه، صدرها بقوله (جاءنا من الأديب صالح أفندي جودت مقال نكتفي منه بما يلي...)!

وكانت صدمة العمر.. لقد عشت أعواما - وأنا تلميذ بالمدرسة الثانوية - في ظل لقب (الأديب الكبير) وكنت - بعد أن نلت البكالوريا - أحلم بأنني سأكون أكبر وأكبر.. وها هي ذي الأحلام تنهار، ومقالي يقتضب، ولقبي يهبط إلى مجرد (أفندي) كسائر أفندية تلك الأيام.. أقول لكم الحق.. لقد استطعت - رغم شدة الصدمة - أن أفيق منها بسرعة، وأفكر في أمر خطير... أنني قادم من المنصورة لألتحق بكلية الآداب، حتي أثبت دعائم

لقب (الأديب الكبير) ولكن... ما دام لقب (الأديب الكبير) قد انهار في غمضة عين، فالأدب إذن صناعة غادرة وقررت ألا أكون أديبا.. قررت أن أكون تاجرا.. أو مصرفيا.. أو محاسبا.. أو اقتصاديا.. أو أي شيء في ميدان المال والأعمال أي شيء غير الأدب!

وهكذا أدرت ظهري لكلية الآداب، والتحقت بكلية التجارة!

والحكمة في هذه التجربة، هي نفس الحكمة الإنجليزية التي تقول (لا تضع كل ما تملك من البيض في سلة واحدة) أعني أنني قررت أن يكون الشعر والصحافة والأدب هواية، والتجارة والمحاسبة والاقتصاد مهنة، وأن أعالجهما معا على هذا الوضع، حتى إذا أخفقت في إحداهما، بقيت لي في الأخرى خيوط من الأمل في النجاح.

هل صدق حدسي؟

هل استطعت حقيقة أن أخلص لكلية التجارة، بعد أن أدرت ظهري لكلية الآداب؟

أبدا..

كان الصراع مريرا.. ويشاء الحظ- سوء الحظ أو حسن الحظ.. لست أدري- أن تقوم في تلك السنة بالذات، جماعة أدبية اسمها (جمعية أبوللو) للشعر.. برئاسة أمير الشعراء أحمد شوقي وينضم الركب القادم من المنصورة برمته إلى هذه الجمعية وفجأة.. أجد نفسي عضوا في مجلس إدارة جمعية أبوللو.. مع شوقي ومطران وأبي شادي وأضرابهم ويركبني الغرور- قاتله الله- مرة أخري.. وأتصور أنني صعدت إلى السماء.. بحيث لا أستطيع أن أكون تلميذا وأستاذا معا.. تلميذا في كلية التجارة، وأستاذا في مجلس إدارة جمعية أبوللو، صاحب كرسي إلى جانب كرسي أمير الشعراء أحمد شوقي، وشاعر القطرين خليل مطران.. ويتكرر نفس الشعور... هل صحيح أنني ضيعت هذه السنوات الثلاث هباء من العمر؟

أحاسب نفسي الآن، فأجد أنني كنت مخطئا حين اعتقدت أنها ذهبت هباء... أبدا.. لقد تعلمت خلال هذه السنوات الثلاث أشياء كثيرة وكبيرة: تعلمت كيف أقرأ.. وماذا يجب أن أقرأ في كل أدب عالمي وتعلمت أن بالقراءة أجمل متع الحياة وتعلمت أن الأديب الذي يكف عن القراءة يوما واحدا، يصاب فكره بشلل جزئي.. تماما كالشلل الجزئي

الذي يصيب ساقي لاعب كرة إذا كف عن التمرين اليومي، وكالشلل الجزئي الذي يصيب أنامل عازف القانون إذا كف عن العزف اليومي.

*****

أما كيف خرجت من محنة الرسوب المتوالي فقصته تحملني على الاعتراف بجميل رجل هو الآن في ذمة الله، هو المرحوم الدكتور زكي مبارك، حيث أصدر الدكتور زكي مبارك كتابًا قيما عنوانه (النثر الفني في القرن الرابع) وقررت جمعية "أبوللو" أن تقيم له هذه المناسبة حفلة تكريم بدار سينما كوزموس وكان ذلك قبل امتحاني بأسبوع واحد.. وتركت دروسي، وسهرت ليلتين أنظم القصيدة التي سأتلوها في حفلة التكريم وذهبت إلى الحفلة وعند الباب لقيت المحتفي به، الدكتور زكي مبارك، الذي ما كاد نظره يقع على حتي صاح في وجهي بأعلي صوته أمام ملأ من الناس:

- انت جاي تعمل إيه هنا؟

-جاي أقول قصيدة

- إمش يا ولد ذاكر دروسك.. انت ناسي ان امتحانك الجمعة الجاية؟

ووجمت لحظات أمام هذه الوقاحة- أجل.. لقد سميتها يومئذ وقاحة- وغرقت في بحر من نظرات الناس الرائية حولي... وعدت إلى البيت وكلي حقد عليه، وعلي الشعر، وعلي الأدب وانكببت على كتب كلية التجارة، ولم أنم خمسة أيام ومر الامتحان.. ونجحت.. وأصررت على أن أترك الأدب إلى أن أنجز دراستي إلى نهايتها.. وهكذا تخرجت، وكنت الأول!

الدرس الذي استفدته من هذه التجربة، أن الطالب يباح له أن تكون له هواية ولكن لا يجوز له أن يدع هذه الهواية تشغله عن دراسته أبدا، إلى الحد الذي يهدد بالقضاء على مستقبله العلمي أو المهني.

بعد ذلك التاريخ بعشر سنوات: فكرت في أن أكون دكتورا في العلوم السياسية والتحقت بالدراسات العليا، وحصلت على الدبلومين بامتياز، وكنت أول دفعتي في الماجستير وأعددت رسالة الدكتوراه عن (الدولة المثالية في القرآن) وإذا بخطاب الجامعة

يقول لي إن الجامعة لا توافق على موضوع الرسالة وكان سنة ذلك ١٩٥٠ في عهد الملك فاروق، والسبب غير مذكور في خطاب الجامعة، ولكنه معروف أن الدولة المثالية في القرآن لابد أن تكون هدما للدولة التي يجلس على عرشها فاروق ومزقت الرسالة، وتنازلت عن الدكتوراه.

*****

إنني لا أروي قصة حياتي في هذا المقال فما هي بالشيء الذي يهم القارئ ولكني أنتزع من هذه القصة اعترافات لم أكتبها قبل اليوم، لأقدمها للشباب، لعلها تهديهم فيتجنبوا عثرات الطريق.. عثرات الطفولة.. عثرات الطيش.. عثرات الرسوب.. عثرات الهواية.. عثرات الأدب.. عثرات الفن!

تجربتي مع القلم

أضحك كثيرا حينما أذكر تجاربي مع الحياة.. أذكر أنني حاولت- في صباي- أن أكون بطلا رياضيا ومارست أكثر من لون من ألوان الرياضة،ككرة القدم والتنس، والتجديف، وكرة السلة.. و... و... و... ولكني لم أستطع أن أكون بطلا في شيء منها.. أبدا..

وحاولت أن أكون فارسا.. ومرة.. جمح بي الجواد.. وطار بي لمسافة طويلة بسرعة خيل السباق، وأنا ثابت فوق ظهره، وأصحابي يرمقونني في ذهول.. وفجأة وجدت نفسي أمام ترعة واسعة.. وأشفقت أن يستطرد الجواد في سيره فألقيت بنفسي من فوق ظهره، وسقطت سقطة فاجعة... وأذهلني بعد ذلك أن أري الجواد يتوقف على بعد خطوة مني أما أنا فقد كسرت ساقي، وبقيت في الجبس شهرا كاملا.

وحاولت أن أكون ممثلا.. وعرض على الممثل الكبير جورج أبيض، رحمه الله، أن أقوم معه ببعض مشاهد من الروائع التي اشتهر بها، مثل لويس الحادي عشر وأديب وعطيل، على أن تشترك معنا ابنته سعاد وكانت (البروفات) تبشر بالنجاح ولكني حينما وقفت على المسرح أول ليلة (أمام الجماهير) لم أذكر كلمة واحدة من الدور الذي سأمثله، وهو دور الأمير نيمور في مسرحية لويس الحادي عشر.. وأردت أن أستعين على فقدان ذاكرتي بسيجارة، وأخرجت من جيبي علبة سجاير (لاكي سترايك).. فصرخ جورج في وجهي، وكان من عادته إذا غضب أن يتحول إلى اللهجة اللبنانية: (شو عم بتسوي يا أزعر... أيام لويس ما كان فيه سجاير لاكي سترايك..)! وضحك الجمهور، ونزلت الستارة، وأسرعت إلى الهروب من الباب الخلفي للمسرح.. ولم أعد إليه أبدا.

وحاولت بعد تخرجي في كلية التجارة- أن أكون محاسبا.. وأنشأت مكتبا للمحاسبة ونجحت نجاحا لم أكن أحلم به.. ولكن بعد سنة واحدة.. تغلب حبي

الهلال : مارس ١٩٧٤.

للحروف على حبي للأرقام، وجاء اليوم الذي أصبحت أشعر فيه أن هناك ثعبانا يطل من كل رقم.. فاعتزلت عالم الحسابات، وتفرغت لعالم الكلمات.

*****

بدأت تجربتي مع القلم في موعد مبكر جدا من العمر.. كان جدي شاعرا، ينظم الشعر باللغتين الفرنسية والتركية.. وكان أبي هو الآخر شاعرا، ينظم بالعربية، وله قصائد كثيرة منشورة في صحف زمانه وهكذا نشأت والشعر في دمي وكنت في طفولتي أري أبي يجلس وحوله أصحابه كل ليلة في حديقة بيتنا بمصر الجديدة، ويقرأ عليهم من الشوقيات، إذ كان مفتونا بشوقي، وكان يعده سيد القدامي والمحدثين وفي هذه السن المبكرة، أعجبني جرس الشعر الذي أسمعه كل ليلة، فحاولت أن أقلده وأنا في السابعة، قبل أن أحسن القراءة والكتابة وكانت في البيت مكتبة كبيرة، بدأت أقلب فيها متفرجا، ثم متصفحا، ثم قارئا، حتي لقد قرأت (مقامات الحريري) وأنا في العاشرة وبهرتني براعة الصنعة التي في هذا الكتاب، وفتحت عيني على ما هو في جوهر اللغة العربية من جمال ثم بدأت أقرأ الشوقيات حتي حفظتها جميعا وأنا في الثانية عشرة وخلبتني موسيقاها حتي أصبحت- وما زلت حتي اليوم- أؤمن بأن الشعر هو أول ما يكون موسيقي... وأن على من ينظم الشعر وهو لا يحسن الموسيقي أن يهجر الشعر إلى النثر. وفي تلك السن، كنت تلميذا بمدرسة المنصورة الثانوية- إذ كان أبي يعمل مهندسا هناك- وحدث أن جاءت فرقة يوسف وهبي إلى المنصورة، واستضافته المدرسة هو وأعضاء فرقته، وقلت في تحية الفنان العظيم قصيدة مازلت أذكر منها هذين البيتين:

هذب نفوس شبيبة للخلق ... أحوج ما تكون

فالخلق إن بلغ الكمال ... بأمة، هدم السجون

ويبدو أن القصيدة أعجبت المحتفي به، فأخذها مني ونشرها في صحف القاهرة وفي العام نفسه، قرأت في مجلة (الصباح)... وكانت من أشهر المجلات الأدبية والفنية يومئذ، وكان من كتابها الدكتور زكي مبارك وصديقنا الدكتور سعيد عبده... أقول قرأت فيها مقالا يتهجم فيه كاتبه على أم كلثوم وقد نشأت على حب أم كلثوم كما نشأت على

حب شوقي، فأمسكت بالقلم، وكتبت مقالا طويلا محتدا أدافع فيه عن أم كلثوم، وبعثت به إلى المجلة التي نشرته (بقلم الأستاذ الكبير صالح جودت)... دون أن يدري صاحبها أن هذا (الأستاذ الكبير عمره اثنتا عشرة سنة).

ومنذ يومئذ لم أنقطع أسبوعا واحدًا عن مراسلة هذه المجلة، تارة شعرا وطورا نثرا، وينشر هذا وذاك جميعا باسم، الأستاذ الكبير.. حتي إذا حصلت على الثانوية العامة- وكنا نسميها البكالوريا- وتأهبت لدخول الجامعة، أحسست أن بي من الجسارة ما يكفل لي أن أذهب لمقابلة صاحب المجلة لأقدم له نفسي لأول مرة وذهبت، وسألني: أين والدك؟

قلت له: أتعرف والدي؟

قال: طبعا الأستاذ الكبير صالح جودت

قلت له: أنا صالح جودت... وتفرس في وجهي، فرأي أمامه صبيًا في السادسة عشرة، فاستصغر شأني، وأدرك، الخطأ الكبير، الذي وقع فيه خمس سنوات طوالا، وربت كتفي، ودفعني برفق إلى الباب وكانت عنده لي قصيدة.. وظهرت المجلة بعد ذلك، فإذا بها هذه العبارة في باب (رسائل القراء):

(جاءتنا من الأديب صالح أفندي جودت قصيدة نجتزئ منها هذه الأبيات).. وبعد ذلك.. ثلاثة أبيات أو أربعة من قصيدة طولها ثلاثون بيتا!

وهكذا هبطت من (الأستاذ الكبير) إلى (صالح أفندي) في غمضة عين... فأقسمت أن أهجر القلم، وكرهت الشعر والنثر، وقررت أن ألتحق بكلية التجارة، بعد أن كانت وجهتي كلية الآداب ولم تمض أسابيع، حتى تلقيت من صاحب المجلة نفسها، رحمه الله، مكالمة رقيقة يدعوني فيها إلى لقائه، فترددت قليلا، ثم ذهبت، فإذا هو يحسن استقبالي هذه المرة، ويقدم لي القهوة، ويسألني أن أواصل الكتابة كل أسبوع، بأجر لا بأس به.. ثمانية جنيهات في الشهر حيث كان الجنيه جنيها.. وكنت لا أزال طالبا يتناول مصروفه من أبيه... وهكذا وجدت الأجر مغريا، فقبلت على الفور ومنذ ذلك اليوم، أصبحت الهواية احترافا... ومنذ ذلك ليوم أيضا، لم أنقطع عن الكتابة في الصحف أسبوعا واحدا حتى اليوم.

في عهد المدرسة الثانوية بالمنصورة، كانت المنصورة خميلة شعرية جميلة يغني فيها الدكتور إبراهيم ناجي شاعر الأطلال، وعلي محمود طه شاعر الجندول، ومحمد عبد الغني حسن شاعر الأهرام، وم.ع. الهمشري شاعر الأعراف، ومختار الوكيل ومحمد رجب، وجميلة العلايلي وغيرهم من البلابل التي هجرت الشعر فيما بعد وكانت لنا جميعا ليال حلوة على شاطئ النيل بالمنصورة، ومن عجائب الاتفاق أننا- الهمشري وأنا- حينما نلنا البكالوريا وجئنا إلى القاهرة لنلتحق بالجامعة، نقل ناجي إليها أيضا، طبيبا بالسكك الحديدية، وعلي محمود طه كذلك، مهندسا بوزارة الأشغال... وكانا يكبراننا بعدة سنوات وفي هذه الفترة قامت جمعية (أبوللو) برئاسة أمير الشعراء أحمد شوقي، وأمانة الدكتور زكي أبو شادي وراح أبو شادي- رحمه الله- ينقب عن الشعراء الشبان، ويجمعهم حوله وهكذا التففنا حول رسالة (أبوللو) ووجدت نفسي وأنا دون العشرين، عضوا بمجلس إدارة الجمعية، ممثلا للشباب، أجلس إلى جانب أولئك الفحول من شعراء ذلك العهد ورواده الفكريين، وأكتب معهم في مجلة واحدة، بعد أن كنت لا أراهم إلا في الأحلام ثم نشبت المعركة بين مدرستي شوقي والعقاد، فاندفعت مدافعا عن شوقي، مهاجما خصومه بعنف وضراوة وكانت هذه أول معركة أدبية أخوضها في حياتي.. وإن كنت قد طرحت حماقة الشباب بعد ذلك بسنين طويلة، وعرفت قدر العقاد، واقتربت منه، وجلست معه طويلا في مجلس الفنون والآداب إذ كان مقررًا للجنة الشعر، وصفت نفسه لي كما صفت نفسي له، وإن كنت قد بقيت على الولاء لأمير الشعراء أحمد شوقي، كسيد للقدامي والمحدثين وكان العقاد- رحمه الله- لا يغضب من مجاهرتي له بذلك، بعد وفاة أمير الشعراء وفي (أبوللو) أصدرت أول ديوان لي باسم (ديوان صالح جودت) وأهديته إلى الصورة الحلوة التي كانت تستهويني دائما في صدر الشباب.. وحتي اليوم.. (إلي العيون الزرق والشعر الذهب).

وكان الديوان حافلا بما يحفل به شعر الشباب- ابن الحلقة الثانية- من شك في كل شيء، وتمرد على كل شيء، مما أوقفني أمام حملة ضارية من الشيوخ، ولا سيما شيوخ الأزهر لم أكن لأحتملها، وهجرت الشعر حينًا، ولكنه غلبني فعدت إليه بعد حين وعدت إليه هذه المرة، بعد أن ازدادت قراءاتي، وتعمق وجداني فيما أقرا ولا سيما في أدب

التصوف والمتصوفين، فعدت إلى الله، قوي الإيمان به، مفرطا في الحب لذاته لا ابتغاء لجنته أو خشية من ناره ومازال حبي لذاته- جل وعلا- يتصاعد يوما بعد يوم، حتي لأوشك الآن أن أكون من المتصوفين دون أن أهجر الدنيا أو أزهد في نعيمها؛ ذلك أني أعتقد أن الله لم يخلق نعيم الدنيا لكي يحرمنا منه أو يعذبنا بتركه، بل لنستمتع به في حدود من رضا الله وراحة الضمير وطاعة القانون وغمرتني موجة الإيمان إلى حد أنني بعد تخرجي في كلية التجارة، قسم العلوم السياسية، عكفت على إعداد رسالة الماجستير في موضوع (الدولة المثالية في الإسلام) ولم يتخل الله عني أبدا... مررت بعشرات من المحن، وصمدت لها جميعا مؤمنا بأن الله سينصرني في النهاية.

في بعض الآونة، وقعت الواقعة بيني وبين أحد الوزراء الغلاظ- وكان عسكريا- فأصدر قرارا عسكريا بإخراجي من وظيفتي- وكنت يومئذ مراقبا للإذاعة-.. وخرجت إلى الطريق مغضوبا على من الحاكمين، وليس في جيبي أكثر من بضعة قروش لا تقوم بأودي. وتصورت أن أحدا لن يجرؤ على استخدامي بعد هذه الغضبة العسكرية... ولكني كنت واسع الأمل في وجه الله.

ولم تمر أربع وعشرون ساعة، حتى وجدت أمامي ثلاثة عروض، لا عرضا واحدا، وكان أدناها إلى نفسي عرض من دار الهلال، أن أعمل بها مديرا لتحرير المصور، براتب يعادل ضعف راتبي بالإذاعة فقبلت على الفور. وبعد أيام من هذا الحادث، رأيت الوزير الغليظ يخرج من وظيفته ويعمل في إحدى الصحف، وبعد أيام أخري رأيته يخرج من وظيفته ويقبع في بيته.

وقلت: سبحان الله

أحسنت اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية منذ صباي، فتفتحت لي عوالم واسعة في دنيا القراءة وروضت نفسي على أن أقرأ كل شيء في كل فن.

وفي أول شبابي، أحببت فن الترجمة وترجمت عدة روايات، وربحت منها ما أعانني على أن أحيا حياة ترف، وأقتني سيارة، وأجالس من هم أكبر مني سنا وعلما، وأكثر مني مالا وجاها، وأحس أنني ند لهم ويحفزني علمهم إلى الاستزادة من العلم حتي لا أكون

دون إدراكهم إذا تكلموا، ودون مستواهم إذا ناقشوا أمرا من الأمور وتفتحت لي أبواب السفر، فطفت بكل أرض، حتى بلغت القطب شمالا واليابان شرقا، وأمريكا غربا، ومن ثم أقبلت على ممارسة أدب الأسفار، ومنه كتابي (قلم طائر) وأحببت العمل إلى حد أنني لم أظفر بإجازة منذ ربع قرن، ولعل سجلاتي في دار الهلال شاهدة على هذه الحقيقة.

نعم.. قد أسافر إلى مكان بعيد ولكني حينما أسافر، لا أترك القلم من يدي أبدا وهكذا بلغت كتبي زهاء ثلاثين، في الشعر والقصة القصيرة والرواية والسيرة والتصنيف والترجمة وأدب الرحلات بيد أن الشعر هو أكثر ما أعتز به وأيسر ما خلقت له. وأحسب أنني وصلت فيه إلى شيء، ولعل هذا الوهم تمثل لي كحقيقة بعد أن خضت كثيرا من المسابقات في شبابي، فكنت أظفر منها دائما بالجائزة الأولي وأدناها إلى ذاكرتي الآن، جائزة الأغنية الشعرية التي أقامتها الإذاعة في أول عهدها، ثم جائزة (مشروع القرش) ثم جائزة (أحسن قصيدة في السد العالي) ثم جائزة الدولة للشعر، التي كنت أول من نالها سنة ١٩٥٨. ذلك أنني أخلصت للشعر وأوضحت منهجي فيه، وعرفت المعاناة في سبيل إحسانه، ولم أحاول أن أنحرف إلى المذاهب السهلة منه كالشعر المنثور أو المرسل أو الحر لإيماني بأن الفن معاناة جمالية، وتجربة وجدانية، وبوتقة شديدة الدفء، تنصهر فيها عناصر اللغة والموسيقي والخيال.

وإذا كان لي أن أفضي إلى المقبلين على الشعر من الناشئة بشيء من حصيلة تجربتي مع الشعر، فإني أقول لهم:

* إن الثقافة العميقة والمنوعة، المستقاة من سائر الموارد القديمة والمعاصرة، هي أول عدة الشاعر الذي يريد أن يحتل مكانا في هذا العصر.

* وإن التمكن من اللغة بدراسة التراث والقواعد والأساليب، والهيام بقراءة المعاجم والموسوعات، جسر أساسي للشاعر الذي يرنو إلى التفوق والسموق.

* وإن الموسيقي هي أم الشعر، ومن ثم فأنني أحب للشعراء أن يدرسوا الموسيقي بمختلف ألوانها.

* وإن عصر الشاعر الصعلوك، الذي يتكسب بشعره، أو يجوع ويعري ويتشرد في

الطرقات، قد انتهي ولا مكان في عصرنا إلا للشاعر المثقف، الأنيق، المثمر، ولهذا ينبغي للشاعر أن تكون له مهنة يتكسب بها كالطب أو الهندسة أو المحاماة أو الصحافة أو التجارة أو غيرها، حتى يعصم شعره من شبهة التكسب ويجعل الشعر في أعماقه هواية لا احترافا طول حياته.

* وأن يبتعد عن السطحية ويحب المعاناة، ويلتزم بما ينبع من نفسه لا بما يمليه عليه مذهب أو نظام أو حكم أو كسب مادي.

* وأن يقرأ ويتعمق ليؤمن، فالشاعر الذي يحمل إيمانا أعمي، هو أعمي، والشاعر الذي لا يحاول أن يصل إلى الله، وينكر أعلي قيمة في الوجود تهون في وجدانه بعد ذلك جميع القيم التالية وهي الشرف والفضيلة والكرامة والكبرياء.

لا أحب الحب ولكن أحب الجمال

أريد أن أعترف اعترافا خطيرا... لقد فقدت قلبي، فأنا الآن أعيش بغير قلب! وأرجو من كل فتاة أو امرأة يضعها القدر في طريقي ألا تصدقني حينما أهمس لها: (إني أحبك)... فقد أصبحت لا أومن بالحب وكثيرا ما أخلو إلى صديقي أحمد رامي في الليل، على روف أحد فنادق القاهرة، نتحدث في الحب فيقول لي رامي: إن الحب هو السهد والحرمان والعذاب والدموع أما أنا.. فإني أنكر أن الحب كذلك... بل أنكر الحب أصلا... ومع هذا فإني أحب أن أسكن إلى المرأة كمخلوق جميل رقيق يؤنس الوحشة ويشيع البهجة والإيناس أما إذا تحول هذا المخلوق الجميل إلى سهد وحرمان وعذاب ودموع، فإني أكرهه.. أكرهه من الأعماق!

وآخر قصيدة قلتها لآخر امرأة عرفتها، كان عنوانها (كبرياء) قلت فيها:

أجـــل.. أنـــت فاتنـــة.. إنـــما

أري عـــزة الـــنفس لي أفتنـــا

وإن كـــان عنـــدك ســـحر الجـــمال

فـــسحر الرجولـــة عنـــدي أنـــا

وإن كثـــرت في هـــواك القلـــوب

فـــذلك مـــن بعـــض مـــا عنـــدنا

وأنـــت المنـــي... غـــير أني أمـــرؤ

الكواكب: ٩ سبتمبر ١٩٥٨.

يـــذلل للكبريـــاء المنـــي

ويكـــره في الحـــب بـــذل الـــدموع

وبـــسط الخـــضوع وفـــرط الـــضني

إذا المـــرء هـــان عـــلى نفـــسه

لكـــان عـــلى غـــيره أهونـــا

وأنا أعترف، بكل شجاعة، أن كل من يقرأ مثل هذا الشعر، ومثل هذا الإنكار للحب، إذا كان الحب معناه السهد والحرمان والعذاب والدموع، سيقول لي من فوره: (أنت تعاني عقدة نفسية)!

وهذا صحيح لقد فقدت قلبي، الذي خرج من صدري، وحلت محله عقدة نفسية صنعتها ثلاث نساء : الأولى عرفتها إذ نحن طفلان... هي في الخامسة، وأنا في العاشرة وكبرنا، وكبر الحب حتى بلغ مبلغ الشباب .. كانت جميلة سمراء، وكانت شواطئ المنصورة مسرح حبنا الكبير، ومن حبها أحببت الجمال الأسمر، ووضعته فوق كل ألوان الجمال وحينما ودعت هذه الشواطئ، وقفت أناجيها:

آه ممـــا بي، وهـــل تـــدرين مـــا بي

يـــوم ودعتـــك ودعـــت شـــبابي

أيـــن أحلامـــي عـــلى تلـــك الـــروابي

ذابـــت الأحـــلام في قلبـــي المـــذاب

***

ســـمرة النيـــل عـــلى خديـــه تجـــري

هـــو إلهـــامي وأحلامـــي وشـــعري

ونعيمـــي بـــين عينيـــه وســـكري

كـــان عنـــد الليلـــة الظلـــماء بـــدري

ولــــــه نجـــــواي في دنيـــــا اغــــــترابي
يـــــا تـــــري يـــــذكرني بعــــد الغيـــــاب؟

ويقي لهذه الطفلة في خيالي تمثال جميل... تمثال رائع.. كنت أسميه (مثالية الحب) والتقينا بعد ذلك في القاهرة، واستأنفنا قصة حبنا القديم، في أفلاطونية لم يعرف مثلها أفلاطون نفسه وحينما همت بأن تقدم أجمل ما عندها لرجل... قدمته لرجل غيري!

وانهار التمثال ومعه سحر الجمال الأسمر في عيني، ومات في قلبي وكان هذا هو الحجر الأول في بناء عقدتي النفسية ضد الحب وجاءت الثانية... وكانت في هذه المرة شقراء... خضراء العينين، ذهبية الشعر وبهرتني... وبدأت ثانية المآسي في حياتي واستمعت إليها طويلا، وكانت همساتها أعذب من الشعر وألذ من الموسيقي وكانت أفكارنا تلتقي دائما عند نهاية واحدة وانتهى حديثنا إلى الزواج

ورحنا نتصور كل شيء... نتصور عشنا على طريق الهرم... وما فيه من أثاث... وما يزينه من ورود... وما ينتظرنا من بنين وبنات وفجأة... تلقيت بطاقة دعوة إلى حفلة زفافها... إلى شيخ يكبرها بثلاثين عامًا على الأقل.

وأذهلتني قسوة المفاجأة.. ولكني عرفت بعد ذلك أن هذا الشيخ قد حبب لها الطموح لقد كان وزيرًا في ذلك العهد.. منذ أكثر من عشر سنوات.

وقد أعجبتها الفكرة، أن تصبح زوجة وزير ويقف على بابها الحراس ذوو الأزرار المذهبة وأن تدعي إلى مآدب القصر الملكي!

وذهبت مع الريح... تاركة في أعماقي حجرًا ثانيًا في بناء عقدتي النفسية!

ثم جاءت الثالثة...

وأقول مخلصًا إنني لم أتعمد أن أحب الأولى لأنها كانت سمراء، ولم أتعمد أن أحب الثانية لأنها كانت شقراء ولكن هكذا شاء القدر .. وكذلك شاء القدر أن تكون الثالثة من لون جديد .. كانت بين بين، معسولة العينين، كستنائية الشعر.

وكانت أذكى امرأة في الوجود ...

كانت مثقفة .. تقرأ ليل نهار ... وتعشق الشعر والأدب والموسيقى ...

ولكن أجمل ما فيها أنها كانت قوية الإلهام ... كل كلمة أو نظرة أو همسة أو خطرة منها كانت عندي ملحمة كاملة!

ووقفت عندها أحس أنني أسترد كل ما فقدت من عاطفتي وإنسانيتي في الحبين السابقين .. وذات ليلة، انسربت إلى مكان على شاطئ النيل لأخلو إلى نفسي .. لأنظم فيها أجمل أنشودة في حياتي وجعلت أتخيلها ... فإذا بها أمامي وجهًا لوجه ... ولكن في ذراع رجل آخر ... بعد حب دام خمس سنوات!

هكذا انهارت التماثيل الثلاثة، التي كانت بالصدفة – تمثل كل لون من ألوان الحب، وكل لون من ألوان الجمال.

وبعد ... أفلست معذورًا حينما أقول : إنني فقدت قلبي وأصبحت أطوي صدري على هرم مدرج من العقد النفسية؟

أجل ... إنني لم أعد أحب الحب، ولكنني ما زلت أحب الجمال.

من أرشيف الذكريات
صورة.. ورسالتان

تعودت في الأسبوع الأخير من كل عام- أعني في مثل هذا الأسبوع- أن أراجع حساباتي.. وهي ليست حسابات رقمية، بل روحية.. فيها بدل الدفاتر والفواتير صور وخطابات.. فإذا انتهت من هذه المراجعة، مزقت من هذه الصور والخطابات ما يستحق التمزيق، وحفظت منها ما يستحق الحفظ في مكتبي.. وفي مكان خفي منه. رسالة عمرها تسعة أعوام وأنا أقرؤها مرة في نهاية كل عام، فأجد فيها لذة صوفية متجددة، نابعة من أعماق شاعر كبير، لا يتكلم- حتى في حياته اليومية- إلا شعرا.. إنه الشاعر الذي ملأ الدنيا حبا وشبابا وغناء.. أحمد رامي وعندي عشرات من رسائل رامي، في مختلف المناسبات وأحيانا بلا مناسبات ولكن هذه الرسالة بالذات أثيرة عندي، لأنها في يقيني أبلغ ما كتب رامي من النثر يضاف إلى هذا أن رامي، الذي لا يعيش إلا للحب والشعر، يقف- إذ هو يكتب هذه الرسالة- عند بيت الله الحرام، فيقول لأول مرة في حياته: (قاتل الله هذه الشاعرية.. لأنها ترمي بنا أحيانا إلى أحضان الملذات..) إنني لا أريد أن أشوه جمال هذه الرسالة بابتسارها، ولا أضن بها على القراء ولا على التاريخ تقول الرسالة، وتاريخها ١٩٥٦/٥/٢٦ : (أخي صالح: لم أكتب إليك منذ أن وطئت قدماي هذه الأرض المباركة.. ولكنني كنت أذكرك لنفسي دائما، وأعيد ذكرك على رفقائي في كل مناسبة، وكنت أترك عيني تهيم فيما أري من جمال في الطبيعة، وجلال في الآثار، وأنا أراك إلى جانبي تشاركني متعة العين والروح (ولا أخالك إلا ذاكري في غيبتي، أنا الذي أردت أن أمتع عيني برؤيتك قبل أن أغادر الأرض التي ضمتني وإياك في أسعد الليالي أنا هنا روح ولا جسد .. عاطفة ولا فكر... خيال ولا حقيقة.. أهيم في جو من الروحانية وأسبح في بحر من الوجدان، وأنطلق في دنيا الأحلام .. لحنا يذوب على صدر الماء، وأريجا على جناح الهواء

الكواكب : ديسمبر ١٩٥٨.

(وقفت عند قبر محمد عليه السلام وبكيت.. وطفت حول الكعبة وسعيت.. وكنت في كل ذلك أضع أمامي صورة ذلك القطب الذي امتلأت من القراءة عنه، وعشت معه في مغانمه ومآسيه، وعرفت كيف انتشرت دعوته الصادقة بجناحين من الإيمان واليقين، ثم كانت بعد ذلك نبراسا للناس من كل دين ثم جلست أمام الكعبة بعد أن طفت بها سبعا، فإذا بي أصلي في وجوه لناس، وأري المصلين حولي من يمين وشمال، وأجد أن القصد إذا توحد، طاب الوصول إليه من كل صوب، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره (ورأيت الوفود من كل صقع ولون، بين وافد من سهول الصين وجبال الهند ومراعي باكستان ومناهل الفرات، ورأيت في كل السحن تعبيرا واحدا وإيمانا واحدا بالواحد القهار، مخرج الليل من النهار، هذه المواقف الروحية زادتني إيمانا على إيماني، وكشفت من نفسي عن زوايا غطي عليها عنكبوت الحياة وتراب الجسد وأنت تعرف أننا، نحن الشعراء، مؤمنون في قرارة أنفسنا، وإلا ما آمنا بما نقول بعد إحساس صادق وإيمان عميق ولكنها الشاعرية- قاتلها الله- ترمي بنا أحيانا بين أحضان الملذات نهما في ترشف الحسن وانتشاق الجمال.. ثم إذا نحن، في حومة هذه الحياة الصاخبة، ترجع نفوسنا الهائمة إلى وكرها الأمين عند رؤية نجم يلمع، ورريح تسري، وشفق يذوب في ساعة الغروب. وعندها تقف لذات هذا العالم وراء لذة التطلع إلى آية من آيات الله تنسخ كل جمال، وتقضي على كل خيال .. هذه الكلمات أكتبها إليك ضحي اليوم، وأنا وحدي أطل على سماء صافية وأجلس في مسري نسيم كأنفاس الأحباب، فيه هواء وفيه نار .. وأنا الآن لأبعث إليك على جناح هذا النسيم الدافئ قبلة لا أدري إن كانت تستطيع الوصول إليك عبر هذه الصحراء المترامية، وعبر ذلك البحر الفوار.. ثم عبر ذلك عبر مروج مصر وأنهارها الضاحكة في وجه الربيع الراحل إلى حين.

*****

وهذه رسالة أخري، باقية في مكتبي منذ عشر سنوات، فتاريخها: أول يونيه سنة ١٩٥٣ ولهذه الرسالة قصة.. والقصة تبدأ قبل تاريخ الرسالة بعدة سنوات... كنا يومئذ.. محمد فتحي وعلي خليل وعبد الحميد يونس ومحمد محمود شعبان وحافظ عبد الوهاب

والمرحوم عبد الوهاب يوسف.. نعمل بالإذاعة.. في أول الشباب وكانت كلمة (روسيا) محظورة في الميكرفون، مهما كانت المناسبة.. بأمر القصر! وحدث أن دعت الإذاعة العالم الرحالة والقصصي والموسيقي والأديب والفنان، الدكتور حسين فوزي، ليلقي سلسلة من الأحاديث عن الموسيقي وكان لابد – ما دام يتحدث عن الموسيقي – أن يجيء ذكر روسيا، والموسيقي الروسية وهنا ثارت المشكلة.. المشكلة التي ستفهمونها من بين سطور هذه الرسالة وكانت النتيجة أن وقعت القطيعة بين الدكتور حسين فوزي والإذاعة.. أو بينه وبين مسئول في الإذاعة بالذات ومرت السنوات وهذه القطيعة قائمة، إلى أن قامت الثورة في يوليو سنة ١٩٥٢.. وعندئذ لم يتردد الدكتور حسين فوزي في معانقة الميكروفون، ليقول كلمة طيبة في تحية الثورة.

إسكندرية يا عروس الماء
وخميلة الحكماء والشعراء

كان ذلك خلال الأيام العشرة الأخيرة من شهر طوبة، التي نسميها نحن المصريين (برد العجوزة) ركبت الطائرة من شاطئ باكستان، قالت المضيفة الرشيقة بصوتها الهامس الدافئ: بعد خمس دقائق، نهبط في مطار كراتشي... ودرجة الحرارة بها خمس وأربعون.. في الظل!

وعشت شهرا أتجول في مدائن باكستان، وأتقلب في حرها، وأنا في ثياب الشتاء الغليظة رغم أنفي، لأن ما في جيبي لا يسمح بشراء ثياب صيفية.. وهناك عرفت أن أهل باكستان لا يعرفون الفصول الأربعة.. فليس عندهم غير موسمين: الجفاف (وهو هذا الذي عانيته هناك).. وموسم الأمطار ومن يومها، تعلمت أن أدرس جو كل بلد على الورق، قبل أن أسافر لأعيش فيه على الطبيعة .

عشت الشتاء في عز الصيف

كان ذلك عندما ركبت الطائرة من طوكيو إلى كوبنهاجن عن طريق القطب الشمالي ذاهبين إلى آلاسكا، على قيد خطوات من القطب الشمالي، لنقضي ليلة هناك في بلدة "الانكوردج"

أتعرفون كم كانت درجة الحرارة هناك في شهر يوليو؟

خمس عشرة .. تحت الصفر!

مجلة المصور : ١١ يوليو ١٩٦٩.

صيف الإسكندرية

شهدت الصيف في جميع بلاد الله ولكني لم أشهد صيفًا في الوجود أجمل من صيف الإسكندرية .. وزمان .. وأنا حدث .. كنت أحب من الإسكندرية الصيف والبحر والرمل .. كما يحبها سائر الناس وفي أول الشباب، شدتني إلى الإسكندرية صورة .. صورة لا أنساها .. ولا أزال أحتفظ بنسخة منها في غرفة نومي .. هي اللوحة الخالدة التي رسمها محمود سعيد لبنات بحري. هذه الصورة، علمتني أن الإسكندرية ليست مجرد صيف وبحر ورمل وشدتني إلى الداخل، لأعرف أن الإسكندرية مدينة حب وجمال، وعلم وفن، ونكهة وتاريخ ودخلت أعماق الإسكندرية ... ومشيت في الحارات المعطرة التي تمشي فيها بنات بحري .. وعشت في جوار المتصوف القباري وسيدي أبي العباس المرسي.. وولي الله أبي الدرداء .. الذي تسميه العامة " أبو الدردار ".

وذهبت إلى متاحف الإسكندرية ودخلت مكتبة الإسكندرية، فعرفت قصة حكمائها وعلمائها وأدبائها الأقدمين، من عهد اليونان إلى العصر الإسلامي .. ثم عاشرت أدباءها وشعراءها المعاصرين فوجدت عندهم لونًا من الفكر له سماته التي تختلف عن سمات الفكر القاهري .. كانت الإسكندرية حاضرة مصر قبل الفتح الإسلامي.. ومالت شمسها ..فذهب عنها الملك ولكنها ظلت تلد النابهين في كل علم وفن، وتنفح بهم الوادي بين جيل وجيل، من أمثال بيرم التونسي وسيد درويش وقد اشتهرت الإسكندرية بحكمائها منذ أقدم العهود، وقد ذكر حنين بن إسحق أن الإسكندرانيين هم الذين رتبوا بالإسكندرية دار العلم ومجالس الدرس في الطب والحكمة، وكان منهم (ايرن) صاحب كتاب (حل شكوك كتاب إقليدس) وكتاب (الحيل الروحانية) وكان منهم (أفنون الإسكندري).. وكان إماما في علوم الرياضة والفلك و(فالبس المصْري) وكان عالما بالرياضة والنجوم والمواليد، ومن أشهر مؤلفاته (كتاب السلطان) و(كتاب الأمطار)

ومن أشهر علماء الإسكندرية، يحيي النحوي، العالم الفليسوف، وقصته أنه كان ملاحا، يملك سفينة يعبر فيها بالناس وكان يحب العلم كثيرا، فإذا عبر معه قوم من دار العلم والدرس التي كانت بجزيرة الإسكندرية، يتحاورون فيما قرأوا ودرسوا، استمع إليهم وفد هشت نفسه لما يقولون، فلما قوي رأيه في طلب العلم، فكر في نفسه، وقال: (لقد بلغت نيفا وأربعين سنة، وما ارتضت بشيء، ولا عرفت غير صناعة الملاحة، فكيف أستطيع أن أتعرض لشيء من العلوم) وفيما هو يفكر، إذ رأي نملة قد حملت نواة ثمرة، وهي دائبة تصعد بها، فوقعت منها، فعادت فأخذتها: ولم تزل تجاهد مرارا حتي بلغت غرضها فقال: (إذا كان هذا الحيوان الضعيف قد بلغ غرضه بالمجاهدة، فأحري بي أن أبلغ غرضي بالمجاهدة وخرج لتوه، فباع سفينته، ولزم دار العلم، وبدأ بتعلم النحو واللغة والمنطق، فبرع في هذه الأمور، ونسب إليها واشتهر بها وسموه يحيي النحوي، ووضع كتبا كثيرة في كل ذلك وذكر عبد الله بن جبرائيل بن عبيد الله ابن نجنيشوع الطبيب، أن اسم يحيي (تامسطبوس).. وكان مسيحيا، وفد استطاع بعلمه أن يصل إلى منصب أسقف في كنيسة الإسكندرية، على مذهب اليعقوبيين ولكنه رجع عن عقيدة التثليث، واستحال عنده أن يجعل الواحدة ثلاثة، والثلاثة واحدا ولما تحقق الأساقفة من رجوعه عن هذه العقيدة، عز عليهم، فاستعطفوه وسألوه الرجوع عما هو عليه، فلم يرجع، فأسقطوه عن المنزلة التي هو فيها.

وعاش يحيي النحوي إلى أن دخل عمرو بن العاص الإسكندرية فاتحا منتصرا ودخل يحيي على عمرو، فلما عرف هذا موضعه من العلم، وما جري له مع الأساقفة، أكرمه، ورأي له موضعا، وسمع كلامه فأعجبه وفتن به، وشاهد من حججه المنطقية، وسمع من ألفاظه الفلسفية ما لم تكن للعرب به معرفة، ولازمه حتي لا يكاد يفارقه ثم قال له يحيي يوما: (إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية – أي خزاناتها – وختمت على كل الأصناف الموجودة بها – أي وضعتها تحت الحراسة – فأما مالك فيه انتفاع، فلا أعارضك فيه، وأما مالا نفع لكم به، فنحن أولي به، فأمر بالإفراج عنه .. فقال له عمرو: وما الذي تحتاج إليه؟ قال: كتب الحكمة في الخزائن الملوكية، وقد أوقعت الحوطة – أي الحراسة – عليها ونحن محتاجون إليها فقال: ومن جمع هذه الكتب، وما قصتها؟ قال

يحيي: إن بطليموس فيلادلفوس، لما ملك جمع إليه العلماء وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها، فأفرد لها خزائن: فجمعت، وولي أمرها رجلا يعرف بزميرة، وتقدم إليه بالاجتهاد في جمعها وتحصيلها وشرائها بأي ثمن. فاجتمع من ذلك أربعة وخمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتابا ولما علم الملك باجتماعها، وتحقق عددها، قال لزميرة: أترى بقي في الأرض من كتب العلوم ما ليس عندنا؟ فقال له زميرة: قد بقي في الدنيا شيء كثير، في السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل، وعند الروم فعجب الملك: وقال له: دم على التحصيل فلم يزل زميرة على ذلك حتي مات الملك وهكذا اجتمعت للإسكندرية في ذلك العهد أعظم مكتبة في التاريخ.

شعراء الإسكندرية

وجاء الفتح.. وبدأت الإسكندرية تنفح الوادي بشعراء وأدباء ومفكرين، لغتهم العربية، وإن ميزهم على شعراء الفسطاط، أن تكوينهم الفكري كان مزاجا من الثقافات اليونانية والرومانية والقبطية والمغربية والأندلسية والعربية ومن هؤلاء الشعراء، أبو بكر العبيدي، وسليمان بن فياض، ومحمد بن أبي الحسن الذي قال في وصف منارة الإسكندرية:

لله در منـــار الإســـكندرية .. كـــم
يســمو إليـــه عـــلى بعـــد مـــن الحـــدق
مـــن شـــامخ الأنـــف في عرنينـــة شـــمم
كأنـــــه باحــــث في دارة الأفـــــق
يكـــسر المـــوج منـــه جـــانبي رجـــل
مـــشمر الـــذيل لا يخـــشي مـــن الغـــرق
للمنـــشآت الجـــواري عنـــد رؤيتـــه
كموقـــع الـــنجم مـــن أجفـــان ذي أرق

ومنهم الشاعرة تقية الصورية التي وصفت بعض رياض الإسكندرية بقولها:

والـــــروض مبتـــسم بنـــور أقاحـــه
لمـــا بكـــي فرحـــا عليـــه غمامهـــا
والنـــرجس الغـــض الـــذي أحداقـــه
ترنـــو لـــتفهم مـــا يقـــول خزامهـــا
والـــورد يحكـــي وجنـــة محمـــرة
انحـــل مـــن فـــرط الحيـــاء لثامهـــا

ومنهم الشاعر أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز السكندري ومن بدائعه في الغزل هذه الأبيات:

يا سحر الطرف ليلي ما له سحر
وقد أضر بجفني بعدك السهر
ولست أدري وقد صورت شخصك في
قلبي المشوق، أشمس أنت أم قمر
ما صور الله هذا الحسن في بشر
وكان يمكن ألا تعبد الصور
أموت وجدا ومالي منك مرحمة
وكم حذرت ولم ينفعني الحذر
أستغفر الله، لا والله ما خلقت
عيناك إلا لكي يفني بها البشر

أما المعاصرون، فمن أشهر من تفتحت شاعريته منهم على ضفاف الإسكندرية، الشاعر الكبير عبد الرحمن شكري، صاحب العقاد والمازني، وصاحب الفضل في توجيههما إلى قراءة بدائع الأدب الغربي ومنهم خليل مطران: الذي هاجر من لبنان شابا حديث العهد بالشعر، وسكن الإسكندرية، واشتغل فيها بالصحافة، بجريدة (الأهرام).. وكانت يومئذ تصدر هناك ومن أجمل شعره في الإسكندرية، قصيدة (المكس) ومنها:

شاك إلى البحر اضطراب خواطري
فيجيبني برياحه الهوجاء
ثاو على صخر أصم، وليت لي
قلبا كهذي الصخرة الصماء
ينتابها موج كموج مكارهي
ويفتها كالسقم في أعضائي
والبحر خفاق الجوانب ضائق

كمــــدا كـــــصدري ســــاعة الإمـــساء

ومنهم الدكتور أحمد زكي أبو شادي، الذي عاش أضوأ أيامه وأحلكها في الإسكندرية، وله فيها مئات القصائد، ومنها هذه القصيدة بعنوان (الإسكندرية):

وتغــــرد الأطيــــار حتــــي أنهـــا
لــــتظن في تغريـــــدها كمــــلاك
مــــن لم يـــصدقني، عليـــه بجولــــة
بحـــداثق الـــــشلال بـــــين أراك
لـــيري ضروب روائـــــع وبـــــدائع
هــــذي موطنــــة وذي لحـــراك
ولـــديك مـــن فـــتن الحـــسان نـــوادر
بقيـــت عـــلى الأحقـــاب صـــنو جنـــاك
زرق العيـــــون وســــودهن عــــوارف
صـــيد القلـــوب بأســـهم وشـــباك
أورثـــن ســـحر الأقـــدمين كـــأنما
بـــوركن بالكهــــا مـــن تحـــت سـماك

ومنهم الشاعر المبدع خليل شيبوب، تلميذ مطران... ومنهم الشاعر الراحل عثمان حلمي، صاحب الدواوين والرباعيات والمسرحيات، وكان رحمه الله يعشق الإسكندرية ويكره من أجلها القاهرة، إلى حد أنه لم ير القاهرة في حياته إلا مرة واحدة، اضطرارا، حين أحيل إلى المعاش، وجاء إلى القاهرة لتسوية معاشه!

ومن شعرائها الأحياء، المخضرمين والمحدثين، الأساتذة : عبد اللطيف النشار وإدوارد سعد وحسن ظاظا وعبد العليم القباني ومحمد محمود زيتون وأحمد الجارم ومرسي بدر وغيرهم ممن يستوحون بدائعهم من عيون بنات بحري لتزدان بها جزيرة الإسكندرية الخالدة.



القسم الثالث

مع الشعراء

شوقي.. أمير الشعراء

شوقي هو شاعر مصر والعروبة والإسلام والتاريخ جمعاء. ما ترك زاوية من زوايا الماضي أو الحاضر في كل هذه المجالات إلا أمها بروحه وناجاها بشاعريته أروع مناجاة ولد شوقي سنة ١٨٦٨، منحدرا من جد عربي، اختلطت به بعد ذلك فروع تركية وكردية وشركسية ويونانية، فهو مزاج لطيف من حضارة الشرق والشعر ولد بحي (الحنفي) بالقاهرة. والتحق بمكتب الشيخ صالح، ثم بالمدرسة الخديوية، ثم بمدرسة الحقوق (قسم الترجمة) ثم سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق والأدب سنة ١٨٨٧، وعاد منها سنة ١٨٩١، ونفي إلى أسبانيا سنة ١٩١٥، وعاد سنة ١٩١٩ وأبوه على شوقي، الذي ورث عن أبيه مالا كثيرا بدده في سكرة الشباب، ويقول أمير الشعراء عن هذه الحكاية (ثم عاش بعمله، غير نادم ولا محروم، وكأنه رأي لي كما رأى لنفسه من قبل، أن لا أقتات من فضلات الموتى) وعندما مات أبواه، أخذته جدته لأمه تكفله، ودخلت به يوما على الخديو إسماعيل وكانت من معتوقاته – وهو في الثالثة من عمره وكان بصره لا ينزل عن السماء، فطلب الخديو بدرة من الذهب، ونثرها على البساط عند قدميه، فوقع الطفل على الذهب يجمعه ويلهو به فقال الخديو لجدته: اصنعي معه مثل هذا، فإنه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض قالت السيدة الذكية: هذا دواء لا يخرج إلا من صيدليتك فقال الخديو: جيئي به إلى متى شئت، فإني أعز من ينثر الذهب في مصر. وقد عاش شوقي ما عاش، يحلق في السماء بعينين رجراجتين لا تقران على قرار، حتى كان الشيخ على الليثي كلما رآه ذكر من قول المتنبي هذا المصراع:

محاجر مسك ركبت فوق زئبق

لم يسجل التاريخ للخديو توفيق شيئا من الإحسان في تاريخ هذا البلد، اللهم إلا حسنة واحدة، هي أنه مهد التسوية الصالحة لشاعرية شوقي، فقد أوفده – بعد تخرجه في

قسم الترجمة بمدرسة الحقوق – في بعثة إلى باريس، وأمره أن يبقي هناك أربع سنوات حظر عليه أن يعود خلالها إلى مصر، وأمره أن يقضيها في النظر في آداب الغرب، وحياة الناس، والتنقل بين باريس ومونبلييه ولندن، هناك تفتحت عينا شوقي على ألوان من الجمال في الحياة والأدب والفن، فتفتق خياله، وتفتحت له آفاق جديدة، ما كانت لتتفتح له لو بقي في مصر، شاعرا ناشئًا يعيش في إسار القصر، وكل رسالته أن يرفع المدائح للأعتاب الخديوية، هذه حسنة توفيق اليتيمة أما الحسنة الثانية – غير المقصودة – فهي للإنجليز، حينما نفوه إلى الأندلس حيث قضي في ظلالها خمس سنوات، رأي فيها عوالم جديدة، وراجعته قصة الأندلس والمجد الذاهب فيها، وقصص ملوك الإسلام الأقدمين وأساطيرهم هناك، ومفاتن الشعر الأندلسي، بألوانه الزاهية وبحوره المفردة وأوزانه المتراقصة.. كل هذا لعب في شاعرية شوقي دورا جديدا وأضاف إلى قيثارته أوتارا حبيبة، ولشوقي ولدان، هما علي وحسين،وبنت واحدة، هي أمينة وقد عاش شوقي ٦٤ سنة، ولقي وجه ربه في أكتوبر سنة ١٩٣٢.

المصرية في شعره

كانت مصر، بكل ما يحفل به ماضيها، وما يجتازه حاضرها، وما يؤمل لمستقبلها، أقوي مادة للإلهام عند شوقي وملحمته الخالدة (كبار الحوادث في وادي النيل) التي ألقاها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد في مدينة (جنيف) في سبتمبر سنة ١٨٩٤ كممثل للحكومة المصرية، من أروع الملاحم في تاريخ الشعر العربي جملة، فهي تروي قصة مصر بكل ما عبر بها من أحداث منذ عهد الفراعنة إلى ذلك الحين (١٨٩٤) رواية مفصلة جري فيها على روي واحد من الشعر في غير تكلف ولا افتعال، إلى أن وصل إلى نحو ثلاثمائة بيت وقد لج به هوي مصر، أكثر ما لج، إذ هو في منفاه بالأندلس، حيث كان شعره يذوب حنينا ويتحرق شوقا إلى مصر، ومن أجمل أبياته إذ هو هناك، هذا البيت:

وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

وهو على شدة اعتداده بإسلامه، يري مصر دينا مع الدين، وأخشي أن أقول إنه يراها دينا قبل الدين، كما تشهد بذلك أبياته التي قالها حينما ثارت الفتنة بين المسلمين والأقباط في مصر عقب مصرع بطرس غالي:

تعـــالوا عـــسي نطـــوي الجفـــاء وعهـــده
ونبـــذ أســـباب الـــشقاق نواحيـــا
ألـــم تـــك مـــصر مهـــدنا ثـــم لحـــدنا
وبيـــنها كانـــت لكـــل مغانيـــا
ألـــم تـــك مـــن قبـــل المـــسيح ابـــن مـــريم
فهـــلا تـــساقينا عـــلى حبـــه الهـــوي
وعـــلا فـــديناه ضـــفافا وواديـــا
ومـــا زال مـــنكم أهـــل ود ورحمـــة
وفي المـــسلمين الخـــير مـــا زال باقيـــا

وقصيدته في النيل هي من خير مصرياته، وهي تربو على مائة وخمسين بيتا، تجري في أروع النغم وترسم أجمل الصور ويستهلها بقوله:

مـــن أي عهـــد في القـــري تتـــدفق
وبـــأي كـــف في المـــدائن تغـــدق
ومـــن الـــسماء نزلـــت أم فجـــرت مـــن
عليـــا الجنـــان جـــداولا تترقـــرق

وفيها يقول عن النخيل في لغة روحية مشرقة يبرر فيها تأليه الفراعنة له:

ديـــن الأوائـــل فيـــك ديـــن مـــروءة
لم لا يؤلـــه مـــن يقـــوت ويـــرزق
لـــو أن مخلوقـــا يؤلـــه، لم تكـــن
لـــسواك مرتبـــة الألوهـــة تخلـــق

ومع أن هذه القصيدة من أجمل مدحه للنيل في تاريخ الأدب العربي، فإن من آيات العبقرية وجزالة الإلهام عند شوقي، أنه أنجزها كلها في ليلة واحدة.

حبه للدنيا

ورغم هذه الروح المتصوفة، فقد كان شوقي يعشق الدنيا، ويأخذ نصيبه منها تشهد بذلك خمرياته وغزلياته، ومن أجمل خمرياته، وصفه للجعة قائلًا:

حـــــــف كأســـــــها الحبـــــــب
فهـــــــي فـــــــضة ذهـــــــب
راحـــــــة النفـــــــوس وهـــــــل
راحـــــــة عنـــــــدها تعـــــــب
يـــــــا نـــــــديم خـــــــف بهـــــــا
لاكبـــــــا بـــــــك الطـــــــرب
لا تقـــــــل عواقبهـــــــا
فالعواقـــــــب الأدب

ثم في قوله في قصيدة (رمضان ولي).... وقد ترجمت جريدة (الطان) بعض أبيات هذه القصيدة واحتفت بها على صفحاتها:

رمـــــضان ولي، هاتهـــــا يـــــا ســـــاقي
مـــــشتاقة تـــــسعي إلى مـــــشتاق
مـــــا كـــــان أكثـــــره عـــــلى آلافهـــــا
وأقلـــــه في طاعـــــة الخـــــلاق

حمـــــراء أو صـــــفراء، إن كريمهـــــا
كالغيـــــد، كـــــل مليحـــــة بمـــــذاق

وهذا البيت الأخير يؤدي بنا إلى ناحية بارزة من حياة شوقي العاطفية، فهو لا يكرس قلبه للون واحد من الجمال، ولا يقصره على حب امرأة واحدة، حتي أن أحدا من

ثقاته لم يرو لنا حبا كبيرا في حياته ذلك أن شوقي كان يعبد الجمال بكل ألوانه، ويرى لكل مليحة مذاقا مستملحا وهكذا تبدو لنا غزلياته معممة، وقد لا تكون فيها حرقة الشعراء العشاق، كناجي أو رامي، ولكن فيها طرافة في تصوير الحب كقوله:

وعنـــدي الهـــوى، موصـــوفه لا صـــفاته
إذا ســـألوني، مـــا الهـــوى، قلـــت مـــا بيـــا

وكقوله في معارضة (ياليل الصب):

مـــــا بـــــال العـــــاذل يفـــــتح لي
بـــــاب الـــــسلوان وأوصـــــده
ويقـــــول تكـــــاد تجـــــن بـــــه
فـــــأقول وأوشـــــك أعبـــــده
مـــــولاي وروحـــــي في يـــــده
قـــــد ضـــــيعها ســـــلمت يـــــده
نـــــاقوس القلـــــب يـــــدق لـــــه
وحنايـــــا الأضـــــلع معبـــــده

كل هذا يدلنا على مقدار حب شوقي للحياة، التي عاشها، وعاشها في ترفها وأبهتها ومتاعها الطويل العريض.

وطنيته :

ولد شوقي –على حد قوله– على باب إسماعيل، ونشأ في ظل القصر، ومدح أرباب القصر، وكان شاعر القصر ومع هذا القيد الذي فرض عليه منذ ولادته، فإنه كان يفلت منه في كثير من المواقف الوطنية، ويهتف مع الشعب وللشعب، كهذه

وقد التهبت الوطنية في قلبه، فانفجر يغني للشعب، في ثورة ١٩١٩، وكان قبل ذلك جاهر المستعمر بالعدوان، فنفاه المستعمر في ربوع الأندلس، فاشتعلت الجذوة، ثم اندلعت ألسنة اللهيب لتحرق الأرض تحت أقدام الاستعمار.

سمت الوطنية عنده يومئذ حتى تجاوزت كل قدسية، فهو يقول بعد عودته من المنفي:

ويـــا وطنـــي لقيتـــك بعـــد يـــأس
كـــأني قـــد لقيـــت بـــك الـــشبابا

إلى أن يقول:

ولـــو أني دعيـــت لكنـــت دينـــي
عليـــه أقابـــل الحـــتم المجابـــا
أديـــر إليـــك قبـــل البيـــت وجهـــي
إذا فهـــت الـــشهادة والمتابـــا

وهو- قبل ذلك- لا يترك حادث دنشواي المشئوم إلا بعد أن يسجل خزيه على الإنجليز بقوله:

كيـــف الأرامـــل فيـــك بعـــد رجالهـــا
ويـــأي حـــال أصـــبح الأيتـــام
عـــشرون بيتـــا أقفـــرت وانتابهـــا
بعـــد البـــشاشة وحـــشة وظـــلام
ياليـــت شـــعري، في الـــبروج حمـــائم
ام في الـــبروج منيـــة وحمـــام؟
نـــيرون: لـــو أدركـــت عهـــد كرومـــر
لعرفـــت كيـــف تنفـــذ الأحكـــام

ثم يمضي كرومر إلى حيث يمضي ويخرج مطاطئ الرأس... ويودعه شوقي أسوأ وداع، يقوله:

أيـــامكم أم عهـــد إســـماعيلا

وكأنهـــا قامـــت، عـــروش قيـــاصر

وهو يقدس الجمال في كل ألوانه، ويتسامى في نظرته إلى الجمال العاري الذي اتخذ من الشاطئ مسرحًا لإظهار فتنته:

هـــذي الجـــسوم العاريـــات هياكـــل

للحـــب بـــين النـــار والأنـــوار

أنـــا مـــا أثمـــت بنظـــرتي وتـــصوفي

في هـــــذه الألـــــوان والآثـــــار

فـــيم الطبيعـــة أن جحـــدت بناتهـــا

فـــيم الحيـــاة استـــسلمت لأســـار

شاعر الوطنية والنضال:

و«أبو شادي» وقد ارتقى بعلمه إلى أعلى الوظائف الطبية بالمدينة لم يسكن إلى الوظيفة، ولم تهدأ عاطفته الوطنية، فظل ينظم شعرًا يغضب حكام عصره، فهو لا يغفر لحزب الوفد - برغم أنه كان وفديًا - أنه ضم إلى صفوفه عددًا من كبار الإقطاعيين - وهذا على سبيل المثال.

كما ظل ينظم شعرًا فيه النقمة على مجتمعه وسوء توزيع الثروة فيه، واسمعه وهو يتحدث على لسان فلاح يقول لزوجته:

غلـــب الجـــوع فهـــاتي (المـــش) هـــاتي

لا تقـــولي اللحـــم أن أصـــبر أســـاتي

ســـادتي أولى بـــه مـــذ نهبـــوا

كـــل حـــق لي وعـــاثوا بحيـــاتي

لا تقـــولي الـــدود قـــد أفـــسده

إنـــما الـــدود ـ وأن يحقـــر ـ لـــداتي

مـــدحوني مـــثلما قـــد لعنـــوا

قـــد تـــساوي المـــدح واللعـــن لـــذاتي

آلام الشاعر المهاجر:

ولم يجد «أبو شادي» بدًا ـ وقد ضاق به الحكام والمحكومون على السواء في ذلك العهد ـ من أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعمل هناك ، في المعاهد الخاصة بعلمه ، وبأدبه في الصحافة والإذاعة ، ولعله يجد ما كان يفتقر إليه من الأمان والاستقرار وبخاصة بعيد أن ماتت زوجته الحبيبة .

ولكنه ما لبث أن شعر بكيانه يتحطم بتأثير الغربة والحنين ، ومن محاربة بعض الحاقدين عليه هناك .

وأخيرًا انطفأت هذه الشعلة المتوهجة ، فمات «أبو شادي» غريبًا عن وطنه في ١٢ أبريل ١٩٥٥ ، تاركا وراءه ديوانًا مطبوعًا في «نيويورك» بعنوان «من السماء» ، وكتابًا آخر بعنوان «دراسات أدبية » وطائفة من الدواوين التي لم تطبع وهي: ايزيس ، الإنسان الجديد ، النيروز الحر ، من أناشيد الحياة .

عالميته :

ويتسع قلب شوقي للإنسانية جمعاء، وتتلفت شاعريته إلى كل ركن من أركان العالم، فهو يخلد عبقريات شيكسبير- وتولستوي وفيكتور هوجو وفيردي ونابليون وأرسطو وابن زيدون وهو يذرف الدموع على ضحايا الانقلاب العثماني، وضحايا زلزال طوكيو ويوكوهاما وعلي ضحايا الحروب والمظالم والطبيعة وشهداء الحرية في كل مكان.

شاعر النيل
حافظ إبراهيم

نشأ في حجر الفقر واليتم، فقد مات أبوه وخلفه لأعاصير الحياة وهو في الرابعة من عمره، فحملته أمه إلى بيت خاله، وهو الآخر مهندس متواضع ضيق الرزق يعمل في مصلحة التنظيم، فعالها...

وانتقلت الأسرة إلى طنطا، حيث تلقي حافظ علم الكتاتيب في طفولته. فما أن أدركه الصبا حتي نفر من هذا العلم، وتطلع إلى المطالعات الأدبية..

وضاق به خاله. وأحس حافظ بهذا الضيق، فترك له البيت، بعد أن كتب هذين البيتين :

ثقلـــت عليـــك مـــؤونتي	إني أراهـــــا واهيـــــه
فــــافرح، فــــإني ذاهـــب	متوجـــــه في داهيـــــه

وهكذا- ومن خلال هذين البيتين- تلمح خفة الظل التي كانت من سمات حافظ طول حياته، حتي في أشد ساعات بؤسه.

وهاهو ذا يخرج من بيت خاله، صبيا هائما على وجهه في دروب مدينة السيد البدوي والبسمة الساخرة على شفتيه، إلى أن تقوده قدماه إلى مكتب محام يختاره له القدر، هو المرحوم محمد بك أبو شادي، الذي أصبح بعدئذ من أساطين حزب الوفد، وزعماء ثورة ١٩١٩، ونقيبا للمحامين. وهو أبو الشاعر الراحل الدكتور أحمد زكي أبو شادي، مؤسس جمعية (أبوللو) وأمينها العام.

ولم تكن المحاماة يومئذ مهنة تتطلب درجة علمية معينة، بل كانت تتخذ بالممارسة، وينبه فيها ذكر المحدث اللبق والخطيب الصناجة، مما لم يكن ينقص شاعرنا... هذا إلى أنه قد أفاد من صحبة أبي شادي الكثير، ومراقة ما عنده من الكتب.

وهكذا عمل بالمحاماة حينا، وهو لا ينفك يقرأ في الأدب ويلتهم ما حوله من أمهات الكتب.

وكان مما قرأه فاستهواه، سيرة الشاعر الثائر، صاحب السيف والقلم، محمود سامي البارودي، فراوده حلم كبير، هو أن يحذو حذوه في مسيرة حياته، لعله يبلغ مبلغه يوما ما. فالتحق بالمدرسة الحربية، وتخرج فيها، وعمل بالشرطة طورا وبالجيش تارة، إلى أن نقلت فرقته إلى السودان.

ذهب إلى السودان، وهو يحمل عدة الشعر مستكملة في يده، بعد أن أفني الدواوين قراءة فمن البحتري إلى أبي نواس إلى مسلم بن الوليد إلى ابن الرومي إلى بشار بن برد إلى أبي تمام إلى المتنبي... منتهيا إلى البارودي.

وفي يده الأخرى طموحه إلى مكانة البارودي، لا في عالم القلم وحده، بل وفي عالم السيف كذلك. فما زال يتأمل ما حل بوادي النيل بشطريه من غدر الإنجليز، ويؤلب إخوانه الضباط الشبان على الاستعمار، ويقرأ عليهم ديوان الحماسة، وأمجاد العرب، وفتوحات الجيش المصري، حتي ألف منهم رهطا للضباط الأحرار، وجعل يبصرهم بما صار إليه حال أبناء وادي النيل على يد الاستعمار، وكيف قصرت أيديهم عن المجد، وكيف أن الإنجليز قد نصبوا أنفسهم سادة على جيش مصر، وجعلوا رتبه الكبيرة وقفا على أنفسهم وعلي عملائهم من غير المصريين، أما الضباط المصريين، فليس لهم إلا الرتب الدنيا والرواتب المهينة .

وهكذا شبت الثورة في السودان. وما كان أشبهها بثورة عرابي، وبثورتنا المعاصرة (ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢).

وألقي القبض على الضباط الأحرار، ومنهم شاعرنا، وسيقوا إلى المحاكمة، لولا أن سبقت الشفاعات، فاكتفي الحاكمون المتجبرون بإحالتهم إلى الاستيداع.

وعاد حافظ إلى مصر مهدم النفس، مكسور الجناح، وراتب الاستيداع- أربعة جنيهات- لا يشبعه من جوع.

شعره في الغربة:

وهنا... نقف وقفة قصيرة نطل منها على شعر حافظ في غربته في السودان، قبل أن نستطرد في رواية بقية القصة.

ها هو إذا، في قصيدة يبعث بها إلى صديقه محمد (بك) بيرم في القاهرة، يرسم صورته لحياته القاتمة في السودان، قائلًا:

نزحت من الديار أروم رزقي	وأضرب في المهامة والتخوم
وما غادرت في السودان فقرا	ولم أصبغ بتربته أديمي
وهأنا بين أنياب المنايا	وتحت براثن الخطب الجسيم
ولولا سورة للمجد عندي	قنعت بعيشتي قنع الظليم
أيا ابن الاكرمين أبا وجد	ويا ابن عضادة الدين القويم
أتيتك والخطوب تزف رحلي	ولي حال أرق من السديم
فلاتخلق، فديت، أديم وجهي	ولا تقطع مواصلة الحميم

وهكذا كان يحس أنه هناك في غيابة سجن، سجانوه هم المستعمرون، فهو يهفو، أكثر ما يهفو، إلى كلمات المحبين في القاهرة، تأتيه كالنسمات الباردة لتخفف عنه لفح الجنوب. وكان الأستاذ الإمام محمد عبده من محبيه، وقد كتب إليه أكثر من مرة يتشفع به عند ولاة الأمور ليعود إلى جوه الروحي في القاهرة.

وإني لمكتف بأن أضع أمام القارئ فذلكة من إحدى رسالاته في هذا الصدد إلى الأستاذ الإمام، يقول فيها:

(كتابي إلى سيدي وأنا من وعده بين الجنة والسلسبيل، ومن تيهي به فوق الثرة والإكليل، وقد تعجلت الأمور وتسلفت الحبور، وقطعت ما بيني وبين الغرائب:

وبشرت أهلي بالذي قد سمعته	فما محنتي إلا ليال قلائل
وقلت لهم: للشيخ فينا مشيئة	فليس لنا من دهرنا ما ننازل

و(لأمر ما، لم يستطع (الشيخ) أن يحقق أمل حافظ، حتي كانت الثورة التي عاد حافظ بعدها إلى مصر مكسور الجناح، لا يسد راتبه من الاستيداع رمقه.

شوقي وحافظ

وألقي حافظ بالسيف جانبا، وشرع القلم. ولكن الطموح كان لايزال في يده الأخري.

كان شوقي يومئذ شاعر الأمير... فلماذا لا ينازعه هذا المكان، ويكون هو شاعر الأمير؟

وهنا، أبدأ لك القصة من آخرها، لأعود بك إلى أولها.

كانت مجالس الأدب في الجيل الذاهب لا تذكر اسم حافظ إلا مقترنا باسم شوقي، حتي لكأنهما توأم.

وكان شوقي - في أعماقه على الأقل - لا يطرب لسماع اسم حافظ مقترنا باسمه، فقد كان يحس في قرارة نفسه أن الشوط بينهما بعيد.

ولعله أسر بهذا لبعض خاصته، فنقل القول إلى حافظ فساءه، فصاح يقول:

- بأه يا عالم... شوقي يقول كده، والناس بقي لها ثلاثين سنة تقول (شوقي وحافظ)... زي ما تقول (سميط وجبنه)؟

وقد أشار كثير من مؤرخي الأدب إلى ما كان بين شاعري العصر من إشارات عابرة. ولكن أحدا منهم لم يحاول أن يتعمق إلى جذور الحقيقة، التي تستأهل دراسة أدبية طويلة عريضة، أحاول أن ألخصها في هذه السطور:

بدأ حافظ حياته الأدبية يقلد شاعر الجيل الأسبق، رب السيف والقلم، محمود سامي البارودي.

وقد أمعن في تقليده حتى شاء أن يكون خليفة له في كل شيء، حتى رئاسة الوزارة.

ولكن حياة حافظ العسكرية بكرت في الأفول، فجفاه هذا الأمل، ولا سيما بعد أن عرف هزيمة العرابيين ونهاية البارودي الحزينة.

وكان نجم شوقي قد تألق، فراح حافظ يرسم لنفسه مسيرة جديدة غير مسيرة البارودي، هي مسيرة شوقي، فسار على غراره. وقلده في أغراضه، وحاول أن يقتحم عليه أجواءه.

كان شوقي شاعر القصر المقرب إلى عزيز مصر، فتمني حافظ لو أنه صرع شوقي في هذه الحلبة، وانتزع منه هذا اللقب، فراح يمتدح الخديو، ويهنئه بالأعياد والمواسم، ويدعو له ولولي عهده عبد المنعم.

ولكن كل ذلك لم يبلغه أملا..

بيد أنه بدلا من أن يستريح ويريح أو يتواضع فيما يأمل راح يحلم بأن يبلغ شأوا أعظم من شأو شوقي.. أن يصبح شاعر الخليفة في الآستانة... والخليفة هو يومئذ سيد عزيز مصر.

وراح يتوجه إلى الخليفة بالقصائد الطوال.

غير أنه أخفق في هذا الحلم أيضا. ومن ثم ارتد على عقبيه، وتواضع كل التواضع، وانطوي في محيط ضيق يمدح الوزراء والسراة والأعيان.

وكان البؤس قد حط عليه بعد خروجه من الجيش، إذ كان معاشه لا يزيد على أربعة جنيهات، فوصله شوقي وحدب عليه، وسعي له عند داود بركات، رئيس تحرير الأهرام، ليجعله محررًا عنده فلم يفلح ، فشفع له عند القصر، فجعل له راتبا ظل يصرف له حتي نهاية حياته.

ومن هنا لان ناب حافظ مع القصر طول حياته، فامتدح فؤادا كما امتدح حسينا كما امتدح عباسا من قبل.

ومن هنا أيضًا، لان ناب حافظ مع شوقي، فكان يعترف له بالإمارة جهرًا، وإن كان يحفظ عليه في سره.

أما اعترافه بالإمارة، فشواهده كثيرة، منها قوله في مدحه للخديو عباس:

لم يبـــق (أحمـــد) مـــن قـــول أحاولـــه

في مـــــدح ذاتــــك، فاعــــذرني ولا تعــــب

وقوله في مدحة أخرى لعباس أيضًا:

لم أخــــش مـــن أحـــد في الـــشعر يغلبنـــي
إلا فتــــي مــــا لـــــه في الــــسبق إلاه
ذاك الــــذي حكمـــت فينـــا براعتـــه
وأكــــــرم الله والعبـــــاس مثـــــواه

وقد درج حافظ على هذه السياسة حتي لا تكاد مدحة واحدة من مدائحه الخديوية أو السلطانية أو الملكية تخلو من إشادة بشوقي.

وله في شوقي- بعيدا عن القصر- مدائح أخري، أشهرها وأبهرها وقفته يوم مبايعة شوقي بإمارة الشعر، يلقي السلاح ويعترف الاعتراف الأخير:

أمـــير القـــوافي قـــد أتيـــت مبايعـــا
وهـــذي وفـــود الـــشرق قـــد بايعـــت معـــي

وهناك أيضًا حقيقة نفسية نبهني إليها أخي الشاعر أحمد رامي- وكان صديقا لكليهما- هي أن شوقي كان ينفس على حافظ شيئًا واحدًا، ذلك أن شوقي كان يعجز عن إلقاء قصائده فيعهد بهذه المهمة إلى غيره.

أما حافظ، فكان يلقي قصائده بنفسه من فوق أعواد المنابر إلقاء تمثيليا يأخذ بمجامع الألباب وينتزع من الجماهير أقصي درجات التصفيق والإعجاب.

كما أن حافظًا كان يملأ المجالس بهجة ويستأثر بأسماع الحاضرين، على حين كان شوقي خاملا في مجالسه، حتي لكأنه عيي اللسان!

وقبل أن أترك شوقي وحافظ، أقول إن حافظا قد حاول أن يحلق في أجواء شوقي، فكبا كثيرًا، وكانت أكبر عثراته مدائحه للملوك الإنجليز.

كما حاول أن يحذو حذوه في رثاء أعلام الغرب كتولستوي وغيره، وفي الإشادة

بالأحداث العربية القديمة والعالمية الحديثة ولكنه لم يصل إلى شيء من سماء شوقي في هذه الأجواء.

فلما تحول إلى الأحداث المصرية الجليلة، أبدع وأجاد، وصح أن يقترب اسمه من اسم أمير الشعراء.

شاعر النيل

لم يولد حافظ في بيت على سطح الأرض .. وإنما ولد في عائمة على وجه النيل ببلدة ديروط، بصعيد مصر، وكان مولده في يوم مجهول، قدر الأطباء - بعد سنوات طويلة - أنه قد يكون يوم ٤ فبراير سنة١٨٧٢ . ولعل ارتباط مولده بالنيل كان من الأسباب التي دعت إلى تلقيبه بشاعر النيل .ولعل منها أيصا أنه عاشر النيل على طول امتداده في مصر والسودان، وهام بهما، وتغني بأحداثهما واستثار الهمم - أحيانا بقسوة بالغة - لتصحو من غفوتها وتأخذ مكانها في الحياة.

مرثية شوقي

وكانت وفاة حافظ في يوم ٢١ يوليه سنة ١٩٣٢ ...

وحسبه من الخلود، مرثية شوقي التي ودعه بها ومنها:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي ... يا منصف الموتى من الأحياء

لكن سبقت، وكل طول سلامة ... قدر وكل منية بقضاء

الحق نادي فاستجبت ولم تزل ... بالحق تحفل عند كل نداء

وودت لو أني فداك من الردي ... والكاذبون المرجفون فدائي

العقاد شاعرًا

كان العقاد يرى- ورأيه الحق- أن التجديد يجب أن يكون مقيدًا بقيود الفن، لأن الفن في ذاته قيد، وكان يضرب الأمثال في ذلك بقوله: إن المشي أسهل من الرقص، ولكن الرقص دون المشي هو الفن.. فلا فن بغير قيد، ومن القيد يستمد الإحساس بالجمال.

*****

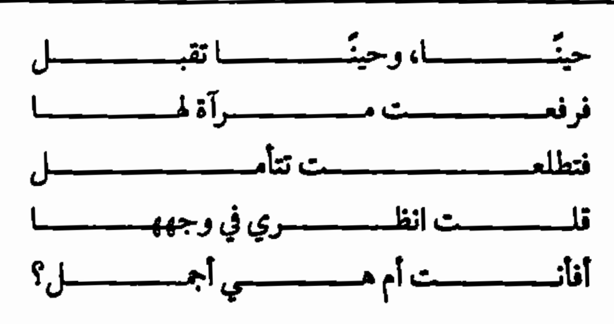
"الرقة العاطفية" تعبير من ابتكار العقاد، كتبه لأول مرة – ولعلها آخر مرة أيضًا – في مقدمته لكتابي عن الشاعر ناجي، وعنوانه : "ناجي حياته وشعره" فقد وصف العقاد ناجي في هذه المقدمة بأنه : شاعر الرقة العاطفية.

وفات العقاد أن يذكر أن كل شاعر أصيل، لابد أن يكون في شعره نصيب للرقة العاطفية.

وفاته كذلك أنه هو نفسه قد وقع في إسار الرقة العاطفية دون أن يفطن إليها، في أكثر من فترة من فترات حياته، ولا سيما فترة الحب الأول، ثم فترة حبه لسارة، قبل أن تدركه محنة الشك فيها.

هذه أبيات له تسيل عذوبة، عنوانها "غيرة طفلة" :

مـــــا كــــــان أملـــــح طفلــــــة
مـــــن غـــــير شيء تخجـــــل
ضـــــــــاحكتها فتمايلـــــــــت
وشـــــــــعورها تتهـــــــدل
ورجـــــوت منهـــــا قبلــــة
فأبــــــت كمـــــن يتــــدلل
وتغيبـــــت وهــــــي تــــــصدني



حينًـــــــا، وحينًـــــــا تقبـــــــل

فرفعــــــت مـــــــرآة لهـــــــا

فتطلعــــــــــت تتأمـــــــــل

قلـــــــت انظـــــري في وجههـــــا

أفأنـــــــت أم هـــــــي أجمـــــل؟

قالت وفيها غضبة :

أنا بالملاحة أمثل!

ألا يخيل لك أيها القارئ، بعد أن تقرأ هذه القصيدة، وإذا لم أقل لك إنها من نظم العقاد، إنها من نظم واحد من الشعراء الظرفاء أصحاب الصور اللاهية السهلة الممتنعة، كالبهاء زهير والشاب الظريف وأضرابهما.

ثم ألا تلمح في زبدة القصيدة، أنها تقرب بين شوقي والعقاد – على اتساع مسافة الخلف بين مدرستيهما ومذهبيهما في الشعر – عندما تذكر أن شوقي قد لخص لفتة الاستجابة بعد الغيرة في بيت من قصيدته في "بكفيا".

يقول فيه عن الأغر الأكحل :

وصرفـــــت تلعـــــابي إلى أترابـــــه

وزعمـــــتهن لبـــــانتي، فأغرتـــــه

ثم هذه القصيدة، "كأس على ذكري" التي يستهلها العقاد بقوله :

يا نديم الصبوات .. أقبل الليل فهات

واقتل الهم بكأس سميت كأس الحياة

*****

هاتهـــا واذكـــر حبيـــب الـــنفس يـــا خـــير ثقـــاتي
ودع التلمــــيح واجهـــــر باســــمه دون تقـــــاة
أتـــــرى نحـــرم حتـــى ذكـــره في الخلـــوات؟
صـــفه لـــي صـــفه ومـــا كـــان بمجهـــول الـــصفات
أتـــــرى ألبـــق منــــه باصـــطياد المهجـــات؟
أتـــــرى أملـــح مـــن خطرتـــه في الخطـــرات؟
أتـــرى أصـــبح مـــن خديـــه بـــين الوجنـــات؟
ذهبـــي الـــشعر ســـاجي الطـــرف حلـــو اللفتـــات
وحيـــــي لا يحييـــــك بغـــــير البـــسمات
جاهـــل بالحـــب أشـــكوه ولا يـــدري شـــكاتي
وغريـــر القلـــب لا يفهـــم معنـــى نظـــراتي

أترى كيف تسيل الرقة العاطفية من كل بيت من هذه الأبيات؟

ثم أترى كيف يلتقي به شاعر النشوة، على محمود طه، في أحد أبيات هذه القصيدة، لقاء الكلمة بالكلمة، حين يقول العقاد، وهو الأسبق:

ذهبي الشعر ساجي الطرف حلو اللفتات

يقول بعده على محمود طه في قصيدة الجندول:

ذهبي الشعر شرقي السمات
ساحر الأعطاف حلو اللفتات

ثم قصيدة "موت الحب" التي يقول فيها العقاد :

ولـــــد الحـــــب لنـــــا ... وافرحتــــــاه
وقـــــضى في مهـــــده ... وا أســــــفاه
مـــــات لم يـــــدرج ولم يلعـــــب ولم

يـــــشهد الـــــدنيا ولم يعـــــرف أبـــــاه

ألا تلتقي أنفاس ناجي بأنفاس العقاد – وهو الأسبق – في هذه الرقة العاطفية؟

حتى المطلع ... في صورته وجرسه ... ألا يذكرك بمطلع "الأطلال" لناجي إذ يقول:

يـــــا فـــــؤادي، رحـــــم الله الهـــــوى
كـــــان صرحًـــــا مـــــن خيـــــال فهـــــوى

أحسبني أغريتك بالإيغال في شعر العقاد. بعد أن شددتك إليه، بجانب الرقة العاطفية منه.

على أن هذه الرقة العاطفية، التي تضع إبهامها على كل قصيدة من قصائد شاعر كناجي أو رامي أو البهاء زهير أو عمر بن أبي ربيعة، لا تضع إبهامها على الكثير من شعر العقاد، الشاعر الذي عاش أكثر حياته – إلا في فترات الحب منها – يفكر بقلبه ويحس بعقله.

وهذا هو سر إيمان العقاد بالشعر، وبتطور الشعر، فهو لا يستمرئ قول الكاتب الإنجليزي توماس بيكوك في رسالته عن الشعر، إذ يقول:

"الشاعر في عصرنا هذا هو نصف همجي يعيش في عصر المدنية، لأنه يقيم في الزمن الخالي، ويرجع بخواطره وأفكاره وخوالجه وسوانحه إلى الأطوار الهمجية والعادات المهجورة والأساطير الأولى، ويسير بذهنه كالسرطان زحفًا إلى الوراء..."

لا يستمرئ العقاد هذا الرأي الذي ينادي برجعية الشعر، ويؤثر عليه قول فيكتور هوجو في كتابه عن شكسبير إذ يقول:

"ينادي كثير من الناس في أيامنا هذه – ولا سيما المضاربون وفقهاء القانون – أن الشعر قد أدبر زمانه. فما أغرب هذا القول! ... الشعر أدبر زمانه؟ لكأن هؤلاء القوم يقولون إن الورد لم ينبت بعد، وأن الربيع قد أصعد آخر أنفاسه، وأن الشمس كفت عن الشروق، وأنك تجول في مروج الأرض فلا تصادف عندها فراشة طائرة، وأن القمر لا

ينظر له ضياء بعد اليوم، والبلبل لا يغرد، والأسد لا يزمجر، والنسر لا يحوم في الفضاء، وأن تلال الألب والبرانس قد اندكت، وخلا وجه الأرض من الكواعب الفواتن والأيفاع الحسان...

وإذا كانت بواعث الشعر عند ناجي وأضرابه هي الحب، والحب وحده، فإن بواعثه عند العقاد واسعة المدى إلى حد يكاد يلمس اللانهاية، فكل أمر من أمور الحياة، ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وكل وجه من وجوه بواعث الموت، وما بعد الموت من آخرة، هي للشعر عن العقاد.

وهذا ما يعنيه المازني حين يقول عن صاحبه :

"إني اطلعت من شعر العقاد على نواح كانت محجوبة عن عيني، وإني وجدت فيه التعبير عما كنت أحسه ولا أكاد أعرف كنهه، أو ما أدرك ولا أقوى على العبارة عنه، وإني زدت للحياة فهما، وبها شعورًا وعلمًا".

وبهذا الإلمام الواسع والبواعث الضخمة جني العقاد على صاحبه المازني، الذي أحس بقصور مجالات شعره أمام العقاد، فهجر الشعر قائلا: (وانتهيت إلى أنه لا خير فيما قرضت من الشعر، وإن الأدب المصري لا يزيد به ولا ينقصه إذا فقده، فكففت عن نظم الشعر، ونفضت يدي من القريض)

الماضي... بأساطيره و(حواديته) البعيدة والقريبة، يستهوي العقاد أيما استهواء، ويراه من بواعث الثائر عنده، نظما وترجمة فهو يري مادة للاستيحاء في أسطورة (أكاروس) اليونانية التي تروي قصة (ديدالوس)... البطل الذي كانوا يضربون به المثل في المقدرة الخارقة في الصناعة وحسن الحيلة في تذليل المصاعب والخروج من المآزق،

لا شك في أن العقاد حينما عارض نونية ابن الرومي التي مدح بها الصقر، بقصيدته (الحب الأول) صعد إلى قمة ابن الرومي، وتجاوزه في الرقة في كثير من الأبيات، ومنها:

يا من يراني غريقا في محبته
وجدا، ويسألني هل أنت غضبان؟
واضيعة الحب، أبديه وأكتمه

ومــــن عنيـــت بــــه عـــن ذاك غفـــلان
لي في مـــديحك أشـــعار أضـــن بهـــا
عـــن امـــرئ فخـــره عـــرش وإيـــوان
مـــا الحـــسن ذنبـــا، فـــما للحـــب تحـــسبه
ذنبـــا مـــن النـــاس لا يمحـــوه غفـــران؟
همـــا شـــقيقان، فـــارفق أن تحـــيلهما
ضـــدين، بيـــنهما نـــأي وهجـــران
مـــن علـــم النـــاس أن الحـــب مأثمـــة
حتـــي كـــأن لـــيس غـــير الـــبغض إحـــسان

الماضي،برجاله وأمجاده، كعمود فرعون وأنس الوجود وهيكل إدفو وتمثال رمسيس وهيكل الكرنك وأطلال بعلبك، وشكسبير والمعري وكولمب.... كل هذا يقف مواقف شامخة في شعر العقاد، ولا سيما قصيدته (كولمب في الأوقيانوس) التي تعد من أجمل نماذج الشعر المعاصر، إذ يشبه كولمب، كأول رجل يطأ الدنيا الجديدة، بآدم، أول رجل وطأ دنيانا القديمة.. يقول:

مـــن لكولـــمب... لا الـــسماوات تهديـــه
... ولا النـــور في دجـــاه بنـــور
لـــو نعيـــب الغـــراب يـــسمع، لاعتـــد
نعيـــب الغـــراب صـــوت يـــشير
تظهـــر الـــشمس كـــل يـــوم، ولا يـــأذن
.... لـــلأرض حاجـــب بـــالظهور

أما قصيدته في أبي العلاء، فهي جزء من نفسه، وبعض من فلسفته، فقد عاش العقاد عزبا لم يتزوج، آخذا بقول أبي العلاء:

هـــذا جنـــاه أبي عـــلي

ومـــا جنيـــت عــــلى أحــــد

ويقوله:

وإذا أردتـــم بـــالبنين كرامـــة
فـــالحزم أجمـــع تـــركهم في الأظهـــر

ويتحدث العقاد عن فلسفة أبي العلاء في (ترك البنين في الأظهر) فيقول (فهو والد رؤوف، صد أبناءه عن الحياة رحمة بهم، فيالها من رحمة لا يعرفها له أبناؤه، ومتي كان الأبناء يعرفون البر للآباء؟) ثم يتصور العقاد أبناء لأبي العلاء، في عالم الغيب، يتوسل إلى أبيه أن يريه الحياة، وهو يذوده عنها وينصح له بالبقاء في عالم العدم.. يقول هذا الابن الغيبي لأبيه، في قصيدة مثلثة الشطرات مجددة الشكل:

يـــا أبي طـــال في الظـــلام قعـــودي
فمتـــي أنـــت مخرجـــي اللوجـــود
طـــال شـــوقي إليـــه فاحلـــل قيـــودي
يـــا أبي طـــال في الظـــلام قعـــودي
لـــيس يقـــوي عليـــه طفـــل ضـــعيف
فـــأجرني مـــن ظلـــه المســـدود

ويمضي الابن الغيبي في مطالبة أبيه بالإفراج عنه حتي يري الدنيا ومفاتنها... إلى أن ينتهي، فيظاهره أبوه قائلا:

ولـــدي، إننـــي أبـــوك الـــرحيم
أنـــا بـــالعيش يـــا بنـــي علـــيم
لا تـــصدق مقالـــة مـــن بعيـــد
أن غـــنم الحيـــاة مـــن لم يجـــده
لم يمتـــع بـــه، ولم يفتقـــده
فـــاغتنم ربـــح شرهـــا المفقـــود

شرهـــــا يـــــا بنـــــي سر ثقيــــــل
خيرهــــا يـــــا بنـــــي خـــير قليــــل
أهلهـــــا يـــــا بنـــــي أهـــــل حقـــــود
قـــــف ببـــــاب الحيـــــاة لا تـــــدخلنها
واعتـــصم يـــا بنـــي مـــا اســـتطعت منهـــا
ســـــوف ألقـــــاك- فـــــانتظر - بالوصـــــيد

*****

هذه بعض صور الماضي في شعر العقاد أما الحاضر، فقد عاشه وسجله من أوسع دوائره السياسية والاجتماعية والقومية والإنسانية والكونية... وحتي الغيبية والميتافيزيقية ومن صور الحضارة في شعره، وصفه في قصيدة ويقول في مطلعها:

بريـــــك مـــــاذا في ســـــتائرك الطلـــــس
أأشـــــباح جـــــن تلـــــك تظهـــــر للإنـــــس؟
إذا لم تكـــــن جنـــــا، فـــــما لي عهـــــدتها
تفـــر فـــرار الجـــن مـــن طلعـــة الـــشمس؟

ومن صورها، وصفه للسابحات الفاتنات في البحر، منشدا:

مـــــا حاجـــــة الأمـــــلاك للطهـــــر؟
أم تلـــــك بعـــــض عـــــرائس البحـــــر؟
أم لؤلـــــؤ رطـــــب، توائمـــــه
عريـــــت عـــــن الأصـــــداف والقـــــشر؟

إلي أن يقول في وصف واحدة منهن بالذات:

وحبيبـــــة مـــــنهن تحـــــسبها
في المـــــاء صـــــورة كوكـــــب يـــــسري
فـــــضية الأوصـــــال مفرغـــــة

في الحــــسن مــــن فـــرع إلى ظفـــــر
لـــو ذاب جـــسم مــــن نعومتــــه
في المـــاء ذابـــت وهــــي لا تـــدري
في الخمــــس بعـــد العـــشر ســـاحرة
أعيـــت فنـــون قهــــارم الـــسحر
تهتــــز مــــن ســــكر ولـــيس بهـــا
إلا عقــــار التيــــه مــــن ســــكر
كـــالجمر خـــداها، فـــإن ســـبحت
في المـــــاء زاد تــــوهج الجمــــــر
تطفــــو وتطفـــــر وهـــــي لاهيـــة
كالفلــــك بـــين المـــد والجـــزر

أما غيبياته، وأبرز محاولاته فيها ملحمة (ترجمة شيطان)... فهي تجرنا إلى الحديث عن مدي إيمان العقاد وإنه لإيمان عميق، موروث ومفهوم ومحسوس يتحدث العقاد عن الله في كتابه (أنا) فيقول: الله موجود، وأن الفلسفة تؤكد هذا الوجود، إذ تعلمنا أن العدم معدوم، فالموجود موجود، موجود بلا أول ولا آخر، لأنك لا تستطيع أن تقول (كان العدم قبله، أو يكون العدم بعده) وموجود بلا نقص يعتري الوجود من جانب عدم، ولا عدم هناك... موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص، لأن الكامل الأمثل هو الله، ونحن الفانين لن نري إلا جانبا واحدًا من الصور الخالدة في فترة واحدة من الزمان.

*****

ويطول بنا الحديث عن شعر العقاد فلا نتنهي في مثل هذا القدر المحدود من الصفحات، فلابد لنا من أن نصطنع وقفة أخيرة نلملم بها أطراف الحديث،فنقول إن العقاد كان صحفيا وناقدا ومؤرخا وفيلسوفا وقصاصا وناظم أغنية... ولكنه كان يعتد، بكونه شاعرا، وأن أرفع مناصب حياته أنه كان مقررا للجنة الشعر وفي هذا المنصب، خاض أكبر معارك حياته الأدبية- وهي كثيرة- مع دعاة الشعر الجديد، المتحرر من الوزن

والقافية ومن التجني على العقاد أن يقال إن وقفته هذه من الشعر الجديد، هي وقفه رجعية، فالتاريخ يشهد أنه السياسي الوحيد في عهد الملكية، الذي وقف على منبر البرلمان يطالب برأس الملك، وقد دفع ثمن هذه الصيحة تسعة أشهر في السجن والتاريخ يشهد أنه كان من أوائل الثائرين على الوفد حينما انحراف الوفد والتاريخ يشهد أنه عاش ما عاش في مجال الحزبية بلا مغنم، وأنه ذاق شظف العيش دون أن يمد يده، وأنه عاش عيشة النساك المتقشفين إلى أن مات ولم يترك من عرض الدنيا إلا كتبه.. كتبه التي أورثته الضني والسهر. لم يكن عداؤه للشعر الجديد إذن عن رجعية، ولا عن جمود، فهو صاحب المدرسة العقلية في الشعر والنقد والفلسفة، التي لا تعترف بالجمود، وهو صاحب أول دعوة للتجديد في الشعر المعاصر، مع صاحبيه عبد الرحمن شكري وإبراهيم المازني وكان تجديدهم تطويرا للشكل والمضمون أما تجديد المضمون، فلا ينكره ألد خصوم العقاد، وأما تجديد الشكل، فإليك صورة عذبة منه، في قصيدة (بعد عام) منها:

كاد يمضي العام يا حلو التثني

أو تولي

واقترينا منك إلا بالتمني

ليس إلا

مذ عرفناك عرفنا كل حسن

وعذاب

لهب في القلب، فردوس لعيني

في اقترابي

غير أنا لا نري الفردوس إلا

رسم واسم

وشربنا من جحيم الحب مهلا

شرب هائم

وصورة أخري للتجديد في الشكل، نجدها فيها أسلفنا من نماذج ولكن العقاد كان يري – ورأيه الحق فيها نري – أن التجديد يجب أن يكون مقيدا بقيود الفن، لأن الفن في ذاته قيد، وكان يضرب الأمثال في ذلك بقوله إن المشي أسهل من الرقص، ولكن الرقص دون المشي هو الفن، وأن الكلام أسهل من الغناء، ولكن الغناء دون الكلام هو الفن، فلا فن بغير قيد، ومن القيد يستمد الإحساس بالجمال.. وبعد، فأخشي ما أخشاه أيها القارئ، أن تزعم أنني أنصفته، لأنني لم أكن من مدرسته، بل الحق أنني كنت من المدرسة النقيضة، وهي مدرسة شوقي، ولا أزال عليها، ولا أفتأ أقول – على غير رأي العقاد – إن شوقي هو سيد القدامي والمحدثين بموسيقاه الفنية، وأنا ممن يرون أن الموسيقي هي المادة الأولي في ملاط الشعر.

شاعرية كامل الشناوي

كان كامل الشناوي بسمة على ثغر الحياة... لا تكاد تذكر يوما من أيامه، أو ليلة من لياليه، إلا قفزت على شفتيك ابتسامة لنكتة قالها، أو بيت طريف رواه، أو (مقلب) هيأه لبعض أحبابه وأصحابه.

وكأن الله حينما خلق الهموم على الأرض، شاء- من لطفه بعباده- أن يخلق قوما موكلين بإزالتها، ومن طلائعهم كامل الشناوي.

في مأتمه، كنت أسير مع رامي وظل رامي يهمس لي: فاكر..؟ وفاكر..؟ وفاكر..؟ كان يذكرني بروح كامل المرحة، لعله يسري الهم عن نفسه وعني.

من ذلك، أن رامي عاش ما عاش، وهو يأبي أن يدخل التليفون إلى بيته وكنت أسأله في ذلك، فيقول:

- أصلي خايف حد يضرب التليفون لمراتي ويقول لها ان جورك بيحب أم كلثوم وكان كامل الشناوي يعقب على هذه الخصومة بين رامي والتليفون بقوله: إن شاعرين اثنين في الدنيا لم يدخل التليفون في بيتهما، هما أحمد رامي، وامرؤ القيس.

وفي مطلع هذا العام فقط، اقتنع رامي بضرورة التليفون، فأدخله في بيته وسمع كامل بذلك، فاتصل برامي، وقال له:- مبروك يا رامى . لكن إزاى عرفت تدخل تليفون في أزمة التليفونات دي؟

فأجاب رامي.. ببراءة :

- والله يا كامل دانا غلبت على ما عرفت آخد خط

فقال كامل.. جادا:

- طيب يا أخي ما دام لك نفوذ بالشكل ده .... ما تتوسط لامرئ القيس

الهلال : يناير ١٩٦٦.

صــــورة للبحـــــر أم صـــــورة نفـــــسي
عنـــدما الــــنفس مـــن اليــــأس تثـــور
قـــد عــــلا المـــوج وقـــد عـــز التـــأسي
لم يعــــــــد إلا عبــــــاب وصـــــــخور

***

غـــــرب الحـــظ كـــــما مــــال الـــــشراع
هكـــــــذا الأعــــمار في الـــــدنيا تميــــــل
وسرت في الجـــــو أشـــــباح الـــــوداع
وتنـــــــادى كـــــــل شيء بالرحيـــــــل

وهكذا يمضي العمر بين يأس ورجاء . بين لهفة محرقة وأمل لا يتحقق حتى تلوح مغارب العمر وأطياف الوداع والشاعر لا يجد في الدنيا بابا للعزاء ، ولكنه ينظر إلى ما وراء البحر ويهتف:[1]

أإذا اشـــــتد عـــــلى القلـــــب الـــــبلاء
أإذا جـــــار عبـــــاب وتنـــــاهي ...
تعـــصف الأمـــواج عـــصفًا بالرجـــاء ؟
كيـــــف ننـــــسى أن للكـــــون إلهـــــا ؟

١) المرجع السابق.

الهمشري والبحر:

كان لشاعر الأعراف محمد عبد المعطي الهمشري صلة عميقة بالبحر ، وكيف لا وقد استمد منه أشهر ملحمة ارتبطت به وهي شاطئ الأعراف ، حيث يحدثنا عنه وعنها صديقه الشاعر مختار الوكيل ، فيقول :

كثيرًا ما كنت أتوق إلى الكتابة عن الهمشري الشاعر العاطفي الرمزي الذي عرفته في باكورة الشباب طالبًا بمدرسة المنصورة الثانوية ... فقد التحقت بتلك المدرسة عام ١٩٣١ لأجد بين صفوف تلاميذها طالبين ألمعيين متميزين بما ينظمان من الشعر المتألق الأنيق الرفيع ، وهما الشاعران صالح جودت ، رد الله له كامل الصحة ، وألبسه ثوب العافية وحفظه ذخرًا لدولة الشعر والأدب - والشاعر محمد عبد المعطي الهمشري ...

عرفت الهمشري كما قدمت في تلك الآونة ، وكان يقول الشعر في كل شيء : قاله في معرض الفكاهة عندما سقط فأر في إناء العدس بمطبخ المدرسة ، واشتهرت تلك الأبيات في حينها وتناقلتها الأفواه ورددتها الألسن ، ولعل أبياتا مماثلة في نفس الموضوع نقلت عن الشاعر صالح جودت وذاعت واشتهرت كذلك [1].

وقال الهمشري أبياتًا أخرى في ابنة مدرس اللغة الفرنسية (المسيو بياجي) ، وقد جاءت أبياته تلك عندما أخرج الأستاذ الفنان «رجب» مسرحية للمدرسة قام فيها المرحوم الأستاذ السفير أحمد فتحي رضوان بدور الآنسة ، وقد تولي الأستاذ «رجب» عمل الماكياج بحيث أصبح الأستاذ رضوان على صورة قريبة من صورة الآنسة (بياجي) فما كان من الهمشري إلا أن حيا صانع الماكياج ، البارع بقوله :

---

(١) الهلال ، ملحمة شاطئ الاعراف ، د . مختار الوكيل ، مايو ١٩٧٦ .

بحبـــي؟ أراح الله قلبـــك مـــن حبـــي
فلـــما كتمـــت الحـــب، قالـــت: لـــشد مـــا
صـــبرت ومـــا هـــذا بفعـــل شـــجي القلـــب
وأدنـــو فتقـــصيني، فأبعـــد طالبـــا
رضـــاها، فتعتـــد التباعـــد مـــن ذنبـــي
فـــشكواي تؤذيهـــا، وصـــبري يـــسوؤها
وتجـــزع مـــن بعـــدي، وتنفـــر مـــن قـــربي

وكان كامل لا يفتأ يردد حكاية الشاعر الأعرابي الذي ارتكب في حياته كل معصيات الدنيا، فلما تقدمت به السن وشارف الموت قال:

هـــل الله عـــاف عـــن ذنـــوب تـــسلفت؟
أم الله، إن لم يعـــف عنهـــا، يعيـــدها؟

من هذه الأمثلة، تتبين لك اتجاهات كامل، كذواقة تأخذه من الشعر موسيقاه ورقته، ينقب في بطون الأدب العربي يستخرج منها روائع لم تشتهر من قبل، لأن أكثر رواة المختارات التي طبعت في الكتب، وفرضت على تلاميذ المدارس وطلاب الأدب، كان ينقصهم ذوق ذواقة ككامل الشناوي وفي تلك (المندرة) علم كامل إخوته الشعر، فشبوا جميعا وما منهم إلا شاعر أو راوية.

نظم أخوه (أبو الفضل) شعرا لطيفا وهو في نحو العاشرة، وإن كان قد انصرف عنه بعد ذلك وبدأ أخوه (مأمون) ينظم الشعر منذ مطالع صباه وكان ينظم بالفصحي، وينشر ما ينظم في مجلة (أبوللو) قبل أن ينصرف عن الفصحي إلى العامية، ويتفرغ لنظم الأغاني الدارجة، ويشتهر بها، وآخرها (بعيد عنك حياتي عذاب) لأم كلثوم........

وقد لا يعرف الكثيرون من أصدقاء كامل وقرائه أنه بدأ حياته الأدبية في مجلة أسبوعية صغيرة، كان يصدرها المرحوم الشيخ عبد الحميد النحاس، بمرتب لا يزيد على جنيهين في الشهر وكان نتاجه في هذه المجلة مقصورا على أدب الفكاهة، من شعر ونثر

ومقامة وكان هذا النتاج في مجموعه، يمثل طرفا من معركة أدبية كانت قائمة في ذلك العهد بين جماعة (أبوللو) برياسة شوقي وتوجيه أبي شادي، وبين العقاد ومريديه وقد أخذت المجلة التي يعمل بها كامل جانب العقاد، فضلع كامل في المعركة- رغم حبه لشوقي وإيمانه بمدرسته- بينما استعانت أبوللو على حملتها، التي شملت يومئذ طه حسين، وإبراهيم المازني مع العقاد، بيرم التونسي- رحمه الله- وكان بيرم يومئذ في منفاه في باريس، وكان يحرر عن طريق المراسلة جميع صفحات مجلة (الإمام) التي أصدرتها جماعة (أبوللو) يومئذ، من الغلاف إلى الغلاف وهكذا شهدت دنيا الأدب في ذلك العهد معركة ضارية، لا أنكر أنها أسفت في بعض الأحيان، ولم تسلم من التجني- من الجانبين- ولكنها رغم ذلك كله أسفرت عن تصفيات كبيرة لعناصر الضعف، وأبرزت خطوطا واضحة في مدارس الأدب المعاصرة وأخرجت إلى النور مواهب كثيرة شقت طريقها إلى الذروة، ومنها كامل الشناوي، الذي اتجه بعد هذه المعركة إلى الصحافة اليومية، فبدأ من السفح إلى أن بلغ القمة

بدأ كامل مصححا في جريدة (كوكب الشرق)... إلى أن وصل إلى رئيس تحرير الأخبار، وفي غضون ذلك، عمل بالجهاد والأهرام وروز اليوسف اليومية ودار الهلال والجمهورية وقد أتيح لي خلال هذه المدة أن أعرف من كامل الشناوي أكثر مما عرفت منه في أول شبابه. كنت وأنا طالب بالجامعة، أناديه كما يناديه إخوته، بقولنا: ياسي كامل وحينما نال رتبة البكوية في العهد الماضي، قلت له مرة واحدة: (يا كامل بك)... فغضب مني... وقال لي: (قل لي يا كامل..فقط) ومن يومها استجبت له وجعلت أناديه باسمه المجرد وقد عملنا في (الأهرام)، ثم في (الأخبار) في أول نشأتها، وذهبنا معًا إلى أسوان عند إرساء حجز الأساس للسد العالي فعشنا أياما في غرفة واحدة، ثم سافرنا معًا إلى مؤتمر الأدباء بالكويت، فلم نفترق ليل نهار طوال أيام المؤتمر وكانت هذه أول مرة- وآخر مرة- يسافر فيها كامل الشناوي إلى الخارج كما كانت أول مرة- وآخر مرة- يركب فيها الطائرة وكنت أعرف أنه- على ضخامة جسده- ضعيف الأعصاب، يفرق من كل شيء، ومن أقل شيء، وكان من المأثور عنه، إذ نحن نعمل معا بجريدة (الأهرام) أثناء الحرب، هو في السياسة الداخلية وأنا في لسياسة الخارجية، أنه كان لا يكاد يسمع صفارة

الإنذار، حتي يلوذ بدورة المياه، فيلبث بها إلى أن تنجلي الغارة، فيخرج منها شاحب الوجه مهلهل الجسد فلما ركبنا الطائرة إلى الكويت لحضور المؤتمر، رأيت الإشفاق من الموت في عينيه، ويضحك في محاولة للتجلد، وهو يردد بيت أمير الشعراء، الذي كان يفرق من ركوب الطائرة هو الآخر، ولهذا لم يركبها في حياته:

أركــــب الليــــث ولا أركبهــــا
وأري ليــــث الشــــري أوفي ذمامــــا

أقول رأيت هذا الإشفاق من الموت في عينيه، فأغريته بمضيفة الطائرة، وسألتها- بيني وبينها- أن تتلطف معه حتي تزول غشيته، وكانت شابة لبنانية مرحة، تحب الشعر، فما زالت به تداعبه وتشاغبه حتي نسي أنه في طائرة، واستخفه الحسن، فهانت عليه الرحلة حتي...... نهايتها.

كان يستخفه الحسن كما قلت، فعاش عاشقا، لا ينجو من حب إلا ليقع في حب جديد وكانت أحب النساء إليه، ذوات الجسد الضئيل والصوت العذب، ولهذا فإنه كان يحفظ عن ظهر قلب قصيدة لي، يلحنها عبد الوهاب، لتغنيها نجاة الصغيرة، عنوانها (مينيون)...وهي كلمة فرنسية لا مرادف لها بالعربية ترسم في الذهن صورة للمرأة الحلوة الرقيقة ضئيلة الجسد كاللعبة، ومطلع القصيدة يقول بلسان هذه (المينيون) لرجلها فارع القامة:

أحبــــه، أحبــــه.. ويزدهينــــي حبــــه
وفرتــــه تعجبنــــي... وقلتــــي تعجبــــه
كــــأنني في إصــــبعيه حيــــنما أقربــــه
ســــيجار تؤنــــسه. تدفئــــه. تلهبــــه
كــــأنني لعبتــــه. وأضــــلعي ملعبــــه
كــــأنني عــــصفورة. زقزقتــــي تطربــــه
يــــضمني في يــــده. ويحتــــويني جيبــــه
أكــــاد مــــن تيهــــي بــــه. آكلــــه. أشربــــه

ولكنه كان في كل حب له، يؤمن بالروحية دون الحسية، على حد قول الشاعر القديم:

وكـــم ظفـــرت بمـــن أهـــوي، فيمنعنـــي
منـــه الحيـــاء وخـــوف الله والحـــذر
وكـــم ظفـــرت بمـــن أهـــوي، فيقنعنـــي
منـــه الفكاهـــة والإينـــاس والنظـــر

ومع هذا...

مع تواضع مطالبه من المرأة، لم يلق منها في كل مرة إلا الغبن، فعاش عاشقا شقيًا شجيا، وهذا هو سر الحرقة في شعره وأذكر أنني- عندما صدر ديوانه (لا تكذبي).. وهو ديوانه الأول والأخير- كتبت عنه مقالا في هلال يناير ١٩٦٥.. مقالا عنوانه (شاعر أحب الخائنات).. أحصيت عليه فيه- من واقع قصائد الديوان- عدد ما أحب ممن لم يبادلنه الوفاء بالوفاء عنوان الديوان نفسه (لا تكذبي)..كان صرخة ضد خيانة المرأة وأول بيتين فيه، كانا حكاية أكبر حب في حياته.. وأكبر غدر وقع فيه قلبه:

لا تكـــذبي.. إني رأيـــتكما معـــا
ودعـــي البكـــاء، فقـــد كرهـــت الأدمعـــا
مـــا أهـــون الـــدمع الجـــسور إذا جـــري
مـــن عـــين كاذبـــة فـــأنكر وادعـــي

خمسة شعراء، لعبوا دورهم في حياة كامل الشناوي، فأثروا في كيانه، أو في شعره، هم: الشريف الرضي، وأبو العلاء المعري، وأبو نواس، وإيليا أو ماضي، وأمير الشعراء أحمد شوقي.

١ - الشريف بكبريائه... كان الشريف لا يخشي أن يشمخ أمام الخليفة، ويقول له:

عفـــوا أمـــير المـــؤمنين، فأننـــا
في دوحـــة العليـــاء لا نتفـــرق

مـــــا بيننـــــا يـــــوم الفخـــــار تفـــــاوت
أبـــــدا، كلانـــــا في المفـــــاخر معـــــرق
إلا الخلافـــــة ميزتـــــك، فـــــإنني
أنـــــا عاطـــــل منهـــــا، وأنـــــت مطـــــوق

وأحب كامل في الشريف هذه الكبرياء،وأحب الكبرياء. مرة.. روي لي أنه مفتون بمضيفة في فندق هيلتون، هي التي نظم فيها قصيدته التي عنوانها (في الكافيتريا).. يقول فيها:

مـــــرت بنـــــا كـــــالطيف تـــــسالنا
مـــــاذا تريـــــد؟ فلـــــذت بالـــــصمت
ودنـــــت لتـــــسألني عـــــلى حـــــدة
عـــــما أريـــــد، فقلتهـــــا: أنـــــت!

أنـــــا يـــــا صـــــبية شـــــاعر هـــــرم
قـــــد جـــــاء يـــــستوحي الـــــشباب هنـــــا

وذهبت معه إلى الكافيتريا لأري فاتنته وملهمته.. كانت شابة لطيفة، خضراء العينين، وليس فيها، بعد هاتين العينين الخضراوين، ما يستهوي شاعرًا، اللّهم إلا شيء من الاعتداد بالنفس ومكثنا نحو ساعة، ثم قمنا، أصررت أنا على أداء الحساب- وهو ضئيل- فتركني كامل أؤديه على غير عادته في أكثر الأحيان، هامسا لي: ستري وأديت الحساب، وتركت للشابة في الصحن الإكرامية الواجبة لمثلها، والتي أتركها عادة لكل زميلاتها، فإذا بوجهها يحمر خجلا، وإذا بها تدفع بالطبق نحوي قائلة في أدب: متأسفة.. وتولي مدبرة وقال لي كامل:

- أرأيت؟.. إنها الوحيدة هنا، التي ترفض البقشيش... كبرياء! وأجمل ما يفتنني فيها هذه الكبرياء وحبه للكبرياء... يقول، في قصيدة عنوانها (لست عبدا):

٢- وأبو العلاء بحيرته وتشاؤمه... وبكل فلسفته

فقد عاني كامل شظفا في طفولته، ثم لانت له الحياة، ولكنها لم تلن لبعض إخوته، بل لعلها قست على اليتامي من أبناء بعض إخوته، فأسي كامل لهم، وأعالهم، وبر بهم كل البر، وأحس مأساتهم فلم يتزوج خشية أن يكرر المأساة، أخذا بقول أبي العلاء:

هـــــــذا جنــــــــاه أبي عـــــــلي
ومـــــا جنيـــــت عـــــلى أحـــــد

أما حيرة أبي العلاء المأثورة، فمنها حيرة كامل في مثل قوله:

زعمـــــوا حبـــــي يـــــا قلـــــب خطايـــــا
لم يطهرهـــــا مـــــن الإثـــــم بكايـــــا
والخطايـــــا مالهـــــا مـــــن غـــــافر
فترفـــــق.. وتمهـــــل في الخطايـــــا

كما تأثر بأبي العلاء في تشاؤمه، وإن كان كامل يدفع عن نفسه تهمة التشاؤم في مقدمة ديوانه، ويقول: إن المجانين وحدهم الذين يضحكون للحياة..، وما أعرف أحدا ضحك للحياة في حياته قدر ما ضحك كامل وأضحك من حوله، ولكنه كان أشد الناس حزنا إذا خلا إلى نفسه ليكتب شعرا أو نثرا ... ومن تشاؤمه قوله يصف نفسه:

كهـــــارب لـــــيس يـــــدري
مـــــن أيـــــن: أو أيـــــن يمـــــضي
شـــــك: ضـــــباب: حطـــــام
يعـــــضي يحطـــــم بعـــــضي

وقصيدته في يوم مولده هي ذروة التشاؤم في حياته.

٣- وأبو نواس... في حياته، بعيدا عن الشعر، فقد عاش كامل نواسًا يحب الليل وكل ما يحتضن الليل. كل ما بين الرجلين من خلاف، أن النواسي كان مغرقا في الحسية، أما

كامل، فقد غلبت روحانيته على حسيته إلى حد كبير وكان كامل يعترف بأنه صديق لأبي نواس، وقد حفظ شعره ودرس حياته دراسة نفسية مفصلة، وأزمع أن يكتب له سيرة بأسلوب جديد في رواية السيرة ونشر بعض فصول هذا الكتاب في (الجمهورية) ثم انقطع ومن أجمل التحايا لهذه الفصول، ما قاله المغفور له الأمير عبد الله السالم الصباح- أمير الكويت الراحل- حين دعانا- كامل وأنا- إذ نحن هناك في مؤتمر الأدباء منذ سنوات قال الأمير لكامل يومئذ:

- أن من يقرأ فصولك عن أبي نواس، لا يشك قيد شعرة في أنك كنت معاصرا له يا كامل بهذه المناسبة، أرجو أن تجمع هذه الفصول، ما نشر منها وما لم ينشر، وتصدر في كتاب عن أية هيئة من هيئات النشر.

٤- وايليا أبو ماضي... داعية مذهب (اللاأدرية).. وصاحب قصيدة (لست أدري) التي غني بعضها عبد الوهاب، أثرت (لا أدريته) أيما تأثير في تفكير كامل الشعري، فهو يقول في إحدى قصائده:

أنــــا في الظـــــل أصــــطلي
لفحــــة النـــــار والهجــــير
وضــــميري يــــشدني
لهـــوي مالـــه مــــصير
وإلي أيـــــن؟ لا تــــسل
فأنــــا أجهــــل المــــصير

خمسة أسئلة.. يتساءلها الناس منذ آدم حتى الإنسان الأخير..ولا جواب عنها إلا: لست أدري ... ويوغل كامل في السؤال عن هذه الغيبيات، فيقول في قصيدة يتساءل فيها من يكون (أنا):

يــــا رب فــــيم خلقتنــــا نهــــب الــــضباب
...فــــلا ظــــلام ولا ســــنا؟

ونــــدب فـــوق الأرض لا نـــدري بهـــا
ونــــدب فـــوق الأرض لا تـــدري بنـــا
أنـــا مـــن أنـــا؟ أنـــا مـــن أكـــون؟
وســـــيلة؟... أم غايـــــة؟
أنـــا لـــست أعـــرف مـــن أنـــا..

٥- وأخيرا.. أمير الشعراء شوقي وكان كامل الشناوي يقول، كما نقول نحن، إنه أستاذنا الأول والأخير، وإنه سيد الأولين والآخرين، بموسيقاه السحرية، ببيانه المشرق، بخياله الخصب.. بتاجه الضخم.. بمسرحياته الخالدة.. بجده وعبثه.. بإسلامياته وغرامياته.. بمصريته وعروبته وإنسانيته بمحافظته وتجديده ... مرة.. هاجم أحد النقاد المحدثين ذكري شوقي، وقال إنه لو عاش في زماننا هذا لما كان له شأن!

وبكيت يوم قرأت هذه الكلمة الخسيسة بعد أن رأيت أقدار الرجال تهون وقال لي كامل الشناوي كلمة كفكفت دمعي.. قال:

(لا عليك إذا رأيت الموتي ينتقدون الأحياء!)

مأساة شاعر الكرنك

لم يعرف الناس هذا الشاعر، أحمد فتحي، قبل أن يغني له عبد الوهاب أنشودة الكرنك... كما لم يعرفوا صاحبه على محمود طه قبل أن يغني له عبد الوهاب ما غني له من أغاريد عذبة، منها (الجندول) و(كليوباترا) و(ليالي كليوباترا) وإذا كان الغناء يمنح الشعر كل هذا القدر من الذكر وبعد الصيت، فإن الشعر يرد الجميل مضاعفا، ويمنح قدرا أكبر من الخلود، بدليل أن هذه الأغنيات الشعرية التي ألفها أحمد فتحي وعلي محمود طه، لا تزال تجري على ألسنة الناس بعد أن مر عليها عقدان أو أكثر من عقدين من الزمان، بينما عشرات ومئات من الأغنيات الدارجة التي يغنيها أعلام الغناء تموت على ألسنة الناس قبل أن ينصرم من عمرها نصف العقد أو ما دونه وهذا وجه من وجوه شرف الفصحي على الدارجة. صادفت أنشودة الكرنك هوي في نفوس الناس لأكثر من سبب:

لأنها ظهرت في عصر سادت فيه الأغنية الدارجة، حتى على شفاه أصحاب الأسماء الكبيرة من أهل الغناء، فكان طلوعهم على الناس بأغنية عربية فصحي مرة كل عامين أو ثلاثة، يعد حدثا في عالم الغناء ولأنها تناولت غرضا من أغراض الغناء غير الحب، في عصر لم يطرق فيه أهل الغناء بابا غير باب الحب، حتى مله الناس بعد أن أصبحت معانيه مكررة لا تثير في وجداناتهم أي انفعال وهكذا اقترن اسم الكرنك بأحمد فتحي، وأصبح الناس يعرفونه بشاعر الكرنك و(الكرنك) كلمة محرفة عن (الخورنق) فقد هبط العرب مصر عند الفتح، وتوغلوا إلى أعماق الصعيد، ورأوا دار آمون الكبرى، ولمحوا في سقوفها تلك النوافذ التي ترسل النور إلى أبهائها، مما ذكرهم بقصر النعمان بن المنذر، ذي النوافذ في إقليم الحيرة، فأسموا الدار المصرية (الخورنق)... ثم حرف الأوروبيون الكلمة لرطانة في ألسنتهم، فأصبحت ... الكرنك.. التي أوحت الأنشودة المأثورة التي مطلعها:

الهلال : ديسمبر ١٩٦٦.

حلـــــم لاح لعـــــين الـــــساهر
وتهـــــادي في خيـــــال عـــــابر
وهفـــــا مـــــلء صـــــكون الخـــــاطر
يـــــصل المـــــاضي بحلـــــم الحـــــاضر

*****

منذ مائة سنة أو أكثر قليلًا، شدت أسرة من بطون الجزيرة العربية، اسمها أسرة فايد، رحالها للهجرة إلى مصر بغاية الإقامة فيها لأمر لا نعلمه، وحملت الأسرة معها خيامها إلى أن حطت بها في رمال الصحراء بمديرية الشرقية، عند موضع يقال له "كفر الحمام"، حيث نصبت خيامها المصنوعة من الشعر – شأن البدو – وانتشرت في تلك البقعة من الأرض، ومازالت بها تعالجها بالفأس والماء حتى جعلت منها قرية زراعية خصبية ذات بيوت من الطين كسائر بيوت ريف مصر.

وكان أبناء هذه الأسرة يتميزون بشيء خارق هو حبهم للشعر، يطلقونه على سجيتهم موزونًا مقفي دون أن يلقنهم أحد أصوله وعروضه، إلى حد أنه قد برز منهم أكثر من شاعر أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنه يرسل الشعر فصيحًا أو بدويًا دون أن يختل له وزن أو تنبو منه قافية.

من هذا البيت، وفي ظل هذه القرية النائمة على حافة الصحراء، نشأ الشيخ إبراهيم سليمان، أبو شاعرنا أحمد فتحي إبراهيم سليمان، وكان الشيخ من علماء الأزهر .. وكان ينظم الشعر، وقد شارك بمنظومه الملتهب في ثورة سنة ١٩١٩، واشتهر عنه أنه كان ينظم المظاهرات الوطنية في الإسكندرية مستعينًا بزملائه وتلاميذه إذ هو شيخ للمعهد الديني هناك، وقد زج به في السجن وتعرض بيته لغارات الشرطة عدة مرات.

وقد تزوج الشيخ أكثر من مرة، ومن إحدى هذه الزيجات خرج شاعرنا إلى النور في اليوم الثاني من أغسطس سنة ١٩١٣.

ولهذا كان الشاعر، كلما ألمت به ملمة، وذكر هذا التاريخ في تشاؤم، قال: "ألست من مواليد سنة ١٣" تطيرا بالرقم الذي يقال إنه مشئوم.

*****

قضى الشاعر طفولته موزع القلب بين الإسكندرية ومسقط رأسه: قرية كفر الحمام.

ولما شب عن الطوق، التحق بالمدرسة الابتدائية في الإسكندرية، ثم تجاوزها إلى المدرسة الثانوية .

وماتت أمه وتركته طفلًا لم يجاوز العاشرة بكثير.. ثم مات أبوه وهو ابن خمسة عشر عامًا، فتعثر في دراسته، وبدأ يلتقي بالشيطانين: شيطان الشعر وشيطان الحياة.

ولعل شاعرنا كان يقصد إلى أن يصف طفولته حينما كتب في صدر شبابه قصة طويلة اسمها "الله والشيطان".

في هذه القصة، يتحدث البطل عن طفولته قائلًا: "لم أكن في صدر صباي طفلًا حسن السلوك على أي حال. ولعل هذا هو ما كان يحدو بأبي إلى تخويفي بالشيطان كلما ثارت النزعات الخبيثة في نفسي، تلك النزعات التي كانت تزين لي ارتكاب الحماقات دائمًا، وفي كل مكان.

"وبقدر الجلال الذي كان يحف بصورة الله المرتسمة في خيالي، كان يحف بصورة الشيطان خليط من الرهبة والشر والمآثم، ولعل ذلك كان علة شوقي إلى رؤية وجهه، بعد أن يئست من رؤية وجه الله سبحانه وتعالى".

*****

لم يرث الشاعر عن أبيه شيئًا من الإرث إلا وسامته وعينيه الزرقاوين وسجية الشعر.

ومنذ تلك السن المبكرة – الخامسة عشرة – عقد الشاعر مع الشيطان صداقة عجيبة، لعبت أكبر دور في حياته – كما فعلت بالدكتور فاوست – حتى هدمته وحطمته.

منذ تلك السن المبكرة بدأ يمارس لذاته الحسية، ويصاحب الكأس، فلم يستطع أن يظفر بشهادة "الكفاءة على تواضعها".

وكفله خاله بعد موت والديه، فحاول تقويمه على غير طائل، فألحقه بمدرسة الفنون التطبيقية – وهي يومئذ مدرسة صناعية متوسطة – فلبث بها حتى تخرج فيها سنة ١٩٣٠، وعين موظفًا بجمرك الإسكندرية.

ويصف لنا الشاعر ما كان من أمره مع صاحبه الشيطان بعد تلك الفترة، في كتابه "الله والشيطان"، فيقول: "وحين دلفت إلى سن الشباب، وأخذت أتناول الحياة من كل جانب، وأروي من شبابي ظمأة إلى المتعة واللذاذات، وجدت أنني أغدو على مر الأيام صديقًا حميمًا للشيطان، وتابعًا من أتباعه المطيعين، وكم كان يحز في نفسي أنني لا أستطيع أن أراه".

"وتضاءل الوازع الأخروي في نفسي رويدًا رويدًا، وأصبحت لا أكاد أحس اقترابي من الغاية المحتومة شيئًا فشيئًا، فما كان لي في تلك الحال من الصبوة أن افتكر بثواب أو عقاب، فكل ما كان يشغل أفاق أفكاري لم يكن يعدو التحايل لاقتناص المتع وانتهاب المسرات".

*****

وتنتقل الوظيفة بشاعرنا من جمرك الإسكندرية إلى التعليم الفني، فيشتغل مدرسًا بمدرسة الصناعات بالسويس. وفي هذه الفترة يبدأ اتصاله بالحياة الأدبية، ويراسل مجلة "أبوللو".. التي كانت تصدر عن جماعة "أبوللو" للشعر في تلك الآونة.

ويتردد كثيرًا على القاهرة، ويتعرف إلى شعرائها وأدبائها ومحافلها الثقافية، ويخوض معاركها الفكرية، فترى له في مجلة "أبوللو" مقالًا عنوانه "في معنى الانتحال" يهاجم فيه العقاد وأصحابه، ويأتي بشواهد على نظر العقاد في شعر سابقيه

وتكتب لقمة العيش على أحمد فتحي أن يذهب إلى الأقصر، مدرسًا بالمدرسة الصناعية، فلا يستطيع أن يغرق همومه في النيل أو يؤقلم روحه ويروضها على التصوف في معابد الأقصر الخالدة، فقد غلبته لذات الحس في ذلك الجدب، فملأته حنينًا إلى القاهرة وكل ما في القاهرة من متاع.

ويكتب إلى صاحبه الأستاذ أنور أحمد بعد ثمانية أيام... يقول:

"تصور أنني أنفقت هنا أيامًا ثمانية، كانت في حساب قلبي أعوامًا ثمانية. ولو أنك رأيتني الآن لأنكرتني: شحوب وذهول، وعبرات لا ترقأ وكفاتها أبدا، وظلال من الذكريات الغائمة لا تميل عن المخيلة المكدودة.

"لقد أقفرت كل دنياي من مباهجها، وهل شيء أبعد أثرًا في نفس الشاعر من أن يصبح وحيه أحجارًا جاثمة وأطلالًا قائمة، وهذه الأناشيد الحزينة التي تغلف الأحزان وتجعل من الوحدة المكتئبة ضجيج مهرجان وصخب أعياد وقدس مثول في حضرة آلهة السماء....

لو كنت في القاهرة..... "يا ... رحم الله أيامي بالقاهرة، أو رحمني بعدها"

على أنه من وحي هذه "الأحجار الجاثمة والأطلال القائمة" التي يستنزل شاعرنا سخطه عليها.... خرجت قصيدته "أنشودة الكرنك" التي أصبحت أظهر أعمال حياته في نظر الناس.

ومن يدري... لعله لو لم يذهب إلى الأقصر، ولو لم يستوح هذه الأحجار الجاثمة والأطلال القائمة، ما عرف الناس شيئًا من أمره ولا سمعوا بيتا من شعره.

على أن كل أجره عن هذه القصيدة لم يزد على ثلاثة جنيهات تقاضاها من الإذاعة في ذلك العهد.

وبعد نجاح أنشودة الكرنك، وما أضفت عليه من ذيوع صيت، نظم أنشودة أخرى بعث بها إلى عبد الوهاب، مستشفعًا بكثير من كبراء العهد، ومنهم الدكتور طه حسين، والمرحوم محمد سعيد لطفي. بيد أن عبد الوهاب أتعبه وأضناه.

فلما أوشك أن ييأس منه، اتجه إلى أم كلثوم، وتوجه إليها بأنشودة عنوانها "نداء الغروب" ... وهي من وحي وادي الملوك.... يقول فيها:

*****

تلك هي بعض أبيات الأنشودة التي بعث بها شاعرنا إلى أم كلثوم، لعلها تعوضه بعض ما فقد من أمل في عبد الوهاب ولكنها غضت الطرف هي الأخرى يومئذ، فلم يجد مناصًا من أن يشيع أغانيه على ألسنة الصف الثاني من أهل الغناء، فنظم عشرات الأغاني بالفصحى والدارجة، ولكن أغنية منها لم تشتهر ولم تصب من الحظوة عند الناس بعض ما أصابت أنشودة الكرنك.

وعادت لقمة العيش تحمله من الأقصر إلى الفيوم، وتقربه إلى حبيبته: القاهرة.

ومنذ طفولتنا ونحن نسمع ذلك الموال الشعبي العذب ونشجي له: سبع سواقي بتنعي لم طفوا لي نار......

وكنت أحسبها أسطورة لا وجود لها، هذه السواقي السبع التي تنعى، إلى أن رأيتها في ربوع الفيوم حقيقة رائعة.

ورأيت حولها عيون "السليين" وعيون "الفيديمين" و"الحدائق المعلقة" و"بحيرة قارون" وغير ذلك من آيات الطبيعة الساحرة، وكأن هذه البقعة من أرض مصر قد اغتصبت من بقية مصر نصيب الأسد من اسحر والشاعرية.

وقد عاش رامي فترات من شبابه في هذا الفردوس، وكانت له فيه قصة حب سجل مراحلها في أكثر من قصيدة من شعره العذب، أخص بالذكر منها قصيدة "ريفية الفيوم" التي مطلعها:

نـــشأت في منابـــت التـــين والزيتـــون
في ظــــل هــــادلات الكـــروم
وســـقاها مــــن بحـــر يوســـف عـــذب
سلــــسبيل مـــن مــــسكه المختـــوم

سمعنا هذه القصيدة العذبة من رامي في مطالع شبابنا، في أول الثلاثنيات وكان أحمد فتحي يؤم بعض مجالسنا في عهد جماعة "أبوللو" ويسمع هذه القصيدة ويفتتن بها.

وهكذا علقت بخياله صور حلوة للفيوم كما رسمها رامي.. منابت التين والزيتون... وهادلات الكروم.... وبحر يوسف ... وسواقي الهدير.

فلما كانت نقلته إلى الفيوم – سنة ١٩٤١ – مدرسًا بالمدرسة الصناعية تفاءل خيرًا وكتب إلى صاحبه أنور أحمد يقول له :

"السواقي تكاد تطغي على نداءات خواطري وأنا أكتب لك، ومع هذا فإنه لنواح حبيب، يا ليتني أستطيع أن أسجله في أبيات كما سجله رامي في قصائد".

بيد أن الحرب كانت قائمة الأوزار يومئذ، وقد نجحت الدعاية البريطانية في اجتذاب الشاعر إلى جانبها بما أغدقت عليه – عن طريق أغانيه وأحاديثه في الإذاعة البريطانية – من دخل أعانه على يسر الحياة وأسباب المتعة، فانغمس فيها، ووجه شعره إلى التنديد بالمحور ونصرة الحلفاء... ومن ذلك قوله:

وهكذا اتخذ أحمد فتحي موقفًا من معركة الحلفاء والمحور. وسواء أكان موقفه هذا عن إيمان أو عن غير إيمان، فقد زج به، لسوء حظه، في تيار لم يستطع أن يرجع عنه فيما بعد، إلى أن قذف به، بعد مرحلة الفيوم، إلى ميدان الحرب في الصحراء الغربية، بعيدًا عن وطنه، ضابطًا في قوات الحلفاء، يلبس كسوة ضباطهم وهو يشعر بالخجل منها.

ويرحل الشاعر عن مصر... ويودع حبيبة عمره بقصيدة عاطفية حلوة الأنفاس يقول فيها:

أغاريـــد مـــن ذكـــرى هـــواك وأنغـــام
تعـــود، فهـــل عـــادت ليـــال وأيـــام؟
هنـــا... كـــان لي قلـــب وفي ومرتـــع
رضي وآمـــال حـــسان وأحـــلام
وكـــان هوانـــا يمـــلأ الرحـــب بهجـــة
يـــصورها في صـــفحة الكـــون رســـام

ماذا حدا بشاعرنا إلى هذه النقلة السوداء؟

إنه يفسر لنا نازعة النفس التي قذفت إلى الصحراء في إحدى رسائله الشجية، فيقول:

"أنت تدري أنني رجل لا سبيل للمال إلى استمالته. ولكن ... حدث أنني سعيت إلى الشهرة سعي المجد، وطلبت المجد طلب الملحاح، وبذلت في سبيل ذلك ما بذلت من نضرة شبابي ونور عيني. "فلما بدأ نجمي يتألق في سماء المجتمع، وأقبلت على الشهرة إقبال المشوق، كان ما تبقى في النفس ذماء لا يكاد ينتفع بالحياة في جملتها ولا في تفصيلها.

وفقدت نصف قلبي منذ ثلاثة أعوام، وفقدت نصفه الباقي منذ أيام.....

صار جدًا ما لهوت به
رب جد جره لعب

"ولقد فزعت إلى الشراب من مواجعي وعذاب دنياي، فما زادني إلا ضعفًا عن احتمال الحياة ومواجهة متاعبها، وعادت علة الجسد تزيدني من يقظة جراح قلبي، وأصبحت حياتي كلها مقاساة ونكرًا.

"وتلفت حولي، فإذا أنا ولا ناصر ولا معين... وإذا مثلي كمثل الكسرة من الخبز العفن، ملقاة في عرض الطريق، إن وجدت تقيًا يرفعها إلى جانب الحائط، فإنها لن تجد من يأكلها بأية حال.

"قلت لنفسي: لعلنا نصطنع لنا وطنًا جديدًا وعملًا جديدًا وآفاقًا جديدة، يرتفع في ظلالها الإحساس الجريح والخيال مهيض الجناح، ولعل تغيير الجو وتبديل الوسط وتجديد المعالم .. لعل ذلك كله أن يعين على طي صفحة الماضي بخيره وشره، بل بشره وحسب، فما كان فيه من خير قط.

"وفي بضعة أيام أبرمت الأمر، وعقدت العزم على الرحيل، لم أشاور أحدًا ولم أستأنس برأي أحد، بل استخرت الله في المضي، وحضرت رحلي أطياف الشباب من أماني شاحبة غاصت في عبرات الأسف على ما ضاع من ضحوة العمر ونضرة الشباب، ورحلت وأنا لا أدري إلى أين؟

"ولست أدري حتى الساعة ماذا يراد بي، فإن كان خيرًا فقد أسلفت من الصبر والتجمل ما يثبت حقي في أن أنعم بما بقى لي في صحبة الحياة من أمد، وإن كان شرًا، فقد:

تعودت مس الضر حتى ألفته
وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر

"ولكن شر ما أكابد الآن – في برقة – هو هجر شيطاني الصادح الذي طالما هششت إلى هزجاته بين تجهم أيامي وفي أمسياتها العابسة. فما عدت أهتف ببيت من الشعر، ولا عاد يطرقني طيف من أطياف الخيال.

والواقع أن شيطان أحمد فتحي لم يحسن صحبته بعد تلك الفترة، فقد عاد شاعرنا من الصحراء الغربية بعد حين، بعد أن خلع حلة الجيش البريطاني، ولجأ إلى صاحبه المرحوم محمد سعيد لطفي – مدير الإذاعة يومئذ – وقد كان على صلات طيبة بالإنجليز، فتوسط للشاعر عندهم، فعينوه مذيعًا ومترجمًا للأخبار بالإذاعة البريطانية بلندن، في فترة مظلمة ظالمة تكاثرت فيها القنابل الطائرة على العاصمة البريطانية ... وذهب أحمد فتحي إلى لندن، ولكنه لم يحسن صحبة من حوله، ولم يتخل عن بوهيميته التي لا تقيده بموعد، وتجعل موعد الحب قبل موعد العمل.

وهكذا ضاقوا به.... فلم يعد بد من الاستقالة في يونيه سنة ١٩٤٦، أي بعد أن وضعت الحرب أوزارها بعام وحاول أن يبقى في لندن، كمراسل لبعض الصحف المصرية، ولكن مراسلة الصحف لم تقم بأوده، فحاول أن يمارس التجارة، ولكن متى كانت تجارة الشاعر رابحة؟!.

على أن لندن قد حملته ذكرى ظل يدمع لها بقية حياته.

فقد أحب هناك......

أحب شابه إنجليزية اسمها "كارول" .... وهي من بنات الطبقة المتوسطة، وكانت تشتغل كاتبة على الآلة الكاتبة، وتزوجها، ورزق منها طفلة أسماها جوزيفين.

وكان قد تعود أن يفرط في الشراب، فلا يفيق منه، وهكذا لم يستطع أن ينهض بتكاليف الحياة الزوجية.

وجاءه النذير حينما رفضت السلطات الإنجليزية أن تجدد إقامته هناك، فكان عليه أن يرحل، ويترك زوجته وابنته خلف ظهره، ويبحث عن أي مصير.

وقد أتيح له أثناء عمله في الإذاعة البريطانية أن يتعرف إلى كثير من الشخصيات العربية التي كانت تتردد على لندن، ومن بينها الأمير عبد الله الفيصل، وهو يومئذ شاب في مثل سن شاعرنا، وهو كذلك شاعر، وله ديوان اسمه "محروم"

ولعل صاحبنا شكا للأمير الشاب حاله، ولعل الأمير لمس ما في شاعرنا من مواهب نادرة، فوعده بتهيئة عمل له في الإذاعة السعودية.

وصدق الأمير وعده، وعاد شاعرنا إلى القاهرة، وتأهب للسفر إلى السعودية.

وهناك... أقام حينا مترددًا بين عمله الإذاعي والاشتغال بالمقاولات، ولكن الأرض المقدسة ضاقت به ضيق الأرض غير المقدسة.. أرض الإنجليز... فلم يلبث أن عاد إلى مصر... ليعيش على عمل صحفي طورًا، وعلى صلة يصله بها صاحبه الأمير تارة، إلى أن ودع الحياة وهو في غيبوبة ثمالة، وحيدً في غرفته بالفندق، في اليوم الرابع من يوليو سنة ١٩٦٠.

وذهب... وسارت وراءه حفنة قليلة من الناس.

أما بقية الناس فلم يعودوا يذكرونه إلا حينما يسمعون بيتيمته في الإذاعة و"أنشودة الكرنك" لعبد الوهاب، وأنشودة أم كلثوم.

أنــــا لـــــن أعـــــود إليــــك مهـــما
اســـــترحمت دقــــــات قلبـــــي
أنـــــت الـــــذي بـــــدأ الملالـــــة
والـــــصدود وخـــــان حـــــبي
فـــــإذا دعـــوت اليــــوم قلبـــي
للـــــصفاء فلـــــن يلبـــــي

مات أحمد فتحي دون أن ينال أي نصيب من الدنيا... وعلى شفتيه وهم خلود يهمس للناس:

مــــاذا أفــــدت بأشـــعاري وروعتهــــا
ســـــوى علالــــة تخليــــد لآثــــاري
ومـــا الخلـــود بمـــأثور لعاريـــة
غـــير الخسيـــسين مـــن تـــرب وأحجـــار

شاعر الحضارة الريفية
م. ع. الهمشري

ما عرفت شاعرًا يحب الحياة ويفر من الموت كهذا الشاعر، رحمه الله.

كان يحب الحياة وينهبها نهبًا .. وقد يضلك من أمره أنك لا تجد في شعره أثرًا لضحكة أو ابتسامة بل لعلك واجد كل ما هو عكس ذلك، من تجهم وتشاؤم، وحديث عن الموت ونبوءات بدنوه منه.

*****

ولد الهمشري ميلادًا شاعريًا، على شاطئ رأس البر، سنة ١٩١٠ .. ومات ميتة خاطفة وهو في عمر الزهور، سنة١٩٣٨م.

ورغم أنه لم يعش أكثر من ٢٨ سنة، فقد خلف وراءه تراثًا شعريًا، قوامه أكثر من ألف بيت، يعد ذخيرة من أجمل ذخائر الشعر المعاصر.

ولو كانت الأمور تجري مجراها الطبيعي في حياة الناس، لكان الهمشري شاعرًا أعجميًا، ولعاش على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط، ليضيف التراث الذي خلفه وراءه، لا إلى الأدب العربي، بل إلى أدب تلك الدولة الصغيرة، ألبانيا، التي ولد فيها جده، أحمد الهمشري، قبل أن ينزح إلى مصر.

ولكن هذا الجد، لظروف لا نلم بها، هاجر إلى مصر، وطاب مقامه فيها، ورزق فيمن رزق من البنين، عثمان الهمشري، والد الشاعر .

تزوج عثمان الهمشري سيدة تركية، رزق منها ابنة واحدة، ثم لم تطب حياته معها، ولعل سر هذا أنها لم تنجب له ولدًا. فاهتدى إلى الزوجة الثانية، وتخيرها هذه المرة من أسرة مصرية من المنصورة اشتهر أفرادها، المتعلم منهم والأمي على السواء بالذكاء والألمعية .

كانت هذه الزوجة الثانية هي السيدة عائشة شقيقة الكاتب الكبير الأستاذ محمد التابعي، صاحب الأسلوب الفرد في النقد والسخرية ومنشئ امدرسة الأثيرة في عالم الصحافة.

وأثمرت هذه الزيجة خمسة أولاد وبنتًا، كان أولهم شاعرنا م.ع. الهمشري.

*****

نشأ شاعرنا في المنصورة.. والمنصورة أرض طيبة، تنبت الشعر والجمال، وتلهب الحب والخيال، ويشتهر رجالها بالظرف والذكاء، والإغراق في حب الأدب والفن، كما تشتهر نساؤها بالجمال والخفة والشاعرية.

وقد كانت صورة الحياة في المنصورة ضاحكة في ذلك العهد. فمعهد الموسيقى فيها ناجح ومزدهر. والأندية على شاطئ النيل ممتدة لامعة الأضواء يؤمها أهل الفن من القاهرة، ويحيون فيها أطيب الليالي..

وأهل المدينة يعيشون عيشة ميسرة، يحبون المرح، ويحسنون النكتة ويقبلون على الحياة، ويعشقون النيل، يغنون له في زوارقهم عصر كل يوم.

وقد أثر عن المدينة يومئذ أنها مسرح للغانيات، يقصد إليها أهل المدن الأخرى في عطلة نهاية الأسبوع، لينعموا بأطايب الحياة.

يضاف إلى هذا أن المدينة كانت – ولعلها لا تزال– مزهوة بنفسها من سحر مشاهد الطبيعة فيها، وما بها من رائحة التاريخ الفاخر إذ ساق أهلها ملك فرنسا– في عهد الأيوبيين – أسيرًا، وألقوا به في صحن الدار المعروفة بدار ابن لقمان، وهي لا تزال قائمة هناك ولا يزال المتنزه الرئيسي في المدينة يحمل اسم الملكة الأيوبية الفاخرة (شجرة الدر).

كانت سماء المنصورة يومئذ تجلجل بالشعر . كان فيها علي محمود طه المهندس، صاحب أنشودة الجندول، وكان فيها أيضًا الدكتور إبراهيم ناجي، شاعر اللهفة العاطفية.

في هذا الجو الحالم، نشأ الهمشري، يبدأ يغرد ويردد أغاني الحب.

*****

كانت بين حسان المدينة يومئذ شابة حلوة، أصلها من قرية قريبة من المنصورة تتكئ على ذراع النيل، اسمها "نوسا البحر" كان اسمها المدلل "توحة".. وكان يحلو لها أن تخرج ساعة العصر من كل يوم، فتسير في شوارع المنصورة، وقد لفت جسدها الغض بملاءة حريرية سوداء هفهافة كبنات البلد- مع أنها لم تكن منهن وتتبختر في مشيتها بخترة تذيب قلوب الشباب، ولا تضن على أحد منهم بنظرة عابثة، أو ابتسامة مغرية، ترسلها من خلف نقابها الشفاف.

ويقولون إنها كانت بطلة لكثير من القصص في المدينة، ولكننا - الهمشري وأنا - كنا لا نزال تلميذين صغيرين في المدرسة، دونها سنًا، فهي في أجمل أيام الشباب في نحو العشرين فلم يكن لنا أن نظفر منها بواحدة في هذه القصص التي ينسبونها إليها، إن صدقا وإن كذبًا ولكننا كنا نكتفي منها بالنظرة العابثة والابتسامة المغرية دون أن نطمع في أكثر من هاتين لنتخذ منهما وحيًا لشيء ننظمه .

....

وذات يوم، نظم الهمشري قصيدة عاطفية من أرق شعره، وجعل عنوانها "إلى نوسا" وهو اسم قرية "توحة" قال فيها:

منـــــك الجـــــمال ومنــــــي الحـــــب يـــــا نوســـــا
فعلـــــلي القلـــــب، أن القلـــــب قـــــد يئـــــسا
يـــــا حبـــــذا نـــــسمة مـــــن توحـــــة خطـــــرت
أطالـــــت الـــــنفس مـــــن أســـــبابها النفـــــسا

ولم يدر بخيالنا، ونحن نقرأ القصيدة، ونري ما فيها من حديث عن الحب اليائس والقلب الذي تحول إلى برق أكثر من أن الهمشري شاعر، وللشاعر أن يحلم ما شاءت له أحلامه، وللشاعر أن يتصور في الخيال مالا في الواقع وللشاعر أن يعذب نفسه ما يعذبها من أجل محبوب لا يحس وجوده ولا عذابه.

ذلك هو الأمر إنما كان في أوهامنا ولكنه كان أجل من ذلك في حقيقته التي لم يحدثنا عنها أبدًا وإلى أن مات، فأسر إلينا بها ذووه.

وما كان لي أن أذيع بعض هذه الحقيقة . لولا أنني مضطر إلى إزاحة بعض الآثار عنها بالقدر الذي تتطلبه أمانة التاريخ الأدبي والذي يكفل إلقاء الضوء على مصدر أكبر عمل في حياته الأدبية، وهي ملحمة "شاطئ الأعراف".

فالحقيقة أن "توحة" لم تكن هي بطلة قصيدة "نوسا" وإنما أقحم اسمها إقحامًا على القصيدة لكي تستطيع كل كلمة أن تتحدث عن "نوسا" بغير كثير من الحرج كان في "نوسا" أمل..

ذلك أن زوج خالته كان عمدة "نوسا" وكانت هذه هي الصلة التي ربطته "ببيت طفولته" وكانت بين أقرانه طفلة صغيرة في مثل سنه، أو أقل قليلًا، هي ابنة بيت من البيوتات الكريمة في نوسا.

كانا يلعبان معًا فيمن يلعب من أبناء القرية وبناتهن إذ هم صغار يطيرون في الحقول كالفراشات، يتعقبون الفراشات، ويسرحون ويمرحون في براءة الطفولة.

ثم كبر الزمن، وكبر الهمشري وكبرت هي معه، حتى بلغا اليفاعة فوجب عليها - وهي ابنة الأسرة المحافظة - أن تحتجب في خدرها ولم يكن الهمشري يدري إذ هو يكبر مع الزمن أن عاطفته نحوها تكبر معه فكان يكثر من التردد على القرية الهادئة يتنسم أخبار صغيرته التي كبرت ويسعده أن يلمح طرفها من نافذة بعيدة ويعود ليملأ الدنيا بحبها شعرًا وغناء.

هذه -لا توحة – هي الملهمة الحقيقية لقصيدة "نوسا" وما اسم "توحة" في القصيدة إلا تمويه، حرصًا منه على قداسة الحب الوحيد الذي عاش في قلبه إلى أن سكت هذا القلب .

وكانت قصيدة "نوسا" هي آخر ما نظمه الهمشري في حياته من الشعر العاطفي، بعد أن عاد إلى نوسا ذات يوم، فعلم أنه فقد حبه إلى الأبد إذ زفت حبيبته إلى غيره، وكان يتمناها لنفسه، فانقطع الأمل.

******

انتهى الشاعر العاطفي..

وهجر الهمشري كلية الآداب، والتحق بوظيفة بالتعاون.. وكان التعاون يومئذ تابعًا لوزارة الزراعة. كانت وظيفته تحرير مجلة "التعاون" وقد عرف الهمشري مكانه من الحركة التعاونية منذ البداية، إذ قرأ سيرة الشاعر الإيرلندي الكبير "جون راسل" الذي وهب حياته وشعره ونثره للكفاح ضد الاستعمار البريطاني وضد الرجعية والرأسمالية والإقطاع، وحمل رسالة الدعوة التعاونية والحضارة الريفية، على صفحات مجلته "الدوار الإيرلندي" التي كانت مجرد مجلة، فجعل منها جون راسل مجلة عالمية، تحمل رسالة الحضارة الريفية إلى جميع أنحاء أوروبا وأمريكا!

وتتلخص رسالة الحضارة الريفية، في الدعوة إلى بث النزعة الديمقراطية في أهل الريف عن طريق التعاون، والقضاء على الجوع والفقر والجهل بينهم، ونقل مزايا الحضارة -دون سوءاتها- من المدينة إلى القرية،

آمن الهمشري بهذه الدعوة، فحمل رسالتها على صفحات مجلة التعاون وعلى الرغم من أنها كانت مجلة حكومية تابعة للدولة الملكية الحزبية في ذلك الوقت، فإنه حمل على كل هذه العناصر حملة شعواء في شجاعة بالغة. دعا إلى تحقيق الحضارة الريفية وإلى عودة أعيان الريف، الهاربين من الميدان، إلى الريف.

جند الهمشري سلاحيه، المقالة والقصيدة، لتحقيق هذه الدعوة.. جعل المقالة للدعوة الإيجابية، وهي تحقيق الحضارة الريفية. وجعل القصيدة للدعوة السلبية، وهي الإشادة بجمال الريف، والتغني بمزاياه.

وبعد أن كان شاعر العاطفة،كما أسلفنا القول، أرست النهاية البائسة لقصة حبه "نوسا" نهايته كشاعر عاطفي، وأعلنت ميلاد أعظم شاعر ريفي في تاريخ الأدب المعاصر يتغني بالربيع فيها، ولياليها المقمرة، وأشجار النارنج التي تملأ أجواءها بالعطر،ونخيلها المتطلع إلى السماء، وإشراق الشمس وطلوع القمر، وأحلام الفجر ومسارح الشفق، كما لم يغن شاعر آخر من قبل، ويقتحم أخيلة وألفاظًا ومسميات جريئة لم يقتحمها شاعر من قبل، في مثل هذه الأنشودة الريفية التي يصور بها غناء الفلاح لجاموسته:

تنقـــلي تنقــــــلي | مــــن جـــدول لجـــدول
جاموســتي يـــا ساحـــرة | جـــوبي الحقـــول الناضـــرة

تنقلي.. تنقلي

يــــشدو لــــك العـــصفور | ويهمــــــس الغديـــــر
خطوتــــــك الحـــــسناء | يمــــشى بــــها الرجــــاء

الفكاهة في الشعر المعاصر

يقول قوم إنه لم يعد لأدب الفكاهة موضع في مجال الأدب في هذا العصر، بعد أن جدت الحياة، وأخذ الأديب- من شاعر أو غير شاعر- بالالتزام، ووضحت الأهداف أمامه، وهي أهداف عليا لا تترك له فسحة من الوقت للمزاح ولا للتفكه. بحيث يحق للناقد في هذا العصر أن يخرج أدب الفكاهة من إطار الأدب الصحيح..

أجل .. جدت الحياة، فلم يعد فيها مكان للهازلين.

ولكن الحياة تصبح مستحيلة حينما تتجرد من إنسانيتها.

وتتجرد الحياة من إنسانيتها، حينما تزول البسمات من فوق الوجوه .. تلك البسمات التي تبعثها نكتة حلوة، أو صورة كاريكاتورية ساخرة، أو مونولج فكه، أو مسرحية ضاحكة، أو بيت من الزجل أو الشعر يشيع المراح في النفوس.

فإذا كان هناك من يقول باستبعاد أدب الفكاهة من مجال الأدب الصحيح، وجب عليه إذن أن يطالب بالقضاء على فن الكاريكاتير والمونولوجات الفكهة والمسرحيات الضاحكة، وتحريم البسمات على الشفاه، وتجريد النفس الإنسانية من إنسانيتها المجبولة على التماس مراح الحياة، بعد الانتهاء من ساعات جدها اليومي، والخلو إلى طلب السكينة والتعويض والترفيه، ولو أننا راجعنا أعمال أعلام الشعر في كل زمان ومكان، حتى أصحاب المدارس الأدبية العليا، مثل ت.س.إليوت في الأدب الإنجليزي، وأحمد شوقي في الأدب العربي، ما وجدنا شاعرًا واحدًا خلت صفحاته من أبيات لاهية أو عابثة أو هازلة.

وإذا كان أبو تمام قد قسم الشعر إلى عشرة أبواب، وقسمه غيره إلى ثمانية عشر بابا، هي الغزل، والوصف، والفخر، والمدح، والهجاء والعتاب، والاعتذار، والأدب، والزهد، والخمريات، والمسرات، والبشارة والتهاني، والوعيد، والتحذير، والتحريض، والسؤال، والجواب، فإن الشعراء المحدثين قد يختلفون كثيرًا في هذا التقسيم:

الهلال : أغسطس ١٩٧٥.

قد يستغربون – أول ما يستغربون – عدم إدراج (الفكاهة) كباب مستقل بين هذه الأبواب ولا أحسب أن الذين وضعوا هذا التقسيم قد نسوا الفكاهة، ولعلهم لم يشاءوا أن يجعلوا لها بابًا خاصًا، حتى يفسحوا لها أكثر من مجال في أبواب أخرى، كالهجاء أولًا، ثم الخمريات والسؤال والجواب.

وأقول .. الهجاء أولًا.. لأن الهجاء لا يكون هجاءً فنيًا إذا كان ثقيل الظل، خلوًا من الصور الفكاهية التي تنتزع الضحكات من أعماقنا، أو ترسم الابتسامات على شفاهنا على الأقل.. فقصيدة المتنبي القبيحة، التي هجا بها ضبة بن يزيد العتبي، والتي يقال إنها كانت سبب مصرع شاعر العربية الأكبر، حينما سمع أهل ضبة القصيدة فخرجوا وراء المتنبي فقتلوه.. هذه القصيدة لم تخل من تصورات فكهة بالغة من السخرية أقصى مداها .. إلى حد لا يجيز لنا نشرها بكل ألفاظها، وأقصى ما نستطيعه في هذا المجال أن ننشر بعض أبيات منها، مع تنقيط الكلمات الفاضحة، تاركين مكان النقط لذكاء القارئ المتعجل، محيلين القارئ غير المتعجل إلى أصل القصيدة في ديوان المتنبي:

مـــا أنـــصف القـــوم ضبـــه
وأمـــــــه الطرطبـــــــه
رمـــوا بـــرأس أبيـــه
و......... الأم غلبـــــــه
فـــلا بمـــن مـــات فخـــر
ولا بمـــــن ... رغبـــــه
كـــل .... سهـــــام
لـــريم وهـــي جعبـــه
مـــا ضرهـــا مـــن أتاهـــا
وانمـــا ضـــر ....
يـــا أكـــرم النـــاس نفـــسا
وألـــين النـــاس ركبـــه

وأرخـــــص النــــــاس أمـــــا
تبيـــــــع ألفـــــا بحبـــــــة

وفي الشعر المعاصر أيضًا، تستمر الظاهرة نفسها، ولا ينفصل الهجاء عن الفكاهة، ويبقي بينهما هذا الخيط الرفيع، كما يبدو لنا في هذين البيتين للدكتور إبراهيم ناجي، في هجاء إنسان دميم، كان يعيش على هامش دنيا الأدب. قال ناجي في هذا المسكين:

يــــا نـــسل "دارويـــن" وخلقـــته
وخلاصـــــة النظريـــــة القـــــذره
يــــا عبقريــــا في دمامتـــــــه
ولـــدتك أمــك وهــي معتـــذره

ويسقط الشعراء المحدثون من تلك الأبواب الثمانية عشر أكثر من باب أصبح غير ذي موضوع في هذا العصر، كالفخر والمدح والتهاني وغيرها من الأغراض الدنيا التي لا ترقي إلى مستوى الشعر الخالص، كما يسقطون أبوابًا أصبحت الجرأة عليها عملًا ممجوجًا في هذا العصر، كالتشبيب بالمذكر، والخمريات المسرفة.

ونعود إلى حديث الشعر الفكاهي في هذا العصر، فنجد أن النماذج المنشورة منه في الكتب والصحف والدواوين نادرة إلى حد قد يوحي لغير الدارسين والمخالطين للأجواء الأدبية بأن هذا اللون في الشعر صائر إلى زوال، ولا سيما إذا قورنت حصيلتنا المعاصرة منه بحصيلة الماضي، في الكيف والكم.

والتعليل الأول لذلك، أن شعراء الماضي كانوا يعيشون في فراغ، وكانوا يتكسبون بالأدب، وكانوا يعيشون على منح الخلفاء والسراة، أما الشعراء المعاصرون، فمشغولون بطلب العيش، ولا يتكسبون بالأدب، ولا يتلقون المنح، ففراغهم المحدود لا يتيح لهم إلا تكريسه لأعماله الجادة.

ومهما يكن في هذا القول من صحة، فإن الشعر المعاصر لا يزال غنيًا بأدب الفكاهة، ولكن قلة النماذج المعروضة منه- إذا قورنت بنتاج الماضي- ترجع، أول ما

ترجع، إلى أن حفظة التاريخ الأدبي في العصور الماضية كانوا يثبتون للشاعر كل ما نظم من قول مشروع أو غير مشروع، من هجاء فاحش، أو خمريات ماجنة، أو تشبيب بالمذكر، أو غير ذلك من الأغراض مهما تهاوت صورها ومعانيها وألفاظها .

ولا يزال من حق الشاعر القديم- كلما أعدنا نشر إنتاجه- أن نثبت له هذا بكل أمانة.

أما الشاعر المعاصر، فقد يطرق غرضًا من هذه الأغراض، ولكنه يأبي أن يثبته، ويأبي غيره أن يثبته له في ديوان منشور على الناس.

مثال ذلك، أكثر شعر شاعر البؤس عبدالحميد الديب. فقد كانت له قصائد كثيرة قبيحة، لا تخلو من روح الفكاهة، كقصيدته التي يقول فيها :

وهـــام بي الأســـى والبـــؤس حـــتى
كـــأني عبلـــة والبـــؤس عنتـــر

ومن الأمثلة الطريفة في هذا المجال، أبيات للشاعر محمود غنيم، قالها في أديب معروف من كبار الموظفين- ولنسمه "فلان" – شاء القدر أن تكون رئيسته مرأة قال غنيم:

" فـــلان" نعـــم الرجـــل
محـــترم مبجـــل
لـــه رئيـــسة إذا
مـــا أمـــرت يمتثـــل
يـــرى بهـــا قدوتـــه
في كـــل أمـــر تفعـــل
حـــتى إذا مـــا حملـــت
تـــراه أيـــضًا يحمـــل

هذه الأبيات تجرنا إلى ذكر الدوافع الجديدة في الشعر الفكاهي المعاصر.

فالدوافع في هذه القصيدة، هو مساواة المرأة بالرجل في الحقوق المدنية والسياسية، وهو دافع جديد لم يعرفه القدامى، ولو عرفوه لتركوا لنا فيه ذخيرة ضخمة من شعر الفكاهة.

واختلاف نظرة الناس إلى الجمال في هذا العصر، يفتح الباب إلى دافع جديد من دوافع الشعر الفكه.

فقديمًا، كان جمال المرأة يتمثل فيما يتراكم عليها من الشحم واللحم. يقول الشاعر القديم في قصيدته التي يتغزل بها في حبيبة لها (مأكمة) عريضة لا يتسع لها الباب:

تريك إذا دخلت على خلاء
وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعي عيطل أدماء بكر
هجان اللون لم تقرا جنينا
وثديًا مثل حق العاج رخصًا
حصانًا من أكف اللامسينا
ومأكمة يضيق الباب عنها
وكشحا قد جننت به جنونا

هذه المرأة لو وجدت في عصرنا هذا لأصبحت سخرية الشعراء وغير الشعراء بعد أن ذهبت أيام رفيعة هانم وجاء عصر النحافة الناحلة الرقيقة.

وقد كتب القدر على الشاعر الراحل محمود عماد أن يحب امرأة من ذوات المآكم الضخمة، فنظم فيها هذه الأبيات اللطيفة:

أمنطاد كيانك يا حبيبي
أم أنك قد طويت على كثيب؟
مثلت بحيز في الأرض يكفي
ليمرح فيه أكثر من حبيب
أحبك قطعة من بعد أخرى

وإلا احتججت فيك إلى قلوب
يهون الحب تقسيطًا بجسم
نأي فيه الشمال عن الجنوب
يدور عليك عند الصبح قلبي
فيفرغ منك في وقت الغروب
ومجهدة لعيني إن أطافت
ولم ترتح بجسمك يا حبيبي
أتمشي أم تدحرج.. لست أدري
فحقك أن تسير على قضيب
إذا بلد حللت به خصيب
فما هو بعد بالبلد الخصيب

وكانت السياسة القائمة على الأحزاب والحزبية إلى ما قبل الثورة، مدعاة للسخرية والهزل، انعكست على مرآة الشعر في ذلك العصر، فاغتني بها شعر الفكاهة.

ومن أبرع النماذج التي طالعت الناس في هذا الضرب، قصائد "الشاعر إياه" في مجلة (الكشكول) وكان ناظمها هو المرحوم الشاعر محمد الهيياوي، وقد شنها حملة ضارية على الوفد وزعيمه سعد زغلول، ومصطفى النحاس، من بعده، ولم يخل أكثرها من إسفاف، لا يعتذر له في ذلك إلا أن السياسة كلها هبطت إلى حضيض الإسفاف في ذلك العهد ومن نماذجها، قوله لسعد زغلول بعد خطبة ألقاها يصف فيها الإنجليز بأنهم "خصوم شرفاء معقولون".

بربر برابر بربره
أما كلامك مسخره
حيرتنا يا أقرع
دوختنا يا ابن المره

وعلى صفحات الكشكول أيضا.. ظهرت من الشعر الفكه ألوان صارخة الفكاهة والسخرية، للمرحوم حسين شفيق المصري، منها (المشعلقات) و(الشعر الحلمنتيشي) وغيرهما.

ولم يعرف العرب المسرح، فلم يعرفوا بالتالي الشعر المسرحي كما عرفه المصريون القدامى، ومن بعدهم اليونان والرومان والأوروبيون جملة، إلى أن ظهرت مسرحيات شوقي الرائعة، التي لم تخل بعض مواقفها من نماذج بارعة من الشعر الفكه، ولا سيما مسرحية (الست هدى) .. وكذلك بعض مشاهد مسرحية "مجنون ليلى" كمشهد المعركة الوهمية بين بشر ومنازل، وكلها جعجعة بلا طحن، يرسمها شوقي في صورة هازلة حافلة بالطرافة.

وبعد، فإن المقام لا يتسع للاستفاضة في إبراز سمات الشعر الفكاهي المعاصر وتحديد بواعثه وخصائصه، ومن الأوفى بالقصد أن نتحدث عن أبرز رواد هذا المجال من الشعراء المعاصرين.

أحمد شوقي

وقد ألمحنا إلى جانب الفكاهة في شعره المسرحي.

كما أن له نتاجًا كثيرًا في لون من الشعر الأسطوري الذي أجراه على ألسنة الحيوان والطير، في الجزء الرابع من (الشوقيات) لا يخلو من فكاهة.

أما شعره الغنائي، فقد كان جانب الفكاهة فيه قليل، ونخص بالذكر منه دعاياته للمرحوم الدكتور/ محجوب ثابت، فله فيه سخريات بديعة في وصف (مكسويني) حصان الدكتور محجوب وفي وصف سيارته (الأوفرلاند) الخربة، وفي وصف البراغيث التي طالما صور أمير الشعراء ذقن الدكتور محجوب ملعبًا لها كقوله:

براغيث محجوب لم أنسها	ولم أنس ما طعمت من دمي
تشق خراطيمها جوربي	وتنفذ في اللحم والأعظم

وكنت إذا الصيف راح احتجمت ... فجـاء الخريـف فلـم أحجـم
ترحـب بالـضيف فـوق الطريـق ... فبــاب العيـــادة فالـــسلم
قــد انتــشرت جوقــة جوقــة ... كـما رشــت الأرض بالسمـسم
وتـرقص رقـص المـواسي الحـداد ... عـلى الجلـد والعلـق الأسـحم
بــواكير تطلــع قبــل الــشتاء ... وترفـــع ألويـــة الموســـم
إذا مـا "ابـن سـينا" رمـى بلغـما ... رأيـــت البراغيـــث في الـــبلغم
وتبصرها حول، "بيبا" الرئيس ... وفي شـــاربيه وحـــول الفـــم
ويــــين حفـــائر أســـنانه ... مـع الـسوس في طلـب المطعـم

حسين شفيق المصري

وكان له شعر جاد جميل، ولكنه قليل .. ولعل اشتغاله بالصحف الهزلية، ولا سيما الكشكول، قد أرغمه على هجر الشعر الجاد والإكثار من الشعر الهازل طلبًا للقمة العيش.

وكانوا يسمونه "أبونواس الجديد" لأنه كان نواسيًا في حياته وخمرياته ومن أطرف الألوان التي ابتكرها في شعر الفكاهة... (المشعلقات) وهي معارضات للمعلقات المأثورة، يأتي بمطلع الواحدة منها، ثم يسلك نفس البحر والقافية، ساخرًا، مستخدمًا مزاجًا من اللغة الفصحى واللهجة المصرية، وله – فيما خاض من ألوان الشعر الفكه- مقطعات كثيرة مرحة، كقوله على لسان ليلى الأخيلية:

يـــــادي الأضاشـــــة والخيانـــــة
والندامـــــــــة والـــــــــصدامة
إني أصـــــــــبحت كوميديـــــــــه
مـــــن بعـــــد تمثيـــــل الدرامـــــه

وقوله على لسان العباس بن الأحنف:

ألـــم تـــر عينـــي كيـــف صـــار بياضـــها
حـــارًا كـــأن العـــين صـــارت طماطـــا
واني متـــى مـــا قيـــل إنـــك مـــش هنـــا
لطمـــــت إلى أن صـــــار وشي وارمـــــا
لـــو أنـــك فـــوق الـــسطح والـــسطح في الـــسما
وقلـــت لـــه اطلـــع لي، انـــط الـــسلالما

وقد درج أكثر شعراء الفكاهة الذين عاصروه على نهجه، واتخذوا منه أستاذًا لهم، وملئوا وجوه الصحف الهزلية الكثيرة التي كانت شائعة في العهد الماضي كالسيف والناس والمسامير والبعكوكة وغيرها، بألوان مقلدة من أدب حسين شفيق المصري، رحمة الله عليه.

بيـرم التونسـي

وبيرم مدرسة ضخمة في تاريخ الأدب الشعبي، وقد كان يفخر دائمًا بأنه زجال، على غير شأن ناظمي الأدب الشعبي اليوم، الذين يصرون على تسمية أنفسهم شعراء.. رغم أن نتاج بيرم لم يخل من شعر جاد، وإن كان قليلًا وقد مارس بيرم الشعر الفكه، وتميز في هذا المجال على غيره ممن مارسوه، بأن شعره الفكه كان هادفًا دائمًا .

وأبرع مثل لذلك، قصيدته في "المجلس البلدي" التي حمل فيها على بلدية الإسكندرية حملة شعواء لكثرة ما تفرض من الضرائب على الناس وتحاربهم في أرزاقهم، وقد كان أكثر أعضائها يومئذ من الأجانب.

يقول بيرم في هذه القصيدة الفذة:

لا تنكـــروا مـــا رأيـــتم مـــن ضـــني جـــسدي
ولا فـــــؤادي الـــــذي أمـــــسكته يـــــدي
بمحنتـــي لم يـــصب في النـــاس مـــن أحـــد
قـــد أوقـــع القلـــب في الأشـــجان والكمـــد
هـــوى حبيـــب يـــسمي المجلـــس البلـــدي

حفنــي ناصـف

كان رجلًا واسع الأفاق متعدد المسارب، وكان إلى جانب ذلك من أئمة ظرفاء عصره، وهو صاحب الأبيات المعقدة التي نسبها إلى الشيخ حمزه فتح الله وهو منها بريء.

وحكاية ذلك أن حفني ناصف و لشيخ حمزة وآخرين كانوا في رحلة نيلية على بواخر شركة كوك، وكان الشيخ لا يفتأ يشكو من سوء الخدمة في الباخرة، فنظم حفني هذه الأبيات على أنها من نظم الشيخ- الذي اشتهر بإقحام الألفاظ القاموسية المعقدة في حديثه اليومي- وبعث بها إلى اللورد كرومر:

يــــا أيهـــــا الفيــــصل المزجـــي زواجـــره
صـــوب الـــسفين وصـــوب الـــسوس سربلـــه
اشـــكوك كوكـــك كـــي ينفـــك عـــن جنـــف
قـــد كـــان كـــلا وكـــل مـــل كلكلـــه
أبـــاتني والجـــرشي حـــشوها ضـــجر
إن مـــس شـــقي خـــشب الفلـــك قلقلـــه

وله في مداعبة أصدقائه كثير من هذا اللون، منه هذان البيتان في مداعبة المرحوم الشيخ عبدالعزيز جاويش:

وقـــالوا احتـــسي هـــذا الـــشويش مدامـــة
ألـــم تـــره للبـــشر يبـــدي وللأنـــس
ومـــا ذاق طعـــم الخمـــر يومًـــا، وإنـــما
بـــه نـــشوة مـــن كثـــرة الأكـــل للعـــدس

عباس العقاد

وكان العقاد يبدو للناس عملاقًا جهمًا. ولكن واقعه لم يكن كذلك . ففي الحق أنه كان من أظرف الظرفاء إذا ظفر بقوم يأنس إليهم، ويرتاح إلى مجلسهم.

وكان – إذ هو مقرر للجنة الشعر بمجلس الفنون والآداب – يشيع في كل جلسة جوًا من المرح والإيناس بما يسوق من نكات القدامى والمحدثين وطرائفهم، وكان يفرح بالنكتة الجديدة فرحة طفل كبير .

ولعل كتابه (جحا الضاحك المضحك) من خير كتبه، يكشف عن روح العقاد المرحة إلى أبعد حد.

وله في مداعبة أصدقائه كثير من القصائد والأزجال أيضًا، يستأثر بنصيب الأسد منها صاحبه محمد طاهر الجبلاوي.

مرة.. كتب له طاهر من الفيوم يزعم أنه فقد حافظة نقوده، فبعث العقاد اليه بالرد يحمل شيكًا ومعه هذه الأبيات:

تتجنـــى عـــلى اللـــصوص مـــن الظلـــم
... فيـــــاليتهم تجنـــــوا عليكـــــا
إن يكـــن ضـــاع منـــك مـــا ضـــاع فـــاعلم
أن كفيـــــك غالتـــــا كفيكـــــا
بـــين كـــأس شـــهية وشراب
عبقـــري تجلـــو بـــه عينيكـــا
فتقبـــل شـــيكاتنا ثـــم حـــاذر
أن تـــزوغ الـــشيكات مـــن كفيكـــا
ثـــم هـــرول يـــا خيتعـــور مـــن الفيـــوم
... جريًـــا، ولـــو عـــلى قـــدميكا

وكان طاهر الجبلاوي يقتني كلبًا يؤنسه في وحدته، فدهمته سيارة، فقضى، فبعث العقاد إليه بهذه الأبيات يعزيه:

حزنًا على كلب طاهر
فإنه طاهر الكلاب
تشابها في خليقة
واتفقا شيمة الصحاب

وللعقاد قصيدة مشهورة عنوانها "حديقة حيوانات آدمية" يقول في مقدمتها:

"هذه الحديقة لا تجمع إلا الفنان أو المحب للفنون، سمي كل زميل من زملائها باسم حيوان يلاحظ في اختياره اتفاق الشبه في الملامح والعادات".

وقد شبه العقاد في هذه القصيدة كل صاحب من أصحابه بأحد الحيوانات، فهذا دب وذاك قرد وثالث جدي ورابع ضبع.. إلخ.

يقول العقاد في مطلع تلك القصيدة:

أورفيوس الفن سوى بينها
فتلاقي الدب فيها بالقرود
وتغني فرس البحر بها
يا له من فرس طلق النشيد

أحمد رامي

في دمشق شخصية ظريفة سمحة، يعرفها أكثر الأدباء والشعراء.. تلك هي شخصية "أبي سهيل" المدير الليلي لفندق سميراميس الذي ينزل فيه أكثر أصحاب الأقلام.

ومن عادة أبي سهيل، إنه إذا هبط عليه – إذ هو نائم بالليل – أحد يطلب غرفة، قال له دون أن يفتح عينيه، إن الفندق كله محجوز لشركة كوك.

وتكررت هذه الحكاية مع كامل الشناوي فكتب له هذين البيتين:

أو كلـما جئنـا لنطلـب غرفـة أرجفـت كـوك
أأبـا سـهيل، أنـت في الآبـاء ملعـون أبـوك..

ولم يغضب أبوسهيل، لأنه يحب الشعر ويقدر الفكاهة ويعلم أن (القافية تعذر)

وحينما نزلنا – رامي وأنا – في هذا الفندق منذ بضع سنوات، تعودنا أن نسهر خارج الفندق، ثم نعود في آخر الليل فلا نجد عشاء، فنسأل أبا سهيل أن يعوضنا عن العشاء ببعض الفاكهة، فكان يعد ويخلف، ولا يعد إلا ليخلف، فنظمنا فيه معًا هذه الأبيات:

أمـن حـق الوفـاء أبـا سـهيل
نقـضي الليـل في أعقـاب ليـل
ونحـن عـلى الطـوى مـن غـير قـوت
ولـو بـسطرمة أو لحـم خيـل؟

ومن ألطف ما نظم رامي من الشعر الفكه، قصيدته في صديقه الشاعر اللبناني الكبير أمين نخلة، حين دعاه إلى أكلة ضفادع قال رامي:

دعـاني إلى أكلـة ممتعـه
وقـال سـيطعمني ضـفدعه
وكيـف تكـون الـضفادع قوتًـا
وبيتهـا الليـل مـن منقعـه؟
لهـا مـشية مثـل زحـف القعيـد
إذا دب يـسعى عـلى أربعـه
وجلـد كجلـد الحـذاء القـديم
تهـرأ وصـاحبه رقعـه

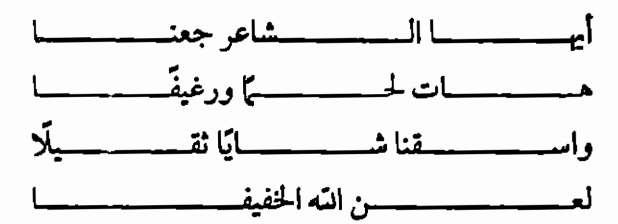
ثم راح يصف صاحبه وهو يأكلها :

وراح بعنـــف يقـــضقض منهـــا
عظامًـــا لهـــا بينـــا قرقعـــه
فخيـــل لي أن أمـــد ذراعـــي
وطـــاب لكفـــي أن تـــصفعه
فـــلا كـــان ذاك الغـــذاء الكريـــه
ولا كـــان يومـــك يـــا ضـــفدعه

محمود غنيم

ومحمود غنيم هو أكبر الهجائين في هذا العصر، وينصب هجاءه دائمًا على رؤوس أصدقائه الشعراء.

ومن لطيف تورياته في مداعبة صديقه الشاعر الراحل محمود الخفيف:


أيهـــا الـــشاعر جعنـــا
هـــات لحـــمًا ورغيفًـــا
واســـقنا شـــايًا ثقـــيلًا
لعـــن الله الخفيفـــا

******

لا أحسب أنني استطعت في هذه الصفحات المحدودة أنني أوفيت حق الكثيرين ممن مارسوا هذا اللون من الشعر، ولكنها صورة عجلى، تؤكد أن النفس الإنسانية لا تزال تتنفس في مجال الشعر ببسمات حلوة، وإن تكن أكثر حصيلتنا من هذه البسمات ضائعة في غمار الحياة أو في غمار الحياء.

بين محنتين

مر صالح جودت سنة ١٩٣٩ في شبابه بمحنة صحية خطيرة إذ أصيب صدره بمرض عضال وهو لم يتجاوز العقد الثالث من عمره، ودخل المستشفى للعلاج واستلهم من وحي هذه التجربة المريرة وهو على فراش المرض قصيدة مؤثرة سماها "نحو الآخرة" وتأثر الأصدقاء والمحبين فكتب الأديب الكبير الدكتور زكي مبارك مقالاً بمجلة الرسالة تحت عنوان "شاعر ينبغ فوق سرير المرض" قال فيه:

"مضت سبعة أعوام والأستاذ صالح جودت يحقد عليّ أبشع الحقد لسكوتي عن التنويه بمواهبه الشعرية، وما هدأ نار الحقد في صدره إلا عرفانه بأني لا أخصه بذلك السكوت وإنما هو مبدأ ارتضيته ودرجت عليه. وذلك المبدأ هو الضن المطلق بتشجيع الناشئين، لأني أعتقد أن كل شيء يجوز فيه التشجيع إلا الأدب والبيان، فالتشجيع هنا مفسدة ولا يقع إلا من "الجماعة" الذين يحتاجون إلى أسندة من الهتاف والتصفيق، والتحدث عنهم بحق وبغير حق في الأندية والقهوات والجرائد والمجلات.

" وهذا المبدأ هو الذي فرض على جمهور من هذا الجيل أن ينفضوا من حولي، فما يهمهم أن يذكروني بالجميل في مجلة أو جريدة ، لأنهم لا يذكرون أني طوقت أعناقهم بشيء من التشجيع، وأنا غير آسف على ما فاتني من ذلك الحظ.

"ولو أنني استبحت التفريط في الحرص على هذا المبدأ مرة واحدة لاستبحته في معاملة الأستاذ صالح جودت ، وهو صديق لا أذكر أنه قصر في حفظ العهد إلا باتهامي بالسكوت عن التنويه بمواهبه الشعرية، وهو اتهام مردود، لأني لا أذكر أن أشعاره نقلت قلبي من مكان إلى مكان حتى أجشم نفسي مشقة الدرس لشعره البليغ.

"كان صالح جودت يتقاضاني الكلام عن شعره في كل لقاء، وكنت أجيب بأن ذلك

الرسالة : ٢٣ سبتمبر ١٩٤٠.

سيكون يوم يظفر بدرجة من درجات الجامعة المصرية، لأني أخشى إن شجعته أن ينصرف عن الدرس وينقطع لقرض الشعر ومراسلة الجرائد والمجلات، فلما سمع صالح جودت نصيحتي وظهر بالدرجة المنشودة جاء يذكرني بما كنت وعدت، فهل وفيت بما وعدت؟

"حملني الزهد في اجتلاب المودات على وصل السكوت بالسكوت، كما كنت صنعت في معاملة صاحب "الجندول". ثم شاءت الأيام أن أسمع أن صالحاً وقذه المرض فلم يعد بهجة الأندية الأدبية، ولم يبق رجاء في التحدث إليه إلا بعد استئذان الطبيب.

"فإن كنتم سمعتم أن الشعراء وصفوا الدنيا بالخيانة والغدر والعقوق فاعرفوا أن ذلك الوصف لم يحق على الدنيا إلا لبغيها الأثيم على مثل هذا الشاعر، وله قلب أطيب وأطهر من قطرات الندى فوق أزهار الربيع.

"ومرت ثوان ودقائق وساعات وأيام وليال وأسابيع وأشهر ولم يخرج صالح من سجن المرض، فما أطول شقائي بمحنتك القاسية، أيها الصديق.

"وعلى حين غفلة أسمع أن الفتى الذي لم يرضني شعره قد نبغ فجأة فوق سرير المرض، فهو الذي يقول في تصوير ما بقى من أوتار هواه في دنياه:

فليرحم الله آمالي وأهوائي ... إني قنعت بهذا المخدع النائي
بقية العمر أيام تدب على ... صدر تهدم إلا بعض أشلاء
أعيشها ناسكا في ركن صومعة ... قامت على صخرة كالموت صماء
يبدو خيال الأماني لي فأطرده ... حتى كأن الأماني بعض أعدائي

ثم يصف عزلة المستشفى وأحوال ساكنيه فيقول:

أواه من عزلة كالسجن مغلقة ... على جراح وآلام وأرزاء
ما هذه الجثث الملقاة في سرر ... أنصاف موتى على أنصاف أحياء
صفر الوجوه كأن السقم عفرهم ... بحفنة من تراب القبر صفراء
للآه فيهم تراتيل منغمة ... تنساب من قصبات نصف خرساء

وما لهم من نهار فيه مرحمة ولا لهم ليلة ليست بلـيلاء

ثم يلتفت إلى الممرضة الحسناء – ومن تقاليد المستشفيات أن تكون الممرضات صباح الوجوه إلى حد الفتون ليغرسن بذور الأمل والحياة في صدور المكروبين- يلتفت إلى الممرضة فيقول:

يا ممرضتي الحسناء قدر لي أن ألتقيك بأرض غير حسناء
ماذا أتى بي هنا؟ ما خطب عافيتي؟ وكيف غال شبابي غائل الداء
قد كان لي موعد في الصيف مرتقب على الشواطئ بين "الرمل" والماء
فما لذا الصيف يمضي بي على جبل جهنمي اللظى في جوف صحراء
وأنت.. هل عطف المبقى على رمقي عطف المحبين أم عطف الأطباء
إن كان ذاك فيا سعدي ويا فرحي أو كان هذا فإني في الأذلاء
الحب يشهد أني يا ممرضتي ما صدني عنك إلا فرط إعيائي

أما بعد فهذه الشاعرية ليست صحوة الموت. يا صالح، وإنما هي الفجر الصادق، وسترجع إلينا بعد أيام وأنت في غاية من عافية البدن والروح.

****

لكن صالح جودت مر بمحنة أشد قسوة في نهاية حياته، فمنذ سنة ١٩٧٤ بدأ المرض يثقل على صالح جودت الشاعر الطروب المحب للحياة، وكان غالباً يضيق بأوامر الأطباء وتعليماتهم، وسافر إلى مستشفيات لندن في أواخر عام ١٩٧٥، وظل يعاني المرض العضال الذي هد قواه وأرهقه.

ومن أكثر المآسي في حياته أنه عرف أن نهايته قريبة في مطالع عام ١٩٧٦ حيث أطلعه الأطباء على حقيقة مرضه وهو في لندن، فآثر أن يكون موته على الأرض التي أحبها وعشقها: أرض مصر الخالدة . وما لبث أن فارق الحياة في ٢٣ يونيو ١٩٧٦م عن عمر يناهز الثامنة والستين وترك زوجته السيدة "سها عبد الحميد الصحن" تبكيه آخر البكاء لحلو صفاته وطيب شمائله.



القسم الرابع
كتاب الخيانة

في عام ١٩٧٠ فرغ الكاتب والشاعر الكبير صالح جودت من إنجاز كتاب عجيب الشأن له صلة بتاريخ مصر السياسي أسماه "كتاب الخيانة" سرد فيه سيرة، بعض من خانوا مصر وكتب هذه المقدمة لهذا الكتاب الذي لم يقدر له أن ينشر "**لماذا أكتب هذا الكتاب؟**

«في تاريخنا المصري – كما في تاريخ كل أمة– صفحات حافلة بأسماء العظماء والأبطال والأبرار والشهداء، الذين لا يفتأ المؤرخون يمجدون ذكراهم، ويشيدون بتضحياتهم، وتظل أمجادهم على مدى الدهر موضعًا للتكريم، وهديًا لكل جيل قادم ولكن من طبائع النفوس البشرية أن تتراوح بين الخير والشر، ولهذا كان من المستحيل أن يخلو أي جيل من الأجيال في أية أمة من الأمم من نفوس صغيرة تعرض عن الخير، وتجنح إلى الشر، وتقع تحت إغراء الجاه أو المال أو السلطان، فتعمى عن سواء السبيل، وتبيع بعرض الدنيا ثواب الآخرة.

ولهذا، فإن الله سبحانه وتعالى، حينما بعث برسوله الكريم لهداية البشر، قال إنه إنما يرسله بشيرًا ونذيرًا للناس.. أي بشيرًا لأهل الخير، ونذيرًا لأهل الشر، لأن الله يعلم –وهو سبحانه خير من يعلم– أن الناس محتاجون في كل عصر إلى البشير والنذير معًا .
ولهذا، فإن المؤرخين يقصرون عن أداء الرسالة حينما يكرسون الصفحات الطوال لتمجيد الأبطال، بينما يمرون بذكر الخونة مر الكرام، فتتناساهم الأذهان، ولا يعلقون بذواكر الأجيال التالية، لتعتبر بسوء فعلهم، وتتدبر جنايتهم على أوطانهم، وتلعنهم كل صباح ومساء، وتحذر ضعفاء النفوس من أن ينتهوا إلى مصير كذلك المصير.

ولقد حدثني صديق ممن ذهبوا مؤخرًا إلى الصين أنه رأي هناك تمثالًا للخائن المجهول، على غرار الجندي المجهول– والقياس مع الفارق– منصوبًا في أحد الميادين العامة، ورأى المواطنين هناك لا يفوت أحدهم أن يبصق عليه كلما مر به والفكرة عظيمة ولا شك.

ولو علم كل خائن أن أمته ستقيم له بعد وفاته تمثالًا يبصق الناس عليه في كل جيل، لارعوى، وارتد إلى حظيرة الوطن، وتاب إلى الله.

ولو علم كل امرئ أن هذا هو مصير الخائن، وهذا هو نصيبه في الأجيال القادمة، لما حدثت أحد نفسه بالخيانة، تحت أي إغراء وحينما حدثت صديقي الوطني الكبير الأستاذ فتحي رضوان المحامي بحديث تمثال الخائن المجهول في الصين، نبهني إلى ملاحظة ذكية، هي أن فكرة رجم الشيطان بالجمرات في موسم الحجيج، هي ليست مجرد تقليد قائم على كراهية وجود الشيطان في هذا المكان من الأرض المقدسة، ولكنها نابعة من الدعوة إلى استنزال اللعنات على الشيطان، بوصف كونه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، فيحملهم على الخيانة .. خيانة الله ورسله وكتبه ووصاياه.

فكأن الله يدعونا إلى رجم الخونة في كل زمان، وأن نذكر بهم الناس في كل أوان لعلهم يتعظون، ولعلهم يهتدون، إذا ذكروا أن التاريخ لا ينسى، وأنه يمهل ولا يهمل، وأن سيرة الخائن تبقى رواية على ألسنة الناس إلى يوم الدين لهذا كتبت هذا الكتاب ليكون نذيرًا للناس.. ليقرأ كل مواطن هذه السير على نفسه وأخوته وأولاده ومواطنيه، ويجتمع معهم على استنزال لعنة الله عليهم مع طلوع كل فجر، ومع غروب كل شمس، وتاريخ الخيانة قديم على الأرض والخونة في تاريخنا – كما في تاريخ كل أمة – موجودون في كل عصر، ولكنني آثرت– في هذا الكتاب على الأقل – أن أحصر نطاق البحث في الفترة الواقعة بين ثورة السيد عمر مكرم وثورة ١٩١٩ لأنها فترة متصلة الأحداث، ولا يزال الكثير من أحداثها ماثلًا في وجدانات المواطنين في عصرنا هذا، ولا يزال أبطالها أحياء في ذواكر الناس، وإن كان الخونة الذين عاشوا خلال هذه الفترة يكادون يتوارون تحت تراب الإهمال، وتنزل على اسمائهم ستائر النسيان.

وأصعب ما واجهته في هذا البحث، هو تحديد دائرة الخيانة، وتعيين الأسماء التي تستحق أن تلصق بها تهمة الخيانة .

ذلك لأن الكلمة كبيرة، بحيث لا يغفر الله للمؤرخ إذا هو ألصقها بإنسان ما، ليلوث سمعته على طول الزمان دون أن يكون ذلك الإنسان أهلًا لهذه الوصمة ثم أن هناك اعتبارات أخرى في تقدير مدى الخيانة منها مرونة الحد الفاصل بين الخيانة الواضحة وبين الإيمان لفكرة معينة قد لا تصادف هوى في نفوس أغلبية الشعب هذا إلى اعتبارات

أخرى ترجع إلى شخصية المتهم بالخيانة وعقيدته وجنسيته.

ومصداقًا لذلك، أطرح الأضواء الآتية...

رجل كمحمد علي، مؤسس الأسرة العلوية هل أستطيع أن أفسح له مكانًا في كتاب الخيانة ؟

صحيح أنه خان الأمانة التي استودعها إياه السيد عمر مكرم باسم الشعب المصري، فطغى واستكبر وبغي واستكبر ولكن ... من هو محمد علي؟ إنه رجل تركي أصلًا وهو مبعوث الباب العالي، ليحكم مصر باسم السلطان. فهو إذن ليس مصريًا، وشأنه في ذلك شأن أي أجنبي يتولي الحكم في بلد غير بلده. فإن هو فعل ما فعل فلا سبيل إلى نسبة الخيانة إليه، لأنه يخون وطنًا غير وطنه، والخيانة بمعناها السياسي، لا تطلق إلا على من يخون وطنه.

يضاف إلى هذا، أن الشعب المصري هو الذي ولاه أريكة الحكم، وأعانه على التمرد على الباب العالي فهل معنى هذا أن محمد على خائن، لأنه خائن وطنه الأصلي، وتمرد على سلطانه ونحن الذين حرضناه على هذا، وهللنا له؟ هل معنى هذا أننا صفقنا لخائن؟ وهل الخائن هو الأجنبي الذي ينضم إلى صفنا، ويقف في وجه وطنه؟

ورجل كمحمد شريف باشا .. هل أستطيع أن أنسب إليه الخيانة، لأنه ضن على الشعب المصري بالدستور المثالي الذي ارتضاه في أول الأمر ثم عاد فقدم له دستورًا مقصوص الأجنحة، بحجة أن الشعب المصري لم ينضج بعد وأن هؤلاء الفلاحين على حد قوله لا يستحقون كل هذه الحرية، فهم لا يزالون بحاجة إلى تربية وتوجيه وإرشاد.

ورجل كأحمد لطفي السيد، منشئ حزب الأمة المناهض لأماني الأمة كما حددها أبطال الحزب الوطني، والمهادن للإنجليز المحتلين، وصاحب "الجريدة" لسان حال ذلك الحزب... هل أستطيع أن أصمه بالخيانة، فأنكر بذلك أنه كان صاحب مدرسة سياسية معينة، ترى أن المهادنة قد تكون سبيلًا إلى حل القضية، وأنكر بذلك أيضًا جهاد الرجل ودعواته الكبيرة إلى الديمقراطية والحرية الاجتماعية والفكرية مما جعله إلى آخر يوم في حياته موضعًا لتكريم رجال الثورة المعاصرة؟

ورجال كعدلي يكن وعبد الخالق ثروت ومحمد محمود وإسماعيل صدقي .. هل أستطيع أن أدرجهم في كتاب الخيانة، لمجرد أنهم كانوا خصومًا للوفد، الذي كان يمثل سواد الشعب – وأن بنصهم رأي أن الدستور الذي قام على الحكم البرلماني في مصر سنة ١٩٢٣ كان ثوبًا فضفاضًا ؟ أو ليس هذا هو الدستور الذي هدمته الثورة المعاصرة، لأنه كان يمثل روح الإقطاع؟

ورجل كسعد زغلول، هل أستطيع أن أضمن كتاب الخيانة اسمه، لأن تزوج بنت عميل الاحتلال، مصطفى فهمي، لكي يصبح وزيرًا في وزارته، ولأنه – كما يؤكد الأستاذ عبد الرحمن الرافعي – دخل الوزارة بناء عى رغبة اللورد كرومر ولأنه كان ضمن أعضاء وزارة بطرس غالي التي أرادت مد امتياز قناة السويس لصالح الشركة الأجنبية، ودافع عن هذا المشروع بنفسه أمام الجمعية التشريعية ولأنه هو الذي كتب المذكرة التفسيرية لتعديل قانون العقوبات – إذ هو وزير للحقانية في وزارة العميل محمد سعيد – ليشمل المتهمين الوطنيين في الاتفاقات الجنائية بقضايا الاغتيال السياسي، ولو لم يتوافر ركن المشاركة في ارتكاب الجريمة، وأخيرًا لأنه كان أول من ذهب لاستقبال أول معتمد بريطاني عقب إعلان الحماية على مصر، في محطة مصر، وقال إنه يتوسم فيه الخير؟

هل أستطيع أن أضعه في قائمة الخونة، فأنسى بذلك أنه ثاب إلى رشده فيما بعد، وأسدل الستارة على ذلك الماضي، وشرع أسلحة الجهاد في وجه الاستعمار، واحتمل مرارة السجن والمنفي في مالطة وسيشل، وظل يحمل راية النضال من أجل الحرية والدستور إلى آخر يوم في حياته ... ورجل كمصطفي النحاس، هل نجد له مكانًا في كتاب الخيانة، وننسى كل جهاده ومواقفه وتضحياته، رأنه جاء إلى الحكم يوم ٤ فبراير على أسنة رماح الإنجليز ... ثم كان أول ما فعله بعد ذلك، أن أذل نفسه وحزبه وشعبه، وطلب تقبيل يد الملك فاروق، وهو الزعيم الذي يمثل سواد الأمة؟

كل هؤلاء وغيرهم ممن كبرت أسماؤهم في تاريخ هذا البلد خلال هذه الحقبة، لا أستطيع أن أصفهم بالخيانة، ولا أدرج سيئاتهم إلا في حساب الأخطاء والكبوات.

أما الخونة، الذين أحدثكم عنهم في هذا الكتاب، فهم الذين لم يرحموا أسماءهم من

أن تدرج في سجل الخيانة، فدخلوا التاريخ ملطخين بالعار، دون أن يظفروا – على امتداد التاريخ – بمن يستطيع أن ينبري للدفاع عنهم، أو يلتمس لهم الأعذار.

*****

وإذا كنت قد أعفيت رجلًا كمحمد على من أن يذكر في هذا الكتاب، لأنه كان غريبًا على مصر، قادمًا إليها لأول مرة، فإنني لا أستطيع أن أعفى غيره ممن جاء آباؤهم من الخارج، من بلاد الترك والجركس والأرمن والأرناؤود، واستقروا في هذا البلد عدة أجيال، وشربوا من ماء النيل، ونعموا بالجاه والثراء والرتب والمناصب تحت سماء مصر، فصار حقا لهم أن يكونوا مصريين، وصار حقًا عليهم أن ينصروا مصر، ولكنهم كفروا بنعمة مصر وخانوا أمانتها، فحقت عليهم اللعنة، واتسع لهم كتاب الخيانة ومن هؤلاء الخديو توفيق وعثمان رفقي ونوبار وأمثالهم من عمد الخيانة.

وستقرءون هذا الكتاب يا إخوتي في الوطن، وستجدون فيما تقرءون من أحداث الخيانة، أسماء أسر متواضعة الأصول، انحرفت إلى الخيانة، فلان لها الدهر، واجتمع لها الثراء وأصبح بعض هذه الأسر في غفلة من الزمان يؤلفون أصحاب الطبقة التي عرفت في الجيل الماضي بأولاد الذوات وأبناء البيوتات، وأصحاب الحسب والنسب، إلى أن جاءت ثورة سنة ١٩٥٢، فردت الأمور إلى نصابها، وأعادت توزيع الثروات على الشعب، وانتزعت من يد تلك الفئة أكثر ما جمعت من المال الحرام عن طريق الخيانة والغدر والانحراف والعبث بمقادير هذا الوطن المسكين.

رجعت في إعداد هذا الكتاب إلى كثير من المراجع ولكن المرجع الذي بقى في المقدمة، والذي جعلته نصب عيني دائمًا، هو المؤرخ الصادق الأمين، المغفور له الأستاذ عبد الرحمن الرافعي، بشخصه، وبمؤلفاته العظيمة التي سجل بها تاريخ مصر في العصر الحديث.

وعبد الرحمن الرافعي، هو المؤرخ المصري الوحيد الذي كتب التاريخ المصري في العهد الملكي بأمانة وجسارة، فتحدث عن جشع محمد على وأنانيته، وسوء موقفه من السيد النقيب عمر مكرم، وتحدث عن حماقات إسماعيل، وامتصاصه لدم الشعب،

وإهداره لمستقبله، في سبيل لذاته، وتحدث عن خنوع توفيق وذله وضعفه وخيانته، وتحدث عن تعالى فؤاد على المصريين، وهاجمه في وصفه لهم بأنهم رعايا له، وما هم إلا مواطنون، وانتقد أن يكون الدستور منحة منه للشعب، لاحقًا راسخًا من حقوقه الشرعية واستنكر أن يذيل رؤساء الوزارات خطاباتهم له بكلمات "العبد الخاضع والخادم الأمين"

كل هذا سجله عبد الرحمن الرافعي بكل شجاعة، في ذروة طاغوت الملكية وعنفوان الاستعمار... وفي الوقت الذي كان غيره من كتاب التاريخ يتمسحون بعتبات العرش، ويؤلهون محمد علي، ويدافعون عن أخطاء إسماعيل، ويسمونه "إسماعيل العظيم" ... ويحيطون فؤاد بآيات القداسة.

ولقد اتخذت من الأستاذ الرافعي في حياته صديقًا وأبا وأستاذًا ومرشدًا، وكنت أختلف إليه في كثير من الأحيان، وأستمع إلى آرائه الجريئة في الرجالات الذين توالوا على هذا البلد، وهي آراء يتباين الكثير منها مع رأي أكثر الناس في هؤلاء الرجال.

من ذلك مثلا، أن الرافعي كان يسيء الظن بأحمد عرابي، وبأحمد لطفي السيد، وبسعد زغلول، إساءة تصل إلى حد الاتهام بالخيانة في بعض الأحيان.

ومنها أنه كان يميل دائمًا إلى الدفاع عن شريف باشا، رغم الكثير من السقطات المحسوبة عليه، لأنه كان يرى فيه أبا للحياة الدستورية في مصر، ومحاميًا عنها في أكثر عهود الظلام.

وقد بدأت صلتي بالأستاذ الرافعي في وقت مبكر، إذ كان في المبدأ صديقًا لأبي وعمي، وكان – في أيامه وأيامنا بالمنصورة – يشير إلى أبي، ويهمس لي وأنا لا أزال طالبًا صغيرًا.

- لا تنس أن أباك هذا، ولد في المنفى ويقص على القصة.

فقط كان جدي، إسماعيل جودت، من رجال الثورة العرابية [1]، وكانت تهمته في المحاكمات العرابية أنه كان يشارك في اجتماعاتهم بالقاهرة، وأنه دفع رجاله – وكان يملك بضعة آلاف من الأفدنة في مديرية البحيرة – إلى الاشتراك في معركة كفر الدوار، التي منى فيها الإنجليز بهزيمة نكراء.

(1) كتاب "الثورة العرابية" لعبد الرحمن الرافعي – الطبعة الثانية – صفحة ٤٧٤.

وصدر الحكم عليه بالنفي خارج مصر ثلاث سنوات، ومصادرة جميع أملاكه، حتى البيت الذي يؤويه.

وذهب إلى الآستانة، حيث ولد أبي، في ذلك المنفى، وحرمته قسوة القدر أن تتفتح عيناه على نور الوطن.

*****

وفي الحق أنه كان للأستاذ الرافعي على فضل كبير، فهو الذي أوغر صدري على الخيانة والخونة، وحرضني على أن أذكرهم للناس دائمًا في كل مجلس وفي كل مقال، وقد اختمرت الفكرة في ذهني سنوات طويلة، إلى أن قدر لها أن تخرج إلى النور في هذا الكتاب.

وكان الأستاذ الرافعي رقيقًا، متواضعًا، يسير بين الناس على استحياء، فلا يعرفه أحد، ولو أنصفوا لهتفوا له في كل مكان.

وقد عاش فقيرًا ومات فقيرًا، لم يطلب من الدنيا شيئًا، ولم يبتغ إلا وجه الله والوطن.

وقد هالني، بعد أن أنشأت الثورة جوائز الدولة، ألا أجد أحدًا يذكر عبد الرحمن الرافعي بين المرشحين لجائزة الدولة التقديرية للعلوم الاجتماعية، فشحذت قلمي، وكتبت أكثر من مقال في "المصور" أدعو القوم إلى هذا الواجب الذي يعد أقل تكريم لشيخ المؤرخين.

ثم جعلت أطوف بمن أتوسم فيهم الخير من أعضاء المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، وأحرضهم على ترشيح الرافعي وكنت يومئذ عضوا في لجنة الشعر بالمجلس، وفاتحت مقررها، المغفور له الأستاذ عباس محمود العقاد في الأمر، فتهلل له، وكتبنا وثيقة الترشيح، وكانت لجنة الشعر في طليعة اللجان التي زكت الأستاذ الرافعي للجائزة، فنالها والحمد لله، وظهرت النتيجة فى الصحف، فى الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم وجدت الأستاذ الرافعى في بيتي، ومعه صهره الدكتور حلمي شاهين المحامي وفاجأني وأنا أوزع أكواب "الشربات" ابتهاجًا بفوزه بالجائزة، فعانقني، ودمعت عيناه، وقال:

- الحق أنك دفعت الجائزة اليّ دفعا. وما كنت طامعا فيها، ولكني أحس اليوم، بعد أن نلتها، أن الدنيا بخير، وأن هناك من يقدرون العمل الصالح.

*****

لقد فقدت مصر استقلالها، في تاريخها الطويل، أكثر من مرة.

ولو راجعنا حوادث التاريخ، لوجدنا أن مصر لم تفقد استقلالها في كل مرة بسبب خضوع أهلها، أو نكوصهم عن نصرتها، بل إن المقاومة والمقاومة الشعبية البطولية بالذات، كانت من أخص خصائص المصريين على طول التاريخ.

ولكن الخيانة، التي وجدت في كل زمان ومكان في حياة البشرية، وأوذى بها الرسل والأنبياء، والصديقون والأبرار، كانت هي السبب في ضياع الاستقلال في كل مرة.

ولا تعوزنا الأمثلة على تأكيد هذه الحقيقة، ولعل أقرب الأمثلة إلى الفترة التي أؤرخ لها – فترة ما بين ثورة السيد عمر مكرم وثورة سنة ١٩١٩ – هي مأساة السلطان طومان باي، الذي قاوم مطامع الغزاة الأتراك في أرض مصر زمانًا طويلاً إلى أن أوشك أن يغلب على أمره، فرأى أن ينسحب من الجيزة إلى بعض أقاليم البحيرة، لعله يستطيع من هناك أن يعد العدة للمقاومة من جديد.

وفي بلدة "البوطة" القريبة من "حوش عيسى" بمديرية البحيرة، نزل عند شيخ من مشايخ العربان هناك اسمه حسن مرعي.

وكان لطومان باي فضل على هذا الشيخ الذي كان سجينا في عهد السلطان الغوري (سلف طومان باي) فأطلق طومان باي سراحه، وحرر وثاقه، وأكرمه إكرامًا عظيمًا.

ويقول المؤرخ ابن إياس، الذي عاصر هذه الفترة إن حسن مرعي وأخاه شكر مرعي، هما اللذان استضافا السلطان بإلحاح في البوطة "ردا لجميله، وجاءا بمصحف فأقسما عليه سبع مرات أن يؤمناه على حياته ويحمياه من كل سوء، ثم ما لبثا أن أرسلا إلى السلطان سليم في الخفاء، بمن يخبره بأن طومان باي أسير عندهما، فأرسل إليه رجاله،

فجاءوا به ليمثل بين يديه.

ولم ترتدع فرائص السلطان الشجاع طومان باي أمام الغازي التركي، الذي بادره بالسؤال:

- لماذا لم تعترف بسلطاني وتدخل في طاعتي عندما دعوتك إلى ذلك؟

فأجاب طومان باي بكل عزة:

* لأنني ملزم بالدفاع عن بلدي الذي أولاني الحكم، وفي عنقي أن أصونه وأحميه كما أحمي المدينتين المكرمتين مكة والمدينة، أما أنت، فلست أدري كيف تبريء نفسك أمام الله في عدوانك الظالم على بلادنا؟ على أنك، يا سلطان الروم، غير ملوم على سقوط مملكتنا، بل الذنب كله ذنب الخونة ..

وهنا أشار طومان باي إلى الخائنين "خير بك" و "جان بردي الغزالي " اللذين تواطآ مع السلطان سليم فمهدا له السبيل إلى غزو مصر.

وانتهت المأساة بشنق السلطان طومان باي على باب زويلة، وبكاه الشعب مر البكاء.

أما الأعرابي الخائن، حسن مرعي، فإن الشعب لم يتركه ينعم بما أنعم به عليه السلطان سليم، بل كان مصيره أن وقع في يد المماليك الجراكسة، الذين ذبحوه وشربوا من دمه، وقتلوا أخاه شكر مرعي كذلك، واحتفلت القاهرة بقتله احتفالا كبيرًا نصبت فيه معالم الزينات، وترددت الزغاريد.

*****

لهذا كتبت هذا الكتاب ...

لأن أبناء هذا الشعب لم يقعدوا يومًا عن نصرته والدفاع عن حريته، ولكنهم فقدوا حريتهم في كل مرة، بتدبير من طابور الخونة الجبناء.

وإذا كنت قد وقفت عند ثورة سنة ١٩١٩، فإن صفحات كتاب الخيانة لا تزال مفتوحة لتستوعب مزيدًا من الخونة بعد ذلك، ومنهم من ظهروا في نهاية الفترة التي

أرخت لها، واستكملوا تاريخهم في الخيانة فيما بعد، كتوفيق نسيم وأحمد زيور ويحي إبراهيم، ومنهم من فجرهم الرجس بعد ذلك، فارتضوا لأنفسهم أن يكونوا "شهود ملك" يشون بالأحرار ويوقعون بالثوار في حوادث الاغتيالات السياسية التي تعاقبت بعد الثورة، لقاء المكافآت التي بذلها لهم الإنجليز بسخاء، وهي من خزانة مصر، ومن دماء هؤلاء الذين أوقع بهم الخونة وزجوا بهم إلى أعواد المشانق وأعماق السجون ودماء إخوانهم في الوطن.

فإذا مد الله لي في العمر، فإني أعاهد الله والوطن والتاريخ على تعقب هؤلاء الخونة، وأروى سيرتهم في طبعة موسعة قادمة من "كتاب الخيانة" تضم الآثمين في حق الوطن منذ بداية الفترة التي أرخت لها هذه المرة، وهي ثورة السيد عمر مكرم، إلى ثورة سنة ١٩٥٢.

***

كان مقدراً أن ينشر "كتاب الخيانة" في شهر يوليو ١٩٧٦ في سلسلة كتاب الهلال وتم الإعلان عن صدوره لكن عاجلت المنية صالح جودت في ٢٣ يونيو ١٩٧٦ فلم يصدر الكتاب وضاع فيما ضاع من أوراق صالح جودت المخطوطة ، وبعدها أسدلت ستارة كثيفة من التجاهل والنسيان لصالح جودت وشعره وأدبه بفعل خصومه والمناوئين لاتجاهاته وأفكاره ومواقفه.



القسم الخامس

حكايات الحب والفن

في عام ١٩٦٥ بدأ الشاعر الكبير صالح جودت في نشر سلسلة من المقالات في مجلة الكواكب تتضمن بعض ذكرياته تحت عنوان الحب والفن يتناول فيها بعض قصص الحب التي مرت ببعض الأدباء الذين مروا بتجارب حب مع الفنانات في مصر في النصف الأول من القرن العشرين.

وحتى لا تضيع هذه الصفحات الثرية من ذاكرة تاريخ الأدب والفن أردت أن أحفظها من الضياع لأذكر الناس كيف كان وجه الحياة المصرية في تلك الحقبة المهمة من تاريخ مصر، وكيف كانت المشاعر والعواطف والأحاسيس، إنها صفحات حية من سيرة شعراء وأدباء وفنانين أحبوا فصدقوا ، تناول فيها حكايات الحب في حياة شاعر الأطلال ناجي ، والشاعر أحمد رامي ، وغيرهما من نجوم ونجمات عالم الأدب والسياسية والفن والذي شاء ألا يذكر الأسماء صريحة بل ترك ذلك للقارئ المتابع لسيرة هؤلاء أن يتعرف على شخصياتهم، وميزة هذه الحلقات أنها كانت بقلم شاعر وأديب وكاتب صحفي اقترب من الحياة الفنية والأدبية والاجتماعية في مصر لأكثر من ثلاثة عقود من الزمان، فخبرها وعرف الكثير من أسرارها وخفاياها.

الهاربة

في سنة ١٩٥٤ .. كان أمير القصة الراحل، سومرست موم، هنا في القاهرة، يقضى أياما من الشتاء تحت شمس مينا هاوس الدافئة.

وسعيت إليه، وتعرفت إليه، وجلست معه أكثر من جلسة، وتحدثنا طويلًا في كل شيء.

وكان من أبرز ما يأخذني في الرجل، كثرة إنتاجه.

وسألته في ذلك فقال لي إنه يكتب بمنتهى السرعة، وبمنتهى السهولة، ولا تعوزه المادة القصصية أبدًا....وضرب لى مثلًا قد يبدو غريبًا لأول وهلة.

قال لي : ما عدد سكان مصر؟

قلت له: إنهم أربعة وعشرون مليونا ... "كانوا نحو ذلك سنة ١٩٥٤ ".

قال : إذن عندكم ٢٤ مليون قصة، كل منها تختلف عن الأخرى .... وكل منها تصلح مادة لكاتب القصة .. ما على الكاتب إلا أن يتحدث إلى أي إنسان ... أي إنسان .. حتى ولو كان من الصم أو البكم أو البله .. ويتوغل في أعماقه ... ويدرس شخصيته وبيئته ... حتى يظفر بقصة جديدة.

نسيت هذه الحكاية التي قالها لي سومرست موم يومًا ما.

وذات يوم من أيام الربيع، عبرت بي محنة عاطفية حجبت رونق الربيع عن عيني وقلبي، فقررت الهروب من ميدان المحنة وسافرت إلى لبنان ألتمس هدوء النفس وتوغلت في ربوعه حتى أدركت تلك الضيعة النائية في "نبع الصفا" ... ونزلت في فندق صغير، لا يزيد عدد غرفه على خمس، تحيط به حديقة تلمع بين شجيراتها المصابيح الصغيرة الحمراء في شهر مايو ..

موسم الكرز ... قبيل الصيف

ولم يكن بالفندق من النزلاء غير اثنين : راهبة شابة في حوالي السبعة والعشرين .. وأنا .. وثالثنا صاحب الفندق، وهو شيخ لبناني لطيف، قضى زهرة العمر في القاهرة. وادخر شيئًا اقتنى به هذا الفندق الصغير لينعم فيه بالهدوء في شيخوخته.

ولست أدري لماذا قفزت إلى ذاكرتي حكاية سومرست موم لأول مرة، عندما وقعت عيناي على وجه الراهبة الشابة.

إن لكل إنسان قصة .. قصة تستحق أن يكتبها كاتب.

وهذه الراهبة .. بوجهها النقي ... الذي يبدو فوق مسوحها السوداء كالقمر على صفحة الليل ...لابد أن تكون وراءها قصة .. ولا بد أن تكون قصة مثيرة ... اختارت لها هذه النهاية: اعتزال الحياة والإيواء إلى رحاب الله.

كم تمنيت يومئذ أن أعرف هذه القصة .. لكن صاحبتها لم تكن على استعداد لأن تمنحني أو تمنح غيري شيئًا أكثر من تحية في الصباح وابتسامة في المساء ... وتتفرغ بين هذه وتلك لإبرة التريكو التي تشغل بها سحابة يومها من أوله إلى آخره.

وذات ليلة ... ونحن على مائدة العشاء في شرفة الفندق المطلة على الحديقة، دق جرس التليفون وقفز "عم إلياس" إلى الداخل ... وعاد بعد لحظة يقول التليفون لي ... من القاهرة

القاهرة!

إن إنسانة واحدة في القاهرة هي التي تستطيع بقدرتها وذكائها وإصرارها أن تهتدي إلى عنواني في أعماق جبال لبنان .. عن طريق السفارة ... أو القنصلية .... أو الشرطة .... أو حتى عن طريق الشيطان.

وهذه الإنسانة الواحدة . . هي التي قتلت ربيعي في القاهرة وأراقت دمه ... وحملتني على الهروب إلى حضن هذه الضيعة الهادئة النائية وسألت نفسي: لماذا أهرب منها .. ثم أستجيب لندائها في التليفون؟! وكان الجواب السريع : أرجوك يا عم إلياس .. قل لها أنني في مكان مجهول ... وتردد عم إلياس وهو ينظر في إشفاق .. ثم ذهب وأبلغ الرسالة وانصرف إلى مخدعه وتعبت الراهبة الشابة التي رفعت عينيها نحوي لأول مرة

لتتأمل هذا الهارب من نداء القاهرة .. ولمحت في عينيها أنها تريد أن تحدثني .. ففتحت لها باب الحديث :

- يخيل لي أن عينيك ترثيان لي؟!

فقالت في صوت رقيق : الواقع أنني لا أريد أن أحرجك، ولكنني خادمة لله، فهل أستطيع أن أساعدك في شيء؟

ولم أجب .. ولعلها أدركت ذوبان الكلمات على شفتي .. فقالت : لقد سمعت اسمك الآن عندما ناداك عم إلياس ألست أنت الذي تكتب في صحف القاهرة؟

قلت :- أجل أيتها الأخت

قالت:- وهل لي الحق أن أسألك .... لماذا تهرب من نداء القاهرة؟

وتلعثمت الكلمات وأنا أقول لها:- إنني ... هارب من ... الحب!

وطافت كلمات "هارب من الحب" في أعماقها لحظات .. ثم نظرت بكل عينيها ... وقالت لي بصوت يملؤه الشجى:

- أجل ... بعض الناس يهرب من الحب بالانتحار .. وهؤلاء هم ضعفاء الإيمان ... وبعضهم يهرب منه بالسفر البعيد ... وهؤلاء أوساط الناس في إيمانهم.

قلت لها:- وماذا يفعل المؤمنون أيتها الأخت؟

- يهربون إلى الله

وفجأة ... لملمت الراهبة الشابة خيوطها، ونهضت من مكانها قائلة:

- تصبح على خير.

واتجهت إلى غرفتها وهي تمسح عن خديها دموعا لم تشأ أن يراها أحد غير الله.

*****

- لم يعد – بعد حكاية التليفون وحديث الراهبة – مجال للنوم .. فلابد من صحوة إلى الصباح.

وناديت عم إلياس ...

وجاء الرجل يفرك في عينيه، فقلت له :

- لا تؤاخذني يا عم إلياس... إني سأسهر هنا في الشرفة حتى الفجر .. وأريد فنجالًا من الشاي تستطيع أن تنام بعده رائق البال.

وأجاب بسماحته الحلوة:

- تكرم .... عيني.

وعاد بعد هنيهات وفي يده الشاي وبعض كعكات .. وسألني إن كنت أريد أن أبقى وحدي، أم أوثر أن يجلس معي حتى يعاوده النوم مرة أخرى.

وآثرت الثانية ..

وبدأنا نثرثر ... ورويت له الحديث الذي دار بيني وبين الأخت ذات الوجه التقي النقي، فاقترب مني، وراح يروي لي ذكريات شبابه في القاهرة، وكيف فجع في أكبر حب في حياته، فآلى على نفسه ألا يربط حياته بامرأة واحدة ما عاش ... وقد عاش بعد ذلك أفاقًا في الحب، يطلبه في صالات اللهو وأندية الليل، حتى أدركته الشيخوخة فانسحب من الميدان.

وكان ميدانه الأخير في جولات الشباب، فاتنة عاشت زمانًا طويلًا تكتب تاريخ الهوى في ليالي القاهرة.

... صاحبتها فنانة زاخرة بالحيوية، اسمها الحقيقي مدام إيلين، وإن عرفها الناس باسم مدام إيلين كانت في شبابها من أجمل نساء الأرض ... ولكن السنين دبت إلى جمالها، وزحفت على وجهها ترسم الخيوط والتجاعيد، فأصبحت تشتري الحب بعد أن كانت تبيعه.

وذات ليلة ... وقف على مسرحها مطرب شاب، اكتشفته في شارع محمد على، وأحست أنه موهوب وأنه لم يأخذ فرصته في الحياة، فقدمته للناس.

ومنذ الليلة الأولى ... بل منذ الأغنية الأولى، اندلعت الأكف تصفق له تصفيقًا

ملتهبًا، وتحيي هذه الموهبة الكبيرة المغمورة.

ونزلت الستارة، وانسحب المطرب الشاب إلى ما وراء الكواليس يبكي من الفرحة.

إنها ليلة القدر في حياته ...

وتسللت إليه مدام إيلين وهو في ركن من الكواليس، وقادته إلى غرفتها، وسألته:- هل أنت سعيد؟

قال:- ومدين لك بكل هذه السعادة.

قالت :- هل صفق لك أحد قبل الليلة؟

قال:- أبدًا.

- وهل أنا أضفت إلى موهبتك التي عاشت سنوات مغمورة، أي شيء!

وسكت الشاب، ولم يدر بم يجيب فاستطردت مدام إيلين تقول له:

- نعم ... لقد أضفت إلى موهبتك شيئًا هو الإطار التي تتألق فيه هذه الموهبة ... وأنا هذا الإطار.

وأمسكت بيده تضغط عليها في لهفة الأنثى التي جاوزت الخمسين، ثم قالت له هامسة:

- هل تحب أن تبقى في هذا الإطار ... إلى الأبد؟

ولم يفهم أيضًا ... فمضت تقول له:

- هل تتزوجني

وارتسمت أمام المطرب الشاب حقتان في الهواء، في إحداهما صورته القديمة، وهو مطرب مغمور في شارع محمد علي، يعيش بغير أمل. وفي الثانية، صورته حسنة، داخل إطار من الذهب.

ولم يكن الشاب مشغولًا بحب ولا بعاطفة ... كان كل حبه موهوبًا للفن. كانت كل عاطفته متجهة إلى بناء المستقبل والفن والمستقبل .... يحددهما هذا الإطار.

وقال بلا تردد:- شرف لا أحلم به

وارتمت عليه مدام إيلين تعانقه بكل عنف الأنثى الضارية.

*****

وأصبحت هناك أسرة ...

أسرة قوامها ثلاثة : مدام إيلين، وزوجها المطرب الشاب، وابنتها ... ابنتها من أول زيجة في حياتها، قبل أن تدلف إلى عالم الفن : مادلين.

كانت مادلين زهرة حلوة ... في العشرين...

عاشت مادلين طفولتها وصباها تلميذة بالقسم الداخلي في مدرسة "الميردي ديو" .. أرقى مدارس البنات بالقاهرة، فلم تكن تعرف شيئًا من قصة أمها إلا ما يدور حولها همسًا يمزق كيانها أحيانًا، فتؤثر أن تكتمه في أعماقها على مضض.

إلى أن تزوجت مدام إيلين الموسيقى الشاب .. وأصبح لها بيت زوجية لأول مرة منذ ربع قرن ... وهنا خرجت بابنتها من القسم الداخلي بالمدرسة، وجاءت بها إلى البيت.

ومرت الأيام ... ومدام إيلين موزعة القلب بين عملها وزوجها .. لقد عرفت معنى الاستقرار لأول مرة في حياتها.

أما زوجها الشاب .... فلم يكن البيت والزوجة له إلا جسرًا للمستقبل وحلمًا للآمال.

أما قلبه ... فإنه ظل خاويًا على عرشه كما كان ... إلى أن تسللت إليه المأساة، عندما التقت عيناه بعيني مادلين – بنت زوجته – ذات ليلة على نغمة حلوة هادئة تتحدث عن الشباب والربيع والعاطفة، ولم تكن مدام إيلين في هذه الساعة بالبيت.

وبدأت الهمسات بينه وبين مادلين .. وتحدثا عن الشباب والربيع والعاطفة ... فانفجرت مادلين تصارحه بأن القدر يظلمها ويظلمه، حينما يكتبه لأمها .. والصواب أن يكون لها هي ... هي وحدها ... إلى الأبد..

والتقيا – دون وعي – في قبلة طويلة عنيفة لا يباركها أحد.

وفجأة ... طرق الباب

وعادت مدام إيلين إلى عشها .... ولاذت مادلين بغرفتها ... تبكي.

وفي الصباح ... دخلت مدام إيلين لتلقى تحية الصباح على ابنتها، فلم تجدها، في مخدعها ووجدت مكانها خطابا باكيا ... تودعها فيه ... لأنها هربت إلى رحاب الله!

*****

وانتهى عم إلياس من قص القصة، وقبل أن ينسحب إلى غرفته، قال لي هامسًا ... مشيرًا إلى غرفة الأخت ذات الوجه التقي النقي:

- هذه هي مأساة الأخت ...

مادلين

وذهلت ... وقلت له:- أتعنى ... أنها هي !

- أنها هي

ودخلت إلى مخدعي قبيل الفجر، وأنا أتعجل إشراق الصباح، لعل فرصة تسنح لي أتحدث فيها إلى الأخت مادلين.

وعندما أفقت من نومي في التاسعة، وخرجت إلى الشرفة لأتناول الإفطار لم أجد الأخت مادلين.

وسألت عنها عم إلياس، فقال لي:

لقد غادرت الفندق منذ ساعة.. عادت إلى الدير.

الأميـرة الضـائعـة

السيدة التي ترونها الآن مرارًا في شوارع القاهرة، تمشى كأنها أميرة شركسية ذهبت عنها الإمارة كما ذهب الشباب ... ولم يبق منها إلا وجه حافل بالغضون، وقدمان واهيتان لا تقويان على السير الطويل، وعينان خضراوان أغلقت السنين ثلاثة أربعهما وسرقت منهما أكثر النور وأكثر السحر ...

هـذه السيدة ..كانت يوما ما أجمل امرأة وقفت على مسارح القاهرة، بقامتها الفارعة، وشعرها الذهبي الذي يترامى إلى ركبتيها فتترامى تحته مئات القلوب.

وأية قلوب ؟

قلوب نبلاء الأدب والفن ... ففي دنيا الأدب والفن نبلاء ..كما فيها صعاليك.

نبلاء .. أحبوا الأدب للأدب، وأوغلوا فيه، وقرءوه في كل كتاب بكل لغة، وجملوا وجهه، وأضافوا إليه، دون أن يتكسبوا منه.

ونبلاء ... أحبوا الفن للفن، ودرسوا مذاهبه، ونضروا حدائقه، ولكنه بقى في أعماقهم هواية أسمى من أن تحترف وتكون مصدرًا لرغيف العيش.

أعرف منهم ذلك الكاتب المسرحي الشاب، الذي حقن المسرح في عصره بدم جديد، وبدلًا من أن يكسب منه، أنفق عليه أكثر من نصف ما ورث من ثروة أبيه الثري الكبير.

وأعرف منهم ذلك الشاعر المرهف، الذي ترك وراءه مجموعات من أجمل ما نظم أبناء مصر من شعر.

وأعرف منهم ذلك المثال العظيم، الذي كان من أول دعاة العودة إلى نظرية العمود الفرعوني في الفن الحديث، وترك من بنات هذا الفن نماذج ساحرة.

وأعرف منهم ذلك الفتى اللعوب، الذي وهبه الله من الجمال واللطف وخفة الظل

ما لو وزع على عشرات من الرجال لحولهم إلى فتن للغانيات، ووهبه إلى جانب ذلك ثروة طائلة أنفقها كلها ... إلى آخر درهم. تحت قدميها .. فلما أفلس ... انسحب من المعركة، واعتكف في ركن هادئ من الحياة ...... يقرأ ويكتب.

وأعرف منهم ذلك الدبلوماسي الشاعر ... الذي أحبها حب عبادة، فلما استيأس منها ودعها بقصيدة مطلعها:

أنــت قــبر والأمــاني جثــة
جــذبت للمــوت أحــلام شــبابي

كنت مراهقًا في الثامنة عشرة عندما رأيتها لأول مرة على المسرح.

وكانت في أجمل أنوثتها ... في نحو الثلاثين.

وكنت قد سمعت أن جمالها هو الوحش الذي يأكل قلوب الشعراء والأدباء والفنانين، فذهبت لا لأرى المسرح ولا المسرحية ... بل لأحاول أن اهتدى إلى موطن هذا الوحش .....

أهو في جسدها أم في روحها؟

وخرجت من المسرح في تلك الليلة، وببلاهة المراهق ... لم أنم حتى الصباح.

قضيت نصف ليلتي أتسلاها في خيالي، وأحاول أن أبحث عن موطن ذلك الوحش ... على غير طائل.

وقضيت نصفها الثاني، حتى مطلع الصباح، أنظم فيها قصيدة لا أذكر منها إلا هذين البيتين:

أحبــك للجــسد العبقــري
ولــيس وراء الهــوى مــأرب
كمــن يــشهد الخمــر في كأســها
فيثمــل منهــا ولا يــشرب

وأرسلت القصيدة إليها .... بالبريد.

****

وفي الصباح، ذهبت إلى الجامعة فلم أستقبل أية كلمة من أية محاضرة.

وخرجت في الظهيرة ... لا إلى البيت، بل جعلت أسير على غير هدى إلى أن وجدت نفسي في شارع عماد الدين، وفي قهوة الفن، التي كانت ملتقى أهل الأدب والفن في ذلك العهد.

وبقيت في ذهول حتى الغروب ...

حينما أقبل على صديقي الدكتور (ن) شاعر الحب الملتهب والعاطفة المحلقة.

وسألني: لم بكرت الليلة؟

قلت له : أنا هنا منذ الظهيرة ...

وتأمل وجهي المتعب، وعيني المرهقتين من قلة النوم، وقال لي:

- ما بك؟ ... حالة حب؟

فقصصت عليه القصة ...

فضحك طويلًا ... ثم قال لي :- لا عليك ... إنني أعرفها جيدًا.

قلت له :- ليس المهم أن تعرفها أنت ... بل أن أعرفها أنا.

قال:- هذا ما أقصد ... سأقدمك إليها يوم الخميس القادم الخميس ...

- ونحن لا نزال يوم الأحد!

هل أستطيع الانتظار أربعة أيام أخرى؟

وجاء يوم الخميس .. وقابلت صديقي الدكتور ن .....

وأخذني من يدي إلى بيتها ..... في الزمالك.

ودخلت البيت وأنا أرتجف ....

*****

كنت قد أعددت قصيدتين أخريين، لأتلوهما عليها، لعلها تعطف علي، وتقربني منها.

ولكنني عندما دخلت من الباب، نسيت كل كلمة فصحى أو دارجة في قاموس اللغة.

وجلسنا في الصالون ...

وأقبلت هي تتهادى كأميرة شركسية ذات دل وإشراق وملك كبير.

وقدمنى إليها صديقي الشاعر الدكتور ن ... على أنني شاعر ناشئ، لا أزال طالبًا بالجامعة، ولكن لي مستقبلًا في عالم الأدب.

وما كادت تسمع اسمى، حتى شهقت شهقة موسيقية، وجذبتني من يدي لتقبلني في خدي قبلة أم لابنها وهي تقول:

- يا حبيبي يا ابنى ... كنت فاكراك راجل كبير!

وانهارت الأرض تحتي من وقع كلمة "يا بني" .. ولم تخفف القبلة من وقع هذه الكلمة التي لا أحب أن تدخل في قاموس الحب الذي أرجوه عندها.

وذهبت .... وجاءت بكأسين من لويسكي ... اتضح أنها أعدت واحدة منها لنفسها والأخرى لصديقي الدكتور ن...

اتضح هذا عندما وضعت الصينية على المائدة، ثم التفتت لي وسألتني:

- وأنت ... أجيب لك إيه؟

ولم أحر جوابًا ... كأنني أكلت كمية ضخمة من سد الحنك.

وعادت تسألني:- أجيب لك عصير ليمون؟

وهززت رأسي ..

وجاءت لي بعصير الليمون، الذي جعلت أتذوقه وأنا أترحم على المسكين سقراط، الذي شرب كأس السم لأنه قال الحق كما أحس به.

وأنا مثله ... قلت الحق الذي أحس به ... فلم أصب غير علقم الكأس المرة ..

- يا ابني ....
- وكأس عصير الليمون ..

ومكثنا زهاء نصف ساعة صاحبي يضاحكها وهي تضاحكه، وأنا مستغرق في ذهول.. إلى أن حدثت المفاجأة.

دق جرس الباب ....

ونظرت هي إلى ساعتها

وقامت تنظر من عين في الباب زجاجية تكشف من في الخارج دون أن يحس.

وعادت مضطربة ترفع الكأسين وعصير الليمون، وتسألنا أن نسرع بالخروج، والنزول من سلم الخدم، لأن صديقها فلان قد حضر على غير موعد، وهو كل شيء في حياتها الآن ... إنه يهبها كل شيء .. وهو غيور إلى حد الحماقة .... لا يتصور أبدًا أنها تستقبل أي رجل في البيت الذي أعده لها.

وينفق عليه بسخاء .. مهما كانت علاقة هذا الضيف بريئة.

ونزلنا مهرولين من سلم الخدم وكان منظرنا مثيرًا للعجب، وللشبهة أيضًا، في عيون خدم الأدوار السفلى الذين مررنا بهم في طريقنا في الشارع.

وعندما بلغنا الشارع، كنت قد أفقت من ذهولي.

ولكن الذهول لم يذهب ...

كل ما فعله، هو أنه تحول عني إلى صاحبي الدكتور ن ... الذي راح يتمتم باسم صديقها الذي حدثتنا عنه .. الذي هبط علينا على غير موعد ..

يتمتم باسمه، ويخبط كفا بكف ... ويقول : "والله حاجة عجيبة ... حاجة ما يتصورهاش العقل "

وقلت له :- أي عجب في هذا ... ولماذا لا يتصوره العقل ؟ .... أليست امرأة ... وفنانة ... وفي حاجة إلى صديق ؟

وهل هناك امرأة تعيش في دنيا الفن بغير صديق؟

قال :- إلا فلان هذا !

وفلان هذا .... محام كبير ... كان أحد ثلاثة هم أكبر المحامين في مصر في ذلك الوقت.

وهو بعد ذلك أديب ذواقة، وله كتابان أو ثلاثة، يتميز بأسلوب قصصي لامع ساخر.

****

ومضى صاحبي الدكتور، ... يروى لي قصة فلان، ويشير إلى موضع العجب فيها.

قال لي:

"هذا الرجل ... عاش كل شبابه صلب الفؤاد، تركع عشرات النساء تحت قدميه، إعجابًا بشخصيته وفتنة بخفة ظله وتأثرًا ببذخه .... فهو يكسب آلاف الجنيهات من المحاماة، وينفقها إلى آخر مليم على من حوله.

تركع عشرات النساء تحت قدميه دون أن يركع هو لإحداهن مرة واحدة.

إلى أن جاءته قضية مثيرة ... قضية مليونير ... أحب مطربة شابة حلوة ... ونشأت بينهما علاقة وثيقة أثمرت طفلًا.

والمليونير ينكر الطفل، والمغنية الشابة تتمسك بأبوته له ... وقد انتهى أمرهما إلى القضاء.

وذهبت المغنية الشابة إلى صاحبنا .... المحامي الكبير .. ليتولى أمر الدعوى.

ومنذ اللحظة الأولى ... انهار قلبه بين يديها ... لأول مرة في حياته.

وسألته عن الأتعاب ... فكان جوابه :

- نتفق عليها في المساء.

ومرت به في المساء ... فإذا هو يقدم إليها علبة صغيرة ... فيها خاتم سوليتير لا يقل ثمنه عن ألف جنيه ... ويهمس لها :

- هذه هي الأتعاب

واستطاع المحامي الكبير أن يثير الصحف والحكومة والبرلمان ... والدنيا كلها ... على المليونير الذي غرر بهذه المغنية الصغيرة البريئة.

وأراد المليونير أن يشترى المحامي الكبير بأي ثمن، ليرد عنه هذه الحملة الطاغية، ولكن المحامي الكبير رفض كل إغراء ... في إصرار عنيف ... لأن قصة حب طاغية كانت قد بدأت بينه وبين المغنية الحلوة.

قصة حب أصبحت حديث المجتمع.

وتوالت انتصاراته في القضية، فصدر الحكم الابتدائي لصالحها .... مع نفقة كبيرة ...

ثم أيده حكم محكمة الاستئناف ... كل هذا ... وقصة الحب تزداد التهابا بين المحامي الكبير وموكلته.

إلى أن صدر حكم محكمة النقض ..... بالتأييد أيضًا ... فلم يعد أمام المليونير إلا أن يستسلم ويمتثل واستسلم وامتثل ....

وذهب المحامي الكبير في تلك الليلة إلى بيت المغنية الحلوة ليحتفلا بالنصر النهائي ... فوجد عندها رجلًا آخر ... ووجدهما في حالة حب!

وجن جنونه ..

وسألها : ما الحكاية؟

قالت له بكل بساطة ... وهي ثملة:- أحبه !

قال في ذهول:- وأنا ؟

قالت :- أنت ... انتهت مهمتك بحكم محكمة النقض.

ومال رأس المحامي الكبير لحظة إلى الإمام، كما يميل رأت المشنوق فوق الحبل ... واستدار .... وخرج من عندها يمشى في الطريق المظلم، ودمعتان كبيرتان تتساقطان من عينيه.

خرج من عندها كافرا بالمرأة ...

مقسما ألا يربط حياته بحياة امرأة في يوم من الأيام ... وإلى الأبد.

ولكن ... ها هي ذي المفاجأة هذا هو موضع العجب الذي حمل صديقي الدكتور، ... على أن يخبط كفا بكف، وهو يسمع من الممثلة الفاتنة ذات العينين الخضراوين والشعر الذهبي، أن فلانًا ... المحامي الكبير... قد أصبح رجلها ... وكل شيء في حياتها ... قبل أن يمضى على حكم محكمة النقض شهر واحد !

قلت له :

- أجل ... إن من يعرف الحب مرة واحدة ... لا يستطيع أن يعيش بغير حب ..... ولا يملك أن يكفر به ... مهما حدث!

امرأة تحت الأضواء

قالوا عنه كل شيء.. إلا شيئا واحدا قالوا عنه إنه متصوف.. ينتهي من عمله كمخرج لامع، فلا يراه أحد.. لأنه يفرغ إلى صومعته ناسكا متعبدا، وقالوا عنه إنه يرتعد فرقًا من زوجته، لأنها قوية الشخصية عاتية السيطرة، ولهذا يرتجف من كل امرأة تلوح في حياته، وقالوا عنه إن له خليلة لا يعرفها أحد، لأنها بعيدة عن دنيا الفن،تعيش في معزل عن الأضواء، وتداريه معها تحت حجب الظلام. قالوا أشياء كثيرة، ولم يحاول صديقي المخرج اللامع، وهو يسمع كل هذه الروايات أن ينفي شيئا أو يثبت شيئا، مكتفيا بتلك الابتسامة الهادئة المطبوعة على وجهه دائما. قالوا عنه كل شيء.. إلا شيئا واحدا: أن تكون له في يوم من الأيام صلة بواحدة ممن يعشن في هذه الدنيا الصاخبة... دنيا الفن.

وصاحبي هذا، فارع القامة، أنيق المظهر، رقيق الحديث، مرهف الحس، طيب الأعراق... صورة جذابة، خليقة بأن تستهوي كل أنثي تعيش في دنيا الفن وعشرات من الوجوه القديمة والجديدة حاولت أن تصل إلى قلبه في إلحاح، ولكنه كان يردها دائما في رفق.. فإن لم ينفع الرفق، اضطر أن يمد ذراعيه ليقيم حدا فاصلا بينه وبين محاولات الغزو.

القادمة الجديدة.. شابة حلوة.. ملونة العينين.. تعيش منذ عام وبعض العام في دنيا الفن.

جسدها أجمل من موهبتها.. وأبرز ما فيها أن لها صوتًا دافئا يحسن الهمس ويجيد النجوي، وهي صاحبة دور.. لعله الدور الثاني أو الثالث في الفيلم الذي يخرجه صاحبي ولكن أمالها كانت أكبر من ذلك وكانت طريقة صاحبي في الإخراج أن يجالس كل ممثل وكل ممثلة من المشتركين في فيلمه، مهما صغرت أدوارهم، ليشرح لهم القصة.. ثم يبين لهم الأبعاد النفسية للدور المطلوب من كل منهم.

كان يؤمن بأن أصغر دور فى الرواية، يستطيع أن يكتب الفشل للرواية كلها إذا لم

يحسن صاحبه القيام به.. وكان تشبيهه في هذا المجال، أن أعظم أكلة في الوجود تستطيع أن تفسدها ذبابة صغيرة تقف فوقها لحظة واحدة، وعندما جاء دور القادمة الجديدة في الجلوس إلى صاحبي المخرج اللامع، انتحيا ركنا هادئا من الأستوديو، وراح يقص عليها القصة ويشرح لها دورها فيها.. وهو دور المرأة التي يخدعها وهم حب كبير.. يرسم لها صورة الرجل الذي أمامها في ثوب المثالية..وتتزوجه ثم سرعان ما يتضح لها أنه ليس إلا رجلا كبقية الرجال وعند هذا الحد من الحادثة، تخرج هي من القصة، وينتهي دورها، وتستمر القصة بعد ذلك بين هذا الرجل نفسه وبطلة الفيلم.. وهي امرأة من نوع آخر.. امرأة تعرف كيف تصنع منه رجلا مثاليا.. بحق وحقيق، ويرفع صديقي عينيه ليتأمل تأثير الدور عليها.. فيجد سيلا من الدموع ينساب من عينيها ويرتعد رعدة الإشفاق.. ويسألها:

- أنت تبكين؟.. لماذا تبكين؟ فتجيبه بصوت متقطع

- لا.. شيء.. وتزداد انخراطا في البكاء.. وهي تنهنه قائلة:

- أرجوك يا أستاذ.. أرجوك.. لا تسألني.. دعني لشقائي.. إنني أشقى امرأة في الأرض.. إنني لا أريد هذا الدور.. أكرهه.. أكرهه... وبهت صاحبي.. إن عشرات من الوجوه الناشئة يتمنين دورا في هذا الحجم.. وهذه تقول إنها لا تريده.. لأنها تكرهه، وتركها تهدأ قليلًا.. وهدأت.. وابتسمت ابتسامة خفيفة.. وقالت له:

- أنا آسفة.. لقد قبلت الدور.. لا يسعني إلا أن أمضي فيه ولم تقنعه هذه الكلمات.. فقال لها:

- ولكن أعماقك غير مقتنعة! .. فاقتربت منه.. وأخرجت كل ما في طاقتها الكامنة من مقدرة على الهمس والنجوي.. وهمست له :

- أنت يا أستاذ.. كبير.. أنت جبل.. أنت قمة عالية.. وأنا لا أعدو أن أكون إلى جانبك أكثر من رملة صغيرة عند السفح.

في هذه اللحظة.. لم يشعر صاحبي بأنه جبل.. ولا أنه قمة... أحس أنها هي القمة.. وأنه هو الرملة الصغيرة الراقدة عند السفح واهتزت كل أعماقه.. واقترب منها يسألها:

افتحي قلبك.. هل لك مأساة؟

فتراجعت قليلا، قائلة:

- وهل أروي ماسأتي لإنسان يعيش بغير قلب؟

وذهل.. وقال:- أنا.. بلا قلب؟

قالت.. قوية:

- طبعا.. الجميع يعرفون أنك إنسان بلا قلب.. إنسان يعيش بلا حب.. ولكني أعذرك.. لعلك سعيد في زواجك.. لعلك وجدت المرأة التي تستطيع أن تسعدك.. فدعنا يا أستاذ.. دعنا نحن الأشقياء نتحطم في شقائنا

- وهل أنت شقية؟

- إنني أشقي إنسانة على الأرض... إنسانة كل ذرة من روحها وجسدها حب.. ولكنها تعيش بغير حب.. لأنها لم تجد من يهمس لها: أحبك

انتهت ساعات العمل في الأستوديو وخرج الجميع ولم يذهب صاحبنا إلى بيته، بل جاء إلى بيتي.. يزورني وكان على غير عادته.. واجما ساهما.. شرب فنجان القهوة.. ثم سبح بعينيه في فضاء بعيد أحسست أنه يريد أن يقول شيئًا، فقلت له :

- تكلم يا رجل.. قل كل شيء، وأفاق.. وراح يروي لي القصة من بدايتها وقبل أن يقترب من نهايتها بقليل، قلت له:

- إنني أعرف النهاية.. في النهاية.. قالت لك إنها أشقي إنسانة على الأرض.. وأنها إنسانة كل ذرة من روحها وجسدها حب..ولكنها تعيش بغير حب.. لأنها لم تجد من يهمس لها: أحبك!

وذهل صاحبي .. وصرخ:

- كيف عرفت؟

قلت له ضاحكا:

- عشرات من المنتجين والمخرجين والمؤلفين.. ومنهم أنا.. سمعوا منها هذه الكلمات..

بالحرف الواحد.. وصدقوها.. وأقدموا، ثم اتضح لهم في النهاية أن هذه الكلمات التي تضعف أمامها قلوب الرجال، ليست إلا جسرًا للوصول إلى دور أكبر.. إنها تطمع في الدور الأول!

وانزاح عن صدر صاحبي كابوس ثقيل... لقد عاش في دنيا الفن عشرين سنة، لم يعلق قلبه خلالها بواحدة ممن يعشن تحت الأضواء يومًا واحدا وها هو ذا اليوم.. أوشك أن يسقط.. أوشك أن يكون كالآخرين وقلت له وأنا أودعه:

-عيب هذه الفتاة أنها لا تجدد وأنها تكرر دائما نفس الكلمات!

ذات المنديل الأحمر

هناك أناس مجبولون بطبيعتهم على الصعلكة.. تسنح لهم الفرص، وتتاح لهم الظروف، وتمهد لهم الجسور إلى حياة ناعمة راضية.. ولكنهم يهربون.. يهربون دائما إلى عالم الصعلكة!

أعرف شابا كان معنا في الجامعة، وتخرج بتفوق، ولكنه أبي أن يشتغل بأية وظيفة، وآثر أن يقضي نهاره متنقلا من مقهي إلى مقهي، ويقضي ليله متجولا في شوارع القاهرة .. مكتفيا بأن يقترض من هذا ريالًا ومن ذاك نصف ريال.. إلى أن ينقلب إلى بيت ذويه مخمورا عند الفجر!

وأعرف شاعرا وأديبا موهوبا- رحمه الله- جاءني منذ سنوات في دار الهلال يسألني جنيها واحدا.. لأنه جائع... قلت له:

- سأعطيك الجنيه إن شئت.. ولكن ألا تري أنه من الأكرم لك أن تعمل وتكسب ما هو أكثر بكثير من هذا الجنيه؟

قال لي: وأين لي أن أعمل؟

قلت: هنا.. في دار الهلال

- بكم؟

- بثلاثين جنيها في الشهر وتهلل وجهه.. أو تصنع التهلل وقدمته إلى أحد المكاتب، ووضعت أمامه بضعة أعمال لينجزها، وجاءت الظهيرة، وجاء مستأذنا في الانصراف لأمر عاجل، على أن ينجز ماعنده من الأوراق ويأتي بها في الصباح الباكر وطلب الجنيه.. فأعطيته إياه.. ولم يفته أن يسألني أن ألخصم هذا الجنيه من مرتبه في آخر الشهر، وفي الصباح الباكر.. وجدت الأوراق التى عنده على مكتبي غير منجزة ومعها رسالة صغيرة يقول فيها إنه لن يعود.. لأنه يفضل الجنيه الذي يتسوله على الثلاثين

جنيها التي يعمل بها.. وعاد إلى عالم الصعلكة، إلى أن لقي وجه ربه، رحمه الله!

وهناك كذلك نساء يفضلن... الصعلكة على كل شيء.. حتي على المال والشهرة والمجد!

قابلت واحدة منهن هذا الأسبوع وأنا في طريقي إلى نادي السيارات بالإسكندرية. كنت قد نسيت وجهها عندما استوقفتني في الطريق وقالت لي:

- ألا تذكرني؟ أنا فلانه ومضت تذكرني بنفسها، فتذكرتها تماما.

قالت: أمعك سيجارة؟

قلت لها: بل علبة سجائر... وتناولت العلبة شاكرة، وفتحت حقيبة يدها لتضعها فيها.. وألقيت نظرة عاجلة على محتويات حقيبتها فإذا بها- كالعادة- بضعة قروش، وقلم روج من النوع الرخيص ومشط فيه أكثر من سنة مكسورة، ومنديل أحمر من النوع الذي يسلبك الثقة في صاحبته...إنك تستطيع أن تثق بالسيدة التي تحمل في حقيبة يدها منديلا أبيض أو أصفر، أو أي لون آخر غير اللون الأحمر.. أما المرأة التي تختار المنديل الأحمر، فإنها تختاره لممارسة المهنة.. مرة واثنتين وثلاثا في اليوم!

....

في سنة ١٩٤٥.. والحرب العالمية الثانية توشك أن تضع أوزارها.. كنت مع صاحبي المنتج السينمائي (ف...) نتناول الغداء في مطعم (اليونيون) وكان منظر المائدة المجاورة لنا يستحق التعليق. كان على المائدة مجموعة من زجاجات البيرة الفارغة. وحول المائدة، أفندي ذو طربوش طويل؛ وكرافتة لا تتناسق مع لون بدلته في قليل ولا في كثير. كان واضحا أنه قادم من الأرياف.. وإلي جانبه.. شابة جميلة جدا، ولكن جمالها غير مهذب، تنقصه يد (الماكيير) الماهر و(الكوافير) الأنيق والخياطة البارعة كان فيها مادة خام لشابة فاتنة، لا ينقصها إلا الصقل.

وشربا.. شربا كثيرا ومال رأس الأفندي القادم من الأرياف، وراح يغط في النوم أما هي، فقد لعبت البيرة برأسها، فأخذت تدندن بأغنية معروفة بصوت جميل.. جميل إلى حد خليق أن يجذب السمع ... وأرهفنا - صاحبي وأنا- آذاننا إليها، فابتسمت وهمست لنا: أيعجبكما صوتي؟ ولم أشأ أن أتدخل.. وقال صاحبي المنتج: إنه بديع.. وأخرج من

جيبه بطاقة تحمل اسمه وعمله وعنوانه.. وقدمها إليها في غفلة من الأفندى النائم القادم من الأرياف وانصرفنا، وأنا أسأله:

- هل أعجبتك إلى هذا الحد!

- أتعرف؟ مثل هذه الفتاة تصلح لأن تكون بطلة فيلم.. وقد ترضيها مائة من الجنيهات.. تغنينا عن آلاف الجنيهات التي ندفعها لرجاء عبده وشادية وليلي مراد وغيرهن!

*****

ومر يوم واثنان.. وأسبوع واثنان ولا خبر عنها ونسيناها بالمرة.. وبعد أن نسيناها.. جاءت إلى مكتب صاحبي المنتج على غير انتظار والتقت هناك بالمخرج (ع..) ورآها، وتحدث إليها، وسمعها تغني... وهمس لصاحبي المنتج:

- تعاقد معها على الفور.. وتم التعاقد.. وانطوت حقيبتها لأول مرة في حياتها على خمسين جنيها.. نصف قيمة العقد!

وبدأت أيام التصوير.. وكانت المشكلة اليومية الكبري في حياة صديقي المنتج (ف..) هي البحث عن نجمته الجديدة. كان على (الريجسير) أن يطلق ثلاثة أو أربعة من صبيانه كل يوم للبحث عنها في أي مقهي أو أي شارع أو أية حانة وكثيرا ما كانوا لا يظفرو بها.. وقليلًا ما كانوا يظفرون بها سكرانة مع خواجة متواضع.. أو تلميذ ينفق عليها ثمن كتبه.. أو أفندي قادم من الأرياف. وبالطول أو بالعرض.. انتهي تصوير الفيلم انتهي في أربعة أشهر.. بدلا من شهر واحد وقال لي صاحبي المنتج وهو يضحك ضحكة مرة:

- لقد أردنا أن نوفر من أجر البطلة، فدفعنا أضعاف الثمن للأستوديو!

وظهر الفيلم.. ونجح نجاحا مرموقا... وتحدث الجميع عن المطربة السينمائية الجديدة الفاتنة.... وحتي الآن بعد مرور عشرين سنة على ظهور ذلك الفيلم.. لا تزال الإذاعة تقدم أغانيه، وتصادف هوي في نفوس المستمعين، دون أن يكلف أحد منهم نفسه عناء تذكر اسم المطربة صاحبة هذه الأغنيات. أما هي.. فقد هربت من الأضواء.. ولم تحفل بالمال ولا بالمجد ولا بالشهرة؛ عادت إلى عالم الصعلكة.. ونامت خلف أسوار

النسيان وذات يوم- بعد ظهور الفيلم ببضعة أشهر- قابلتها في الطريق، وقلت لها:

- لماذا تصنعين بنفسك هذا يا طفلتي؟ وكانت ثملة.. فبكت بدموع محرقة.. وقالت لي:

- لقد أحببت وأنا في السادسة عشرة من عمري حبا لم يحب أحد مثله من قبل.. حبا لم تعرف مثله الملائكة ولا الشياطين.. ولكن الرجل الذي أحببته طعنني بسكين اجتث قلبي وعقلي معا.. فأصبحت كما تراني.. أعيش بلا قلب ولا عقل!

هذه هي المرأة التي رأيتها هذا الأسبوع تتسول سيجارة على شارع الكورنيش!

قالت لي الملهمة

منذ ثلاثة أسابيع أو أربعة، حملت صفحة الوفيات بالصحف اليومية نبأ وفاة سيدة من أسرة كريمة، ووقف عند النبأ أصدقاء الأسرة يتذاكرون الفقيدة، ويعدون برقيات العزاء سائلين لها الرحمة ولآلها الصبر والسلوان أما الذين لا يعرفون الأسرة، فقد مروا على النبأ مر الكرام، دون أن يعرفوا أية ملهمة لقيت وجه ربها، بعد أن صنعت شاعرا من أرق شعراء العصر.. شاعرًا أضاف إلى تاريخ الأدب المعاصر أجمل الصفحات، ونفح المسامع العربية بأبدع الأغنيات. وعند منتصف الليلة التي كان العالم يودع فيها القرن التاسع عشر ويستقبل القرن العشرين، ولد هذا الشاعر في ضاحية جميلة من ضواحي القاهرة، لم تكن بها أكثر من سبعة قصور تسكنها سبع عائلات من أهل النعمة في ذلك العصر.. أحدها قصر أسرة هذا الشاعر.. وآخر منها قصر أسرة السيدة الكريمة التي رحلت عن الدنيا منذ أيام.

وشب الوليد عن الطوق، فتفتحت عيناه على ما حوله.. وكان أجمل ما حوله، صبية تصغره قليلا، قوية الإلهام، عذبة الأحلام، هي ابنة الأسرة المجاورة ونشأ الحب الطفولي بينهما... وشب معهما بريئا عفيفا فريدا في مثالية إلى أن أدركا سن الشباب... وفرقتهما الدنيا.. فإذا هو موظف مأمول في إحدى عواصم الوجه البحري، وإذا هي باقية في القاهرة.. وتمضي السنون عجافا على كليهما، فلا رسالة، ولا وسيلة اتصال، ولكن كلا منهما يعيش في قلب الآخر والشاعر العاشق يؤسس مستقبله على أمل يوم اللقاء الكبير بينهما.. اللقاء الذي يتمناه كل عاشقين. ولكن الصدمات تتوالي عليه حينما توافيه الأنباء بكثرة الأيدي الممتدة إليها، إلى أن تجيء الصدمة الكبري، حين يقرأ في الصحف نبأ عقد قرانها... وعلي من؟

علي صديق من أصدقائه، ومن أبناء مهنته أيضا.. وإن لم تكن في الآخر لمحة واحدة من لمحات الشعر ويقرأ شاعرنا النبأ، وتحمله أجنحة الذهول إلى القاهرة ليصنع شيئا..

أي شيء.. يسترد به حبه المفقود ولكنه حينما يصل إلى القاهرة، ويقف أمام قصرها الذي هجرته لتذهب إلى بيت الزوجية، يكتشف أنه لا يستطيع أن يصنع شيئا أكثر من قصيدة.. قصيدة من أجمل قصائد حياته.. ومن أجمل فرائد الشعر العربي المعاصر.. يصرع بها كل شاعر قديم وقف على الأطلال يبكي آثار أحبائه الراحلين يقول في نجوى القصر المهجور:

هـــــذه الكعبـــــة كنـــــا طائفيهـــــا
والمـــــصلين صـــــباحا ومـــــساء
كـــم ســـجدنا وعبـــدنا الحـــسن فيهـــا
كيـــــف بـــــالله رجعنـــــا غربـــــاء
دار أحلامـــــي وحبـــــي لقيتنـــــا
في جمـــــود مـــــثلما تلقـــــي الجديـــــد
أنكرتنـــــا وهـــــي كانـــــت إن رأتنـــــا
يـــــضحك النـــــور إلينـــــا مـــــن بعيـــــد

إلى أن تنزل الستارة على الفصل الأخير من قصة الحب، فيقول:

وانتبهنـــــا بعـــــد مـــــا زال الرحيـــــق
وأفقنـــــا، ليـــــت أنـــــا لا نفيـــــق
يقظـــــة طاحـــــت بـــــأحلام الكـــــري
وتـــــولي الليـــــل، والليـــــل صـــــديق
وإذا النـــــور نـــــذير طـــــالع
وإذا الفجـــــر مطـــــل كـــــالحريق
وإذا الـــــدنيا كـــــما نعرفهـــــا
وإذا الأحبـــــاب كـــــل في طريـــــق

في حياة هذا الشاعر- وأحسب أنكم قد عرفتموه- عشرات من النساء، أكثرهن

ممن يعشن في عالم الأضواء.

أعرف منهن الراقصة (ك) التي نظم فيها قصيدته المشهورة (قلب راقصة) وقد كانت الراقصة (ك) من أجمل بنات عماد الدين وأقواهن روحانية وإيحاء.. وقد كانت الحب الكبير في حياة ممثل من أعظم ممثلينا الراحلين.

أنا أذكر ذلك اليوم الذي جلسنا فيه- ونحن في أول الشباب- هي، وصاحبي الشاعر، وأنا، في محل على الدلة بشارع عماد الدين وظلت دموعها تمتزج بكأسها طول الليل، وهي تروي لنا مأساة حياتها.. التي استوعبها الشاعر ونظمها في قصيدته (قلب راقصة) التي قال في نهايتها:

أنـــــا لا أري إثـــــمًا ولا عـــــــارا
لكـــــــن أري امــــــرأة وبأســـــــاء

وأعرف منهن الممثلة (ز).. صاحبة أجمل وجه شهده المسرح المصري.. وقد نظم فيها شاعرنا قصيدة حلوة مطلعها:

جئـــت أشـــكو لـــك روحـــي وجواهـــا
وردت ظمـــأي... وعـــادت بـــصداها

وأعرف منهن الممثلة الكبيرة (أ) التي كتب فيها قصيدته العذبة التي يبدؤها بقوله:

لمـــــن هـــــذه الأعـــين الـــساحرة
ومـــــا هـــــذه الفتنـــــة الآسرة
ومـــــا ذلــــك المـــسرح القـــدسي
ومـــــا هـــــذه اللمعـــــة الطـــاهرة؟

وأعرف منهن الممثلة (ز).. ولنسمها (ز- رقم ٢).. وهي لو رأيتها في أيام شبابها لعجبت من لهفة الرجال عليها، لأن مظهرها لم يكن ليغريك بشيء.. بيد أن نوع الرجال الذين عرفوها- وهم من خيرة رجال الفكر- يؤكد أن فيها شيئا لا يوجد في كثيرات من

النساء وهذه هي الفنانة التي ذكرت الصحف أنه كتب فيها أجمل قصائده: إنه كتب فيها قصيدة: الأطلال

وأعرف منهن ممثلة الإغراء (ز).. كذلك.. ولنسمها (ز- رقم ٣) التي تؤكد لكل من يلقاها في هذه الأيام أنها هي - ملهمة الأطلال

وأعرف منهن شابة حلوة، بعيدة عن معالم الأضواء، أسماها هو (زازا) في أكثر من قصيدة من قصائد ديوانه الأخير ولعلي أصعق كل هؤلاء السيدات حينما أصارحهن بأكبر حقيقة في حياة هذا الشاعر أنه لم يحب واحدة منهن أبدا.. وإن كانت قصصه معهن تبدو في صورة قصص الحب الحقيقية- كما سمعتها منه.. وقد كنت نجي حياته- أنه لم يحب في حياته إلا واحدة، هي حبيبة الطفولة والصبا والشباب.. حبيبة العمر.. التي ودعت الحياة منذ أيام أما جميع غرامياته التالية، فقد كانت كلها مجرد تحريك لعاطفته.. كالوقود الذي نلقيه فوق الفحم ليلتهب ويحرك الطاقة الكامنة في الجمرات السوداء!

وكل ما نظم في كل هؤلاء التاليات من شعر، وكل ما كتب لهن من رسائل، وكل ما بذل لهن من دموع.. إنما كانت في الحقيقة موجهة إلى حبه الأول والوسط والأخير:

ع.م... التي أهدي لها ديوانه الأول.. والتي ودعت الحياة منذ أيام!

وختام القصة أشد إيلاما على ضمير كل شاعر، وكل محب للشعر. لقد أتاح لي الزمن أن أعرف ع.م... وأن أكون صديقا يعرف كوامن فؤادها..

لقد قالت لي، وأنا أسألها عن قصة حبها لهذا الشاعر:

- هل أقول لك الحق!.. لقد كان حبا من جانب واحد.. هو جانبه هو.. لا أنا.. أما أنا، فلم يكن له في قلبي أكثر من العطف والرثاء!

من نعم الله على هذا الشاعر أنه مات دون أن يعرف هذه الحقيقة الجارحة.. وأنه عاش ومات في وهم الحب!

قلب الشاعر..

لم تكن لهذا الشاعر الموهوب في تلك المدينة الريفية الحالمة.. الفيوم... ناقة ولا جمل لم يكن له فيها قيراط في بيت ولا في أرض. ولكنه كان يعيش في صخب مجتمع القاهرة، وتحت وهج لياليها الساهرة حتي الفجر في ذلك العهد، تضج بالكأس والطاس، وتضج بالألحان والضحكات وفي واحدة من تلك الليالي الساحرة، تعرف الشاعر على رجل من سراة الفيوم، دعاه إلى قضاء (ويك إند) هناك، بين منابت التين والزيتون على شاطئ بحر يوسف واستجاب الشاعر للدعوة، وذهب غير ملو على شيء وتسلل في هدأة العصر وحده، يتمشي على شاطئ بحر يوسف، ويبحث عن السواقي السبع التي يتحدث عنها الموال القديم:

سبع سواقي بتنعي

لم طفوا لي نار

وبينما هو سائر وئيد الخطا، استوقفه منظر عربة محملة بألوان الفاكهة من تين وعنب وغيرهما، فوقف يتأمل المنظر، إذ هو يحب الفاكهة ولكنه فوجئ إلى جوار العربة بمشهد أجمل من الفاكهة كان صاحب الفاكهة جالسا على كرسيه في ناحية من العربة، يشد أنفاس نارجيلته... وفي الناحية الأخرى، تجلس صبية في أجمل العمر، في نحو (السادسة عشرة)، أو أكثر قليلا، بدوية الملبس واللسان والجمال، مطاطئة الرأس، مشغولة بمغزلها، تغزل عليه بعض الجوارب والطواقي والكوفيات، مما يلبسه أهل الريف، ووقف الشاعر الموهوب على مقربة منها، يتأمل خفة حركة يديها ولعلها لمحت ظله، فرفعت وجهها إليه، فإذا هو آية من جمال الفطرة، لونته الطبيعة القادرة التي لونت الزيتون والتفاح والرمان، وفتنه شبابها وجمالها، فتلعثم في القول وهو يحاول أن يسألها عن أي شيء غير أنهما تحدثا في النهاية، واتفقا على أن تصنع له طاقية ونهضت إليه فأخذت مقاس رأسه، وأجرها مقدم

الثمن، وانصرف إلى بيت صاحبه فلم يغمض له جفن طول الليل ومنذ الصباح الباكر، ذهب إليها، بحجة أنه يريد أن يعرف ألوان الطاقية.. وساعة العصر أيضا.. ذهب إليها ليطمئن على أن العمل في الطاقية مستمر على خير الوجوه وكلمة جرت كلمة.. إلى أن باح لها بهواه، فصارحته هي الأخرى، ولكنها سألته ألا يعلق قلبها، فما هي إلا ريفية بسيطة، وهو غريب عن الفيوم، راحل في غد إلى ضجة القاهرة وزحامها، وفي غانيات القاهرة بزخرفهن العريض، ما هو كفيل بأن ينسيه ريفية الفيوم التي تعيش في ركن مهمل من الحياة وعاد شاعرنا في تلك الليلة شجي القلب، لينظم قصيدة من أجمل شعره، عنوانها (ريفية الفيوم)... يقول فيها:

نشأت في منابت التين والزيتون	في ظل هادلات الكروم
وسقاها من بحر يوسف عذب	سلسبيل من مسكه المختوم
فسري روحها خفيا لطيفا	كدبيب المني ومسري النسيم
وتجلت نقية نفسها مثل	نقاء السماء غب سجوم
هي ريفية وأين غوان	شامخات الذرى، وبيت الهشيم!
تلك في قصرها كلؤلؤة البحر	توارت في كنها المكتوم
وتبدت هذي كما سفر البدر	بهيا ما بين زهر النجوم

وأصبح صباح آخر أيامه في الفيوم، ولم تبق على موعد القطار العائد بشاعرنا غير لحظات. هل مر بها.. يأخذ الطاقية.. ويؤجرها بقية الثمن.. ويودعها؟

وهل يكون وداعا إلى غير لقاء.. أو يعود به القدر مرة أخري إلى الفيوم؟

يعود؟

وبأية حجة يعود؟

وفجأة خطرت بباله الحجة المنشودة التي يستطيع أن يعود بها إلى الفيوم، وإلي قلبه الذي تركه بين أنامل الغازلة الحلوة، ريفية الفيوم، تداعبه كما تداعب خيوط الجوارب والطواقي والكوفيات، وخيل له أنها حجة قوية، يستطيع أن يجابه بها صاحبه وداعيه إن

عاد إليه مرة أخري بغير دعوة أنه نسي طاقيته في الفيوم... نسي أن يأخذها من غازلتها الحسناء، ونسي أن ينقدها بقية الثمن وحمل الشاعر حقيبته، وأسرع إلى محطة السكة الحديد وتحرك القطار في طريقه إلى القاهرة، وعينا الشاعر تصبان دمعتين كبيرتين على رصيف المحطة، لعلها ترطبان نسمة تسري إلى ريفية الفيوم.. سافر الشاعر، دون أن يدري أية مأساة يكتبها له القدر مع ريقية الفيوم.. ودون أن يخطر بأبعد أحلامه أنه سيقرأ اسمها يوما ما... مكتوبا بحروف من نور في زحام القاهرة تلك هي المأساة التي أرويها لك أيها القارئ العزيز.

٢- قلب الشاعر:
دلال... في روض الفرج

وذات يوم.. فوجئ ذلك الوجيه من سراة الفيوم بشاعرنا يدخل عليه على غير موعد وفرح به.. فشاعرنا روح تملأ الجو بهجة وإيناسا، وهو من ظرفاء عصره وأبرع محدثيه وأصفاهم نفسا... وسأله صاحب البيت:

- أية ريح طيبة حملتك إلينا؟ وأوشك أن يذكر له حكاية الطاقية، ولكنه أدرك أنها حجة واهية، فقد كان في الإمكان أن يكتب لصاحبه فيرسلها له كما أن حجة الطاقية قد تكشف لصاحب البيت ما بين الشاعر وريفية الفيوم، فينفضح أمرهما في البلد الصغير الذي تطول فيه الألسنة، فالتمس حجة أخري، قال:

- والله يا أخي لقد لج بي الشوق إليك، وإلي مجلسك الظريف وحديثك اللطيف، فلم أملك أن أغالبه... وفرح صاحب البيت بهذه التحية الرقيقة، وبالغ في إكرام صاحبه، وتمسك به يومين، ثم ثلاثة، ثم أربعة، وهو يقسم عليه بالله كل يوم أن يمد إقامته ويطيل صحبته، حتي مرت أيام سبعة، وشاعرنا يتسلل كل يوم في الصباح وساعة العصر، وأحيانا في خلوات المساء إلى ريفية الفيوم، يحدثها، يسرها النجوي، ويكلفها أن تصنع له بعد الطاقية طاقية، وبعد الجورب جوربا، وبعد الكوفية كوفية.

كانت على حلاوتها وذكائها ساذجة أمية، لا تقرأ ولا تكتب ولا تعرف حساب الأيام ولا الشهور وإنما تسميها بمواسم الفاكهة وطلوع الهلال واكتمال البدر.. مما ترسمه هذه الصور البديعة التي نظمها شاعرنا في قصيدته الثانية التي ناجي بها ريفية الفيوم يوما ما.

وهل تعرفون أين هذه القصيدة؟ هنا موطن العجب، وموضع العنف في هذه العاطفة القاسية.. طال تردد شاعرنا على الفيوم... إلى أن حانت ساعة الوداع في أحدي

هذه الزورات ووقفت أمامه دامعة العينين، وقد استسلمت يدها الرخصة بين يديه الدافئتين، تسأله متي تكون زورته القادمة، فحدثها باللغة التي تفهمها.. قال: في موسم البرتقال فراحت تعاتبه، وتقول له إن موسم البرتقال بعيد، فليعد قبل ذلك، ومع الهلال التالي- أي في الشهر التالي- على أكثر تقدير ولكنه كان يخفي عنها، وهو يواعدها، حقيقة مريرة أنه لا يدري متي يعود هذه المرة، فهو راحل عن الفيوم.. وعن القاهرة أيضا.. إلى باريس، ليقضي فيها عامين على الأقل، في بعثة دراسية لم يستطع صاحبنا أن يفاجئها بهذه الصدمة، ووعدها بأن يعود في أقرب وقت ممكن.. وذهب إلى باريس.. وجلس في (الكابولاد)... ذلك المقهي الساحر الذي طالما جلس فيه أمير الشعراء شوقي، وتوفيق الحكيم، وجان بول سارتر وغيرهم من أعلام الأدب، في الحي اللاتيني، ومرت به العشرات من حسان باريس في أبهي صورهن وحليهن وزينتهن.. ولكن واحدة منهن لم تمس شغاف قلبه، لأنه كان قد ترك قلبه هناك.. على شاطئ بحر يوسف.. واحدة منهن لم تحرك خياله، لأن خياله مستغرق في ريفية الفيوم، وراح.. في الكابولاد.. ينظم هذه الأبيات الرائعة:-

أذنتنا النوي بوشك ارتحال	فالتقينا نبكي على الآمال
بي نزاع إلى العناق، وفيها	لهفة شابها حياء الدلال
سألتني متي يكون التلاقي	قلت آت في موسم البرتقال
فأجابت: هذا بعيد، ألا ترجع	من قبل هذه بليال؟
جئت والتين ناضج، وعروش الكرم	تزهو بها القطوف الدوالي

*****

ومضي العامان... وعاد شاعرنا إلى القاهرة، وفي حسبانه أن يذهب إلى الفيوم في أول فرصة سانحة غير أن القدر كان يدخر له في القاهرة، منذ الليلة الأولي، مفاجأة حياته... هذه الفتاة التي جمعه بها القدر في أولي لياليه بالقاهرة، بعد عودته من باريس... هي التي أصبحت منذ الليلة قصة حياته كلها ونسي بها ريفية الفيوم... ونسي بها الدنيا بأسرها!

ومضي الشهر وراء الشهر، وقصة الحب الجديد تنمو وتزدهر وتلتهب، وهو بها يتعذب وينعم، ويتقلب على الجمر ويغني... إلى أن كانت ليلة فاضت به أشجانه، فأخذته جماعة من محبيه إلى روض الفرج...

كانت (روض الفرج) يومئذ عالما زاخرا بالفن والطرب والمسارح والملاهي وكان الناس يذهبون إليها ليغرقوا همومهم في النيل وينسوا أحزانهم بالكأس هناك ودخل شاعرنا وأصحابه ملهى (سان ستفانو).. حيث كانت تغني رتيبة أحمد.. وترقص الشقيقتان الفاتنتان فاطمة وشمس قدري.. و.. إلخ، وأعلنت إدارة المسرح أن هناك مفاجأة جديدة الليلة.. الليلة.. ترقص لأول مرة.. نجمة المستقبل: دلال وظهرت (دلال) على المسرح، فتنة من مفاتن الله.. ودوت الأكف بالتصفيق، إلا كفين اثنتان جمدتا في حجر صاحبهما هما كفا الشاعر الهيمان أتعرفون من هي نجمة المستقبل التي أسموها دلال؟

إنها ريفية الفيوم!

ريفية الفيوم الساذجة الحيية، غازلة الطواقي والجوارب والكوفيات بجوار عربة أبيها بائع الفاكهة.. التي لا تحسب الأيام والشهور إلا بمواسم الفاكهة وطلوع الهلال واكتمال البدر.. والتي لا تتطلع إلى أحد إلا وهي نصف مطرقة على استحياء.. تقف الليلة نصف عارية على المسرح.. لترقص في سوق الغزل فماذا فعل شاعرنا.. العاشق القديم؟

٣- مأساة دلال

وانتهت رقصة (دلال).. ونزلت الستارة بين دوي التصفيق وهتافات الإعجاب وراحت العيون الجائعة تتطاول وتحاول أن تخرق الستارة لتنال مزيدا من النظرات إلى لحم هذه الحمامة البيضاء. أما شاعرنا.. فقد أفاق من غشيته على نزول الستارة.. فلم يتنبه إلى أنها قد لمحته بين الجماهير وهي ترقص، فاضطرب قلبها، ولكنها تماسكت حتي انتهت رقصتها، فلاذت بالفرار إلى الكواليس، ومن الكواليس إلى مكان خفي وراء المسرح، حتى تتجنب قسوة الموقف المرتقب وتسلل شاعرنا إلى الكواليس يبحث عنها وسأل عمال المسرح عنها.. عن هذه التي يسمونها (دلال) وبحثوا عنها في كل مكان، فلم يظفروا بها وعاد الشاعر إلى بيته يحمل الصدمة..إنها ليست صدمة حب.. فقد انتهت قصة حبه لريفية الفيوم.. انتهت منذ الليلة الأولي لعودته إلى القاهرة.. حين بدأت قصة حبه الكبير للفنانة اللامعة.. قصة العمر كله![1]

ولكنها صدمة على أية حال، أن يري المرء امرأة أحبها يوما ما وهي أطهر من ملاك، ثم يراها بعد لك شبه عارية ترقص للجياع المخمورين وأصر على أن يراها.. وإذا كانت قد اختفت بالأمس، فإنها لن تملك أن تختفي كل يوم، وتهجر الطريق الذي اختطته لنفسها.. لتكون نجمة المستقبل كما قالوا بالأمس!

ومنذ ساعة مبكرة.. ذهب شاعرنا إلى روض الفرج، ورابط جانب باب الدخول وأقبلت ريفية الفيوم.. أو (دلال) كما سموها بالأمس وفوجئت به يقف أمامها وجها لوجه.. وشهقت شهقة طويلة كاد يتمزق لها صدرها وصاحت باسمه.. وصاح باسمها.. باسمها الحقيقي!

وسألها ما الذي قادها إلى هذا المصير؟

قالت له ببساطة: الأيام فاطرق محزونا، وقال: نعم.. أنت تسميها الأيام، وأنا

أسميها الليالي وتمتم ببيت من القصيدة التي رويتها لكم... التي نظمها من وحيها وهو جالس في مقهي (الكابولاد) بباريس:

لست أخفي عليك إني أنساك ولكن اخشي علينا الليالي أجل.. الليالي ما أعجب الليالي... التي انسته حبه القديم ودفعته إلى حب جديد الليالي.. التي حملتها مع تيار النيل من بحر يوسف إلى روض الفرج وجلسا. يستعيدان ذكريات الماضي، وروت له كيف رحل أبوها من الدنيا أثناء غيبته بباريس.. وكيف تزوجت وساء حظها في الزواج.. وكيف نزحت إلى القاهرة.. وعاشت حياة..وعرفت رجالا... إلى أن قادها القدر إلى صداقة طيبة قائمة على التعاطف والود.

ومرت الأيام والشهور.. وحن شاعرنا ذات ليلة إليها، فذهب يلتمسها في روض الفرج، فلم يجدها وسأل عنها من هناك، فقالوا:

- عقبال عندك.. لقد أصبحت مليونيرة وبت... وتساءل:

- مليونيرة.. كيف؟

قالوا له:

- لقد تزوجت واحدا من كبار الأغنياء.. وأخذها واختفى بها من هذا الجو.

ومرة أخري.. مرت الأيام والشهور وكان شاعرنا ذات يوم يزور ملهمته الجديدة..الفنانة اللامعة.. فوجدها تستعد للسفر إلى الصعيد، لإحياء حفلة في إحدى عواصمه.. في بيت أحد الأثرياء وقالت له أتأتي معي!؟ قال لها: ولكني لا أعرفه قالت: ولكنه يعرفك.. الدنيا كلها تعرفك وتحبك وتعتز بك وأخذ حقيبته، وسافر معها إلى الصعيد وفي المساء، بدأت الحفلة.. وجاء صاحب البيت- أو القمر على الأصح- يحيي الفنانة اللامعة ومن معها، فقدمت له الشاعر الموهوب، فاحتفي بمقدمه أيما احتفاء وغاب صاحب القصر لحظات، ثم عاد ومعه زوجته، ليقدمها للفنانة اللامعة والشاعر الموهوب أتعرفون من كانت زوجته؟ أنها هي بعينها.. ريفية الفيوم.. أو دلال كما كان اسمها في روض الفرج!

وكانت المفاجأة الثانية في قدر الشاعر!

المفاجأة الكبري.. له ولها! ووقفا مبهوتين لحظة.. ولكنهما حاولا أن يفيقا بسرعة ويمد كل منهما يده للآخر قائلا: تشرفنا يا أفندم.. ومرت الليلة بسلام.. وكدأب الزمن دائما.. مرت الأيام والشهور.. والسنوات.. السنوات الطوال وكانت الدنيا قد تغيرت.. الليل أصبح نهارا.. والمملكة أصبحت جمهورية.. والاستعمار أصبح حرية.. كل شئ تغير.. فكيف لا نتغير؟

كيف لا يرسم الزمن على ملامحنا غضونا، ويقذف رءوسنا بالشيب، ويرسم تحت عيوننا ظلالا سوداء؟ وذات ليلة.. ذهب شاعرنا إلى ملهمة حياته.. الفنانة اللامعة، فوجدها في غرفة الاستقبال، ومعها سيدة متقدمة في السن، في ثياب سوداء، وقد رسمت عليها السنون كل ما تملك من خطوط الشيخوخة والشقاء والبؤس والحرمان وحمله الحياء على أن يحييها من بعيد، بهزة رأس، ويجلس في ركن من الغرفة، ليترك السيدتين تتمان ما كانتا فيه من حديث ولكن الفنانة اللامعة التفتت إليه تسأله:

- لماذا أنت بعيد هكذا؟ لماذا لا تقترب وتسلم على فلانة..؟ فلانة.. ريفية الفيوم؟ أهذه هي؟ أهذا ممكن؟ وماذا فعلت بها السنون؟ لقد مات زوجها بعد أن أضاع أكثر ثروته. وضن عليها ورثته بنصيبها مما بقي من هذه الثروة.. وطردوها من البيت وجاءت إلى الفنانة اللامعة تسألها أن تمهد لها سبيلا إلى لقمة العيش!

وفعلت.. ولكنها لا تستطيع أن تفعل كل شيء وفعل الشاعر أيضا.. ولكنه لا يستطيع هو الآخر أن يفعل كل شيء.. أن ريفية الفيوم لا تزال على قيد الحياة.. تعاني شظفها في هذه الشيخوخة المجدبة.

لولا ليلة الرومانس

كلما سمعت كلمة لو ازددت إيمانا بمشيئة الله، وإرادة القضاء والقدر، وقلت لنفسي إن هذه الكلمة الصغيرة.. (لو) المكونة من حرفين اثنين، مغرية... مغرية جدا.. تستطيع لو صحت أحلامها أن تغير مصائر الناس ولكنها لا تعني شيئا بالمرة أمام مشيئة الله وإرادة القضاء والقدر لو لم نلتق- صاحبي وأنا- في تلك الليلة العابرة منذ نحو عشرين سنة.. لما انتهت هذه الشابة الفاتنة.. صاحبة أجمل وجه وأجمل جسد عرفته الشاشة.. إلى أسوأ مصير ينتهي إليه إنسان: قطعة من الفحم المحترق! وقبل أن أحدثكم عنها.. دعوني أحدثكم عنه.. عن صاحبي هذا الذي التقيت به في تلك الليلة على غير موعد. كان بكل ما فيه من جمال وشباب وجرأة وذكاء، وحسنات وأخطاء، فلتة من فلتات الدهر كان يصنع أشياء عجيبة، لا يستطيع أن يصنعها إنسان سواه وكان يحب الحياة، ويحب أن يستمتع بكل دقيقة من عمره، وينفق في سبيل ذلك آخر درهم في جيبه ولا يفكر في غده أبدا وفي حياته أحداث مثيرة، لم تقع لأحد غيره في هذا العالم الصاخب.. عالم الفن... لقد عرف المجد كما لم يعرفه أحد، يوم أن خرجت مصر كلها تصفق له وتهتف باسمه وهو في أول الشباب!

وعرف المهانة يوم أن وقف أمام المحكمة في قضية كبري، اهتز لها الرأي العام، وسمع النائب العام يطلب له حكم الإعدام!

ولكنه نجا من المقصلة.. وعاد إلى الحياة الصاخبة ليزيدها صخبا بحادث آخر احتل الصفحات الأولي من الصحف.. يوم أحب حبا كبيرا وقد أحب كما لم يحب أحد غيره... أحب أكثر من واحدة من أجمل نساء مصر.. ولكن هذه الواحدة التي اقترن اسمها بالحادث الكبير.. علمته كيف تكون الغيرة في أوجها، وهو الذي اشتهر بأنه لا يغار من أحد بل يغار الجميع منه، إلى حد أنه لم يملك أن يواجه الموقف إلا بالرصاص..

يطلقه عليها، ثم يطلقه على نفسه! ومع هذا.. فإن أحدا منهما لم يمت.. وانتهت القصة.. لتبدأ في حياته قصة جديدة هي التي أرويها لكم اليوم... كنا في الصيف والتقيت به، بمحض الصدفة وقال لي: (القلوب عند بعضها.. هل تتصور أنني كنت أبحث عنك في كل مكان؟) قلت له: (خيرا) قال: (أريد أن أقرأ عليك القصة التي أستعد لإنتاجها، لعل لك رأيا فيها.. ولعلي أجد عندك نهاية أخرى لها، فإنني غير مقتنع بالنهاية كما وضعها المؤلف) قلت له: (الواقع أنني مرهق.. هارب من زحمة العمل القاهرة.. فدعني أستريح هذا الأسبوع.. وأنا تحت أمرك في الأسبوع القادم)

قال: (وماذا تصنع الليلة؟) قلت له: (أنا ذاهب إلى الرومانس.. أنا في حاجة إلى شيء من الموسيقى)

قال: (وأنا معك) كان الرومانس يومئذ يعج بالحياة والشباب.. وكانت تحتشد إليه كل ليلة أجمل الوجوه القادمة من القاهرة للاصطياف، إلى جانب أجمل الوجوه السكندرية، من بنات الأجانب اللائي كن قوام الحياة الاجتماعية في المدينة قبل الثورة وجلسنا- صاحبي وأنا- في ركن هادئ، والموسيقى تتسلل إلينا من بعيد وبدأ يستدرجني بذكائه الجبار، حتى أوقعني فيما يريد... بدأ يروي لي قصة مثيرة، على أنها قصة واقعية كانت في القصة أحداث لا معقولة، لا يستسيغها منطق الحب. ولكني لم أستغربها منه، لأن كل شيء في حياته كان من لون اللامعقول.. وقبل أن ينتهي من القصة، جمدت عيناه وهما تتركزان على شلة داخلة إلى الرومانس.. فيها شابة في نحو العشرين، من المؤكد أنه لو أقيمت مسابقة للجمال في الإسكندرية يومئذ، لفازت هذه الشابة بعرش الجمال بغير منازع وتأملتها قليلا، وسبحت بحمد الفنان الأكبر الذي أبدع هذه الصورة.. سبحانه وتذكرت قول بيرم التونسي وهو يناجي ربه بزجل بديع يقول فيه:

بذمتي أنت جاذبني... يا معذبني	ويااللي ذوقك يعجبني
لما تصور... لك صنعة في العين والحاجب	بها تتعاجب
وتقول وجود الله واجب	مين به يكفر
ولك يقلدك بحجر ورخام	غلب الرسام
قوالب في الأجسام	يلقاك أشطر

واقتنعت بنظرة إلى هذا الجمال كله.. أخذا بالمقولة المأثورة: النظرة الأولى لك، والثانية عليك أما صاحبي، فقد تاه منه الحديث، ونسي بقية القصة التي كان يرويها لي- والتي اتضح لي فيما بعد أنها قصة الفيلم الذي يهم بإنتاجه- وبقيت عيناه مجمدتين على هذه الشابة الفاتنة أكثر من ساعة، وهو صامت لا يتكلم، كأنما نومه جمالها تنويما مغناطيسيا ولم يفق من ذهوله إلا حينما لمحه مدير الرومانس من بعيد وجاء يحييه .. فسأله صاحبي : "من تكون هذه الشابة" ؟

قال الرجل ضاحكًا: " لا تتعب نفسك معها .. إنها مسافرة غدًا .. إلى غير رجعة"

قال صاحبي منزعجًا: إلى أين؟

قال الرجل: "إلى قبرص .. لتتزوج هناك .. فإن خطيبها، وهو شاب قبرصي تعرف إليها في الشتاء الماضي بالإسكندرية، ينتظرها هناك لإتمام الزواج. وستسافر غدًا وهؤلاء أصدقاؤها في الإسكندرية يحتفلون بوداعها الليلة"

قال صاحبي، وكأنه يهمس لنفسه: "لا .. لن تسافر أبدًا"

وانصرف مدير الرومانس ..

ويقيت أنا في صمتي لحظات، قطعها صاحبي بقوله في إصرار "سأكلمها"

قلت له : " لاتكن أحمق، ولا تثر فضيحة جديدة من فضائحك فإنها ليست وحدها"

قال: "سأكلمها .. مهما يكن"

ويقى طول الليل يرمقها بعينيه، إلى أن نهضت الشابة إلى المكان الذي تستطيع فيه أن تصلح من "ماكياجها" .. وإذا بصاحبي يقفز من مكانه، ويسرع إليها ويقف في وجهها معترضًا سبيلها قائلًا لها: بونسوار مدموازيل

قالت له : "هل أستطيع أن أعرف من أنت؟ "

وذكر لها اسمه، فهزت كتفيها وحاولت أن تمضي إلى سبيلها . ولكنه لم يفسح لها ثغرة تنفذ منها .. وأضاف قائلًا:

أنا منتج سينمائي .. هل تحبين أن توقعي عقدًا قيمته ثلاثون ألف جنيه كل سنة؟

...ثلاثون ألف جنية؟ !

داخت الفتاة من سماع هذا الرقم الذي لم تسمع به في حياتها وانتهز صاحبي فرصة هذا "الدوخان" .. وأفسح لها الطريق، قائلًا:

- فكري في الأمر يا آنسة .. وإذا راق لك هذا العرض، فأنا على هذه المائدة .. مع هذا الصديق وأشار إلى المائدة .. التي تركني عليها وحدي.

بعد عشر دقائق، كنا ثلاثة حول المائدة- هو وهي وأنا- وتحدثنا كثيرا، وقال لها في النهاية، الآن.. تستطيعين أن تعودي إلى أصدقائك. وأمامك الليل بطوله للتفكير في الأمر.. وهذا رقم تليفوني. فإذا وافقت على العرض، فاتصلي بسكرتيري في الصباح ليرسل لك سيارتي لتأخذك إلى مطار الدخيلة.. عندي هناك طائرة خاصة.. وفي مطار القاهرة ستجدين سيارتي (الكورد) في انتظارك، أما أنا، فستجدينني في مكتبي في أي وقت، وهذا هو العنوان وقدم لها بطاقته.. وقالت وهي نصف ذاهلة:

- وتذكرة قبرص ماذا أصنع بها؟

- هذا من شئونك الخاصة وقال لي: ياللا بينا.. ثم التفت إليها قائلا:

- متأسف يا آنسة.. أنا مضطر إلى تركك الآن.. لأعود إلى القاهرة

- متي؟

- الآن

وعاد إلى القاهرة بعد منتصف الليل.. أما هي، فلم تنم طول الليل!

كان الرقم ٣٠,٠٠٠ يتراقص أمام عينيها طول الليل ٣٠,٠٠٠ جنيه كل سنة، رقم كفيل بأن يغنيها عن ذلك العش المتواضع الذي ينتظرها في قبرص، ويعبد لها الطريق إلى كان ونيس ودوفيل وفوق ذلك: مجد، وشهرة، وأضواء ولكن.. هل يمكن أن يكون ذلك كله حلم ليلة صيف؟... هل يمكن أن يكون كل ما سمعته الليلة أكذوبة كبري؟... على أية حال، فلتنتظر حتي يطلع الصباح وطلع الصباح ودقت التليفون.. وجاءت سيارة (بويك) فاخرة حملتها إلى مطار الدخيلة وفي المطار، وجدت الطائرة الخاصة.. وفي مطار القاهرة، وجدت السيارة الكورد.. ووجدت سكرتيرا ثانيا يسألها عما إذا كانت تريد أن

تستريح قليلا وسألته: (أين أستريح؟) قال: كما تشائين يا سيدتي.. وعرض عليها أربعة حلول:

شقة فاخرة بعمارة اسيكورا زيوني بشارع عماد الدين.. أو فيللا أنيقة بشارع الهرم.. أو عائمة على النيل.. أو جناح بفندق سميراميس ولأمر ما اختارت الشقة الفاخرة وبدأت قصة الحب.. ثم بدأت الفن.. وعاشت هذه الفاتنة في دنيا الفن، كأجمل وجه وأجمل جسد على الشاشة وفجأة.. طلعت الصحف ذات صباح، وعلي الصفحات الأولي منها صورة جثة محترقة.. احترقت في طائرة قادمة من الإسكندرية إلى القاهرة، فلم يبق من معالم كل ذلك الجمال إلا قطعة من الفحم!

وقرأت الخبر.. ودمعت عيناي.. وقلت لنفسي.. لو لم تذهب إلى الرومانس في تلك الليلة... ولكن.. ما قيمة (لو).. أمام مشيئة الله![1]

بيرم

منذ أربعين سنة أو نحو ذلك – قالها بيرم ولم يقلها همسًا، بل قالها مرتفعة مجلجلة مدوية، حينما أغري الإنجليز نفرًا من رجال الأزهر وشيوخ الطرق الصوفية- بكل أسف- بأن يحاربوا الحركة التعاونية التي كان يبشر بها رائد التعاون في مصر، المرحوم عمر لطفي، فراحوا يحرضون الناس على أن ينفضوا من حول عمر لطفي وحركته البلشفية وكان على رأس هؤلاء الشيوخ،الشيخ (...)، فكتب بيرم مغضبًا يقول له:

جماعة شافوا الغلابة ميتين من الجوع
حنوا عليهم وقاموا وضبوا مشروع
جاي أنت بتقول دا دين البلشفيك ممنوع
وايش دخل البلشفيك في نجدة الإنسان
لا في الجوامع رأيت مثلك ولا في الدير
عالم ومسلم وبتعارض في فعل الخير
مادام فضيلتك بتاكل كستليتة وطير
يبقى الدريس والدرة والفجل للخرفان.

عاش بيرم يقاسي شظف العيش طوال زهرة العمر، ولم تواته النعمة إلا في أخريات أيامه، بعد أن أدركته الشيخوخة وأثقل عليه المرض، فلم تعد للمال لذته وروي لي رامي أنه رأي بيرما قبيل وفاته بأيام في دار الإذاعة يتسلم بضع مئات من الجنيهات لقاء بعض نتاجه وأمسك بيرم بالمال يهزه في راحتيه، ويتأمله في ابتسامة مرة، ويقول لصاحبه:

- شوف يا رامي: وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

كانت الدنيا حربا عليه منذ طفولته إلى أن عاد من المنفي، ولهذا بقيت في فمه مرارة الحرمان- حتي بعد زوال الحرمان- بقية حياته، وأشهد ويشهد كل عارفيه أن أحدا لم يره يضحك مرة واحدة!

عرفت بيرما في منفاه، بالمراسلة وقصة ذلك، أنني كنت إذ أنا طالب بالجامعة، عضوا بجمعية (أبوللو) للشعر، التي كان يرأسها أمير الشعراء، ويتولي الدكتور أحمد زكي أبو شادي أمانتها وكان شوقي يتعشق أدب بيرم وكان أبو شادي لايفتأ يحدثنا عن بيرم ويروي أدبه وكان بيرم يومئذ في باريس، يتلوي من الطوي، ويعمل في مصنع للبيرة وقر رأي جماعة أبوللو على أن تصدر مجلة للأدبِ الشعبي، اسمها (الإمام)... يحررها بيرم من منفاه، من الغلاف إلى الغلاف، لا يشاركه فيها أحد بكلمة واحدة ووافق بيرم، فكان يرسل لنا مواد المجلة بطريقة سرية، ونرسل له أجره بطريقة سرية، خشية أن تتسرب المواد القادمة والنقود الذاهبة إلى السلطات الساخطة على بيرم فتصادرها وحين عاد بيرم من منفاه متسللا متخفيا، كنا نلتقي به سرا في بعض مجاهل حي السيدة زينب ثم رفع عنه الحظر وظهر في المجتمع، وأقبل عليه الكثيرون من معجبيه يجالسونه ويصاحبونه ويسامرونه ولكن أكثرهم مالبث أن انفض عنه، لجهامته وقلة ابتسامته، ومرارة حديثه، وسوء ظنه بالناس، إلى حد أنني شهدت له ذات يوم موقفًا قاسيا مع صديق عمره شيخ الموسيقيين زكريا أحمد، يصرخ فيه بيرم في وجه صاحبه:

- بأي حق تأخذ أنت من الإذاعة ثلاثتة جنيه أجرا على أغنية أؤلفها أنا بعشرة جنيهات... ولولا أنني أؤلفها ما وجدت ما تلحنه؟

واحتمل زكريا، رحمه الله، قسوة العبارة على مضض وكنت أقول لمحبي بيرم وهم ينقضون عنه، ويلحاه بعضهم في الصحف:

- افهموه يا ناس... وقدروا قسوة ماضيه عليه... وارحموه واغفروا له

وقد كنت أغفر لبيرم هناته، وأحتمل غلظته، وأدفع عنه قول الغاضبين منه، وذات يوم صدر لي كتاب اسمه (ملوك وصعاليك) وفيه فصل عن بيرم كله تمجيد لأدبه وعندما قرأ بيرم هذا الفصل، وكان في بيت زكريا، هز رأسه، وقال لصاحبه:

- يا شيخ زكريا.. هو صالح جودت ده حد مسلطه علي؟

- ليه؟

- يا أخي دا نازل مدح في بمناسبة ومن غير مناسبة... لازم حد بيديله فلوس علشان يمدحني!

إلي هذا الحد كان ظنه بالناس!

وأذكر مرة أنني قابلته في الطريق محزون النفس، فسألته عما به، فشكا لي من كثرة الألسنة التي تتطاول عليه في الصحف، فاستدرجته معي إلى مكتبي بدار الهلال وأخذت أسأله ويجيب، وأسأله ويجيب، وأسجل السؤال والجواب على الورق فقال لي: ماذا تصنع؟

قلت: آخذ منك الحجة في الرد على هؤلاء الذين يهاجمونك،لأكتبها في (المصور) فابتسم ونهض يقول لي:

- بأه جايبني لحد هنا عشان تاخد مني حديث تقبض فيه عشرين جنيه... وأنا مخدتش حاجه؟

ولم أغضب... ولكني أقسمت له أنني لا (أقبض) بالمقالة... بل إن لي مرتبا ثابتا لا يزيد منه ولا ينقصه أن أنشر هذا الحديث أو لا أنشره، وكل غايتي من هذا الحديث أن أدافع عنه وصدقني، واطمأن، وجلس، وواصل حديثه!

كان حنينه إلى الوطن- إذ هو في منفاه- ندا لحنين شوقي إذ هو في الأندلس وحينما يقول شوقي في سينيته المأثورة في حنينه إلى مصر:

اخـــــتلاف النهـــــار والليـــــل ينـــــسي
اذكـــــرا لي الـــــصبا، وأيـــــام أنـــــسي
وطنـــــي لـــــو شـــــغلت بالخلـــــد عنـــــه
نـــــازعتني إليـــــه في الخلـــــد نفـــــسي

فإن هذا الحنين في جذوته لا يقل عن حنين بيرم حين يقول بالدارجة:

عالـــــسين يـــــا مـــــصر مـــــشيت
يمكـــــــــــن يـــــــــــسليني

فيهـــــا عــــــشق جوليــــــت
تركـــــــي عــــــلى صــــــيني
يامـــــا لقيــــــت ورأيــــــت
جمـــــــــال ينــــــــــسيني
واتفكـــــــــر الهـــــــرمين
تجـــــري الــــــدموع تــــاني

*****

أن بيرم- ولا سيما في سنواته الأخيرة- شديد التقوي، مكثرا للصلاة، وثيق الصلة بالله وثوق المنصوفة... وله في التصوف- على أسلوبه- ما لم يصل إليه ابن الفارض والبوصيري ومحيي الدين بن عربي بأساليبهم، ومن ذلك قوله يخاطب الله بكل بساطة مؤمنة:

بــــــذمتي انـــــت جــــاذبني
يـــــــــا معـــــــــذبني
ويــــــاللي ذوقـــــك يعجبنـــــي
لمـــــــــا تـــــــــصور
لـــــك صـــنعة في العـــين والحاجـــب
بهـــــــا نتعاجـــــــب
ونقــــول وجـــــود الله واجـــب
مـــــين بـــــه يكفــــر؟
ولـــــك قوالـــــب في الأجـــسام
غلـــــــب الرســــــام
يقلـــــدك في حجـــــر ورخــــام
يلقــــــاك أشــــــطر

ويأخذك من بيرم، بعد اشتراكيته ووطنيته وصوفيته، رقته... هذه الرقة الكفيلة بأن

تفرد لها دراسة كاملة، إذ أن هذه الرقة الراسبة في أعماقه، لم تكن لتبدو على سماته أو تخرج إلى تصرفاته إلا عندما يكتب... وعلي حلاوة غزله، وإبداعه في وصف المرأة، فإنه كان نظيرًا لأمير الشعراء في عدم إيمانه بالحب الواحد!

أن شوقي، الذي قال:

الحيـــــاة الحـــــب والحـــــب الحيـــــاة
هـــــو مـــــن فتنتهـــــا سر النـــــواه

والذي قال:

وعنـــــدي الهـــــوي، موصـــــوفه لا صـــــفاته
إذا ســـــألوني مـــــا الهـــــوي قلـــــت مابيـــــا

والذي قال في مجنون ليلي:

كـــــل شيء مـــــاخلا الحـــــب عبـــــث

شوقي هذا... لم يتعلق بحب واحد في حياته، بل كان يلقي في كل امرأة جديدة معني يأخذه ويترك صاحبته، مصداقا لقوله في موازنة بين لون الكونيداك والويسكي، هذا أصفر وذاك أحمر:

حمـــــراء أو صـــــفراء، إن كريمهـــــا
كالغيـــــد، كـــــل مليحـــــة بمـــــذاق

وكان يردد هذا المعني دائما لرامي حين يراه متشبثا بحبه لامرأة واحدة كان يقول له:

- يا واد سيبك منها... النساء دول معاني... اقطف المعني من الواحدة وسيبها على طول!

كذلك بيرم.. قال لي: إنه لم يعرف الحب مرة واحدة.. حتي في باريس مدينة الحب ومع هذا، فقد قال في الحب، وفي وصف المرأة، ما لم يقله شاعر ولا زجال.

******

وأعـود إلى المناقـشة الهادئـة التـي سـجلتها عـلى صـفحات العـدد المـاضي مـن (الهلال)... مناقشة المعركة الدائرة حول الشعر، قديمه وحديثه وبالهدوء نفسه، أقول إن لجنة الشعر حينما تصدت في مذكرتها للعامية في الشعر، لم يخطر ببالها قط أن تنكر الزجل، فالزجل في مستقل عن الشعر، له كرامته في دنيا الأدب، وله مكانته في قلوب الناس، خاصتهم وعامتهم والدليل على هذا أنني أحدثكم هذا الحديث عن بيرم، وأنا عضو في لجنة الشعر وإنما قصدت اللجنة إنكار تسرب العامية إلى الشعر، حرصا على سلامة الفصحي.. بهذه المناسبة، أقول إن بيرم عاش ما عاش، يفخر بأنه زجال، ولم يزعم يوما أنه شاعر، مع أن له شعرا كثيرا، جادا وفكها، ومع أنه ارتقي بالزجل إلى مستوي الشعر والفرق الوحيد بين الشعر والزجل، أن هذا نظم دارج، وذاك فصيح وعندي أن براءة الزجال من بضاعته، كبراءة الكاتب من قلمه، وبراءة الموسيقي من آلته وبالهدوء نفسه، نناقش مسألة القديم والجديد في الزجل، بعد أن أصاب الزجل في هذين العامين- لأول مرة في تاريخ الأدب- ما أصاب الشعر من عزوف عن القافية والوزن، باسم التجديد، وبحجة أن الشكل القديم لا يتسع للمضمون الجديد... لقد مارس بيرم جميع أوزان الزجل وقوافيه، سهلها وصعبها، ضمنها جميع المضامين الثورية:

ومن صعب ما خاض من البحور، هذا المثل:

حـاتجن ياريـت يـا خواننـا مـا رحتـش لنــدن والا بــاريز

دي بلاد تمدين ونضافة وذوق ولطافة وحاجــة تغــيظ

وهذا المثل:

يأهل المغني دماغنا وجعنا دقيقه سكوت لله

وجدد بيرم وابتكر في أوزان الزجل وأشكاله وقوالبه، دون أن يجترئ على التفعيلة، أو يتمرد على الوزن والقافية فأتي بالإعجاز الذي يتجلي في الكثير من مبتكراته، كمبتكره (الأوله) التي قلده فيها كثير من الزجالين، ومن نماذجها الأولي عنده، من نتاج المنفي:

الأولـه مـصر... قـالوا تونـسي وتفـوني جزاة الخير.. وإحساني

والتانيه تونس وفيها الأهل جحدوني   وحتي الغير... ماصافاني

والتالته باريس.. وفي باريس جهلوني   ونا موليير... في زماني

ومن أبدع مبتكراته في القالب الزجلي، هذا الأنموذج من نتاج المنفي، يصف به فاتنات الشارع الكبير (الجران بولفار) في باريس:

* شـــــوف الخفـــــــــه...
أم الـــــشعور اللفـــــه فــــوق اللفـــــه
غـــــير أم شـــــعر طويــــــل
* والمقـــــــــــــــصوعه...
ورجلهـــــا فــــوق أختهـــــا مرفوعـــــه
تــــــستنظر الطومبيـــــــــل
* والجرانـــــــــــــــــــه
مـــــن المعاصـــــم للكتــــــاف عريانـــــه
زي إلــــــلي غاســــــله غــــسيل
*والملفوفـــــــــــــــه...
بـــــاين عــــصبها والنهــــود مكــــشوفه
مــــــا خلــــــت إلا قليــــــل
* والمحتــــــــــــــاره...
بالــــشنطة والشمــــــسية والنـــــضاره
رايحـــــة عــــــلى التمثيـــــل
* والغنــــــــــــــدوره...
تحـــــسبها لـــــولا مـــــشيها صـــــنيوره
والا أم خـــــصر نحيـــــل
* طــــالع نــــــــازل...
لــــولا مــــا هــــي ماســـكه دراع الراجـــل
مــــن لمـــسة واحـــدة يميـــل

في هذا الزجل آية التجديد، فقد استخدم بيرم بحرًا واحدًا، استغله في كل مقطع من مقاطع الزجل على ثلاث صور، من البحر المكتمل ومجزوئين منه مختلفين، وسار في جميع المقاطع على نسق واحد متكرر

وهكذا شحن المقطوعة بالموسيقي، وجاء فيها بآية التجديد، دون أن يفسد جمال الوزن والقافية.

مثل هذا نقبله من كل زجال ومن كل شاعر، بل نفرح به ونهلل له من الأعماق.

الراقصة والملك

الذين لم يعيشوا العهد الماضي، لا يستطيعون أن يتصوروا ما كان يحدث فيه

كانت للملك سبع "جرسونيرات" في القاهرة وضواحيها" عدا جرسونيراته الكبيرة ... أعني القصور الملكية ... وعدا الاستراحات الحكومية التي طالما سخرها الملك للغرض ذاته.

من هذه الجرسونيرات السبع .. الجرسونييرة عجيبة .. كانت في الأصل مخبأ لقائد قوات الحلفاء أثناء الحرب الكبرى، في صحراء الهرم، تقع تحت الأرض، وتغطيها رمال الصحراء...

وكانت مجهزة على وجه يليق بمقام الفيلد مارشال الإنجليزي، قائد قوات الحلفاء ... فهي مكيفة الهواء مزودة بجميع أنواع الطعام والشراب والأغذية المحفوظة وأطقم الصيني والفضة والكريستال ... إلخ ... وفيها غرفة نوم ... وصالون ... وبار فاخر ... وقاعة للعب.

فلما رحل عنها الماريشال ... استولى عليها فاروق، وأضافها إلى أوكار ملذاته.

في هذه الجرسونيرة، كانت الليلة الأولى للراقصة الفاتنة التي نزلت عليها الستارة منذ سنوات قريبة ... ورحلت في صمت ... بعد أن زال عنها الشباب وذهب المال وذوي الإعجاب وانطفأت الأضواء.

*****

كنت يومئذ حديث عهد بالتخرج في الجامعة، وقد التحقت ببنك مصر كباحث اقتصادي. وكنت في الوقت ذاته أمارس هوايتي للصحافة الأدبية والفنية في ساعات المساء. وذات ليلة .. كنت في مكتب صديقي الدكتور "أ" رئيس تحرير المجلة الأدبية التي كنت أشرف على باب الشعر فيها ... حينما هبط علينا ناقد معروف، من أبناء بورسعيد، وجلسنا نتسامر في شئون مختلفة.

وروى لنا هـذا الصديق حكاية حدثت في الطريق، وهـو قادم من بورسعيد، خلاصتها أن صبية حسناء ... حسناء إلى حد باهر ... ركبت القطار من الإسماعيلية وجلست إلى جانبه في صالون الدرجة الثانية، ولم يكن بالصالون غيرهما فكان طبيعيًا أن يتحدثا معًا..

وتحدثا عن نوافذ الصالون ... هل تبقى مفتوحة أو تغلق ... ثم عن الجو ... ثم من أنت. ومن أنت... إلخ.

وقالت له إنها من أسرة دون المتوسطة في الإسماعيلية، وأنها يتيمة الأبوين، وأنها تقيم عند خالتها منذ سنوات، ولكن خالتها هذه فقيرة، تضيق بلقمتها، ولهذا قررت الصبية أن تركب القطار، وتذهب إلى القاهرة، التماسًا للقمة العيش.

ولكن ... كيف؟

إنها لا تدري شيئًا... لا تدري إلا أن القاهرة مدينة واسعة، رحيمة، ذات قلب كبير، ولن تضن عليها بلقمة العيش ... حتى كخادمة في أي بيت. وأشفق صاحبنا عليها...

وتأملها مرة أخرى...

إنها صبية فاتنة ... في ربيعها السادس عشر ... ذات غدائر كستنائية طويلة ... وعينين معسولتين حافلتين بالإغراء.

يستطيع صاحبنا - بدافع الإنسانية وحدها - أن يأخذها معه ويعود بها إلى بيته في بورسعيد.

ولكن المشكلة الكبرى أنه أعزب، وأنه خاطب، ودخول صبية كهذه، بكل هذه الفتنة، إلى بيته ... خليق بأن يثير حوله ألف مشكلة ويحرك ألف لسان.

ثم إنه يعرف خطيبته جيدًا .. يعرف أنها غيورة،حمقاء الغيرة، ولن تحتمل خادمة بهذه الفتنة لحظة واحدة ... لأي سبب إنساني أو غير إنساني.

وسألناه ماذا فعل

فأطرق لحظات ... ثم قال :

- لا شيء ... إنها تنتظر..

- أين؟

- هنا .. تحت .. عند البواب.

- وماذا أنت فاعل بها؟

- لست أدري...

وتحرك صديقنا الدكتور "أ" .. رئيس التحرير ... وقال لصاحبنا :

- أنا أنقذك من هذه الورطة .. لقد خرجت خادمتنا منذ أسبوع وقالت إنها ذاهبة إلى البلد ليومين اثنين ... وذهبت ولم تعد.

وتنفس الناقد الصعداء ... وهبط الرجلان، وسار الدكتور "أ" .. بالصبية إلى بيته .. وبقيت أنا بإدارة المجلة أراجع حصيلة الأسبوع من الشعر، وألقى بأكثره إلى سلة المهملات.

وألقت زوجة الدكتور أ ... – وهي إنجليزية – نظرة واحدة على الصبية، ثم هزت رأسها في عصبية، وحدجت زوجها بنظرة قاسية، قائلة في غلظة : NO.

وأدرك المسكين أن المناقشة معها لن تجدي، فأخذ الصبية من يدها، وعاد بها إلى إدارة المجلة.

وفوجئت بهما...

ودار الحديث بيني وبينه بالإنجليزية ففهمت ما حدث.

وسألته : وماذا تنوي أن تعمل؟

قال : هل تستطيع أن تأخذها إلى بيتك؟

قلت له: مستحيل .. إن زوجتي أكثر حماقة من زوجتك ... ألف مرة...

فهز رأسه .. وقال :

- حسنًا ... سأتركها تبيت هنا ... على هذه الكنبة ... وننزل ... وفي الصباح يحلها ألف

حلال وتركنا الصبية ... وكان النوم يرين على عينيها بعنف ... ولا شك أن النوم استغرقها بعد خروجنا بدقيقة واحدة على الأكثر.

*****

مصير هذه الصبية بعد ذلك عجيب...

في الصباح اتصل رئيس التحرير بالناقد الذي رزأه بهذه البلوى، يسأله أن يحملها في أسرع وقت، قبل أن تبدأ الحركة في إدارة المجلة.

وكان الناقد قد وجد الحل ... كان قد سهر ليلته في صالة بديعة ... مع الراقصة "ل" وقد قص عليها قصة الصبية الحسناء، فقالت له صاحبته:

- اخص عليك ... كنت هاتها لي ... وأنا بقى لي شهر مش لاقية خدامة.

وذهب الناقد من مطلع اليوم إلى إدارة المجلة، وأخذ الصبية، وذهب بها إلى بيت الراقصة "ل" ...

وطابت لها الحياة هناك.. حياة مرح ورقص وموسيقى ... وملابس كثيرة تخلعها عليها الراقصة "ل" ... وبقشيشات من المعجبين، بل ونظرات مقبلة من ذلك النوع المنحرف من الرجال، الذي يحب الخادمات الفاتنات.

وجعلت الصبية تذهب إلى الصالة مع سيدتها كل ليلة، تحمل لها حقيبة ملابسها، وتنتظرها في هذا الجو الصاخب إلى أن تنتهي الليلة فتعود معها إلى البيت. وأحبت الرقص... وبدأت تهز جسدها أمام المرآة.. وأحيانًا ... في غيبة سيدتها، كانت تمد يدها إلى بدلة رقص من دولاب سيدتها، وتلبسها، وتدير الجراموفون، وترقص وترقص وترقص وتطل بين الحين والآخر إلى المرآة تتأمل نفسها بإعجاب.

ومرة ... وهي سارحة في حلمها وصوت الموسيقى يذاع... فوجئت بسيدتها أمامها وهي على هذه الحال ... وببدلة الرقص.

ولم تغضب سيدتها ... ولم تغر ... كانت شابة طيبة القلب ... قبلتها قائلة :

- والله برافو عليكي يا بت فإنتي بيبجي منك أوي.

وصدقت نبوءة الراقصة "ل" ...

ولم تتم الصبية عامًا واحدًا في بيت الخدمة، حتى كانت هي الأخرى راقصة من نجوم صالة "بيجو بالاس" ... التي كانت تقوم في شارع عماد الدين في ذلك الوقت، ولا يفصلها عن صالة بديعة أكثر من عشر خطوات!

*****

وذات ليلة ... أقامت الأميرة شويكار – غفر الله لها – حفلة من حفلاتها الساهرة الصاخبة باسم البر .. البر المسكين .. وكان على رأس الحاضرين، الجالس على العرش.

وبدأ البرنامج ... وغني من غنى ... وعزف من عزف ... ورقص من رقص ... إلى أن جاء دور الرقص الشرقي، وكانت نجمته في تلك الليلة هي صبية الإسماعيلية ... الخادمة السابقة ... والنجمة اللاحقة "ع"...!

وصعدت إلى المسرح ... ورقصت وافتتن بها الجالس على العرش! واستدعى كبير الياوران. وأمره يحجزها لجلالته في آخر الليل.

وفي آخر الليل، كانت الخادمة السابقة، والراقصة اللامعة، مع الجالس على العرش في الجرسونيرة التي حدثتكم عنها في مطلع هذه الحكاية ... الجرسونيرة النائمة تحت الرمال في صحراء الأهرام!

*****

ومر أسبوع ... دون أن تظهر الراقصة "ع" ... على مسرح البيجو بالاس ... وجمهور الصالة والصالات الأخرى يتساءلون أين ذهبت...

وفي اليوم التالي كنت أنا أول من عرف السر الكامن وراء اختفاء الراقصة اللامعة حين زارتني في مكتبي ببنك مصر، لأساعدها على فتح حساب جار في البنك ... لأول مرة في حياتها ... لأنها – كما قالت لي – تملك خمسين جنيهًا لأول مرة في حياتها!

وأعددت لها الأوراق اللازمة ... وناولتني المظروف الذي يحتوي على الجنيهات الخمسين.

وقرأت على المظروف من الخارج هاتين الكلمتين : الديوان الملكي!

ولم تكن الحكاية في حاجة إلى استدراج لمعرفة سر هاتين الكلمتين، فما كدت أسألها:

- من أين لك هذا؟

حتى قالت لي ... بكل صراحة :- لقد أصبحت عشيقة الملك

وضحكت ... وقلت ساخرًا :- عشيقة الملك ... بخمسين جنيهًا؟

قالت :- يبدو أنه بخيل.

قلت لها :- أجر كم ليلة؟

قالت :- سبع ليال.

قلت لها :- يا بلاش!

امرأة وثلاثة رجال

كانت هي يومئذ .. هذه المغنية الصغيرة الحلوة ... فوق العشرين بقليل وكانت عذبة الصوت .. وكانت تحس بطاقاتها الكامنة.

كانت تحس أن فيها طاقات كبيرة كامنة، تنتظر أن تتفجر وتنطلق بها إلى القمة.

القمة ... هذا هو الحلم الذي عاشته الصغيرة بضع سنوات من فجر حياتها الفنية.

وفي سبيل هذه القمة، نسيت نفسها وشبابها وعواطفها.

كانت القمة هي حبها الكبير الذي تنشده ... فلم تبال هذه القلوب الكثيرة التي تبعثرت تحت قدميها، ولم ترحم تلك الدموع المدرارة التي انسابت من أجلها.

بين أصحاب هذه القلوب ... الوزير الكبير – من وزراء العهد البائد – الذي كان يبدو في عيون الناس كأن قلبه قد من صخر.

كان هذا الوزير الكبير يبكي بين قدمي المغنية الصغيرة كما يبكي الطفل مستضعفًا بين يدي أمه وبين أصحاب هذه القلوب .. فلان باشا ... عين أعيان مديرية الدقهلية ... الذي كان يغدق عليها الهدايا والذهب والفضة .. دون أن يحرك شعرة من رأسها .. لأنها لا تريد ذهبًا ولا فضة تريد القمة...

وبين أصحاب هذه القلوب، فلان ... وهو من أكبر رجال القصر .. وعلان .. وهو من أعلام الطب في مصر .. وترتان .. وهو قاضي القضاة.

ولكن المغنية الصغيرة ظلت على إصرارها .. لا تطلب إلا القمة .. ولا تجد في أهل الوزارة ولا أهل الغنى ولا في رجال القصر ولا في أعلام الطب والقضاة من يعيد لها طريق المجد أو يهيىء لها سلم القمة.

وأخيرًا .. أدركت الطريق، وعرفت مكان السلم.

أدركت أنها في حاجة إلى الشاعر الغنائي الذي تلتهب عواطفه بحبها، والملحن الذي يحترق قلبه من أجلها، والكاتب الذي يتأجج باللهفة عليها.

هؤلاء الثلاثة .. هم سبيلها إلى القمة .. فلتنشدهم .. ولتدخل في روعهم أن كلًا منهم هو الأثير عندها، والمستأثر بحبها .. إلى أن يتفانوا في تعبيد طريقها إلى القمة، ولا يهمها بعد ذلك أن تحترق قلوبهم وتتحول إلى رماد .. ما دام هذا الحريق ينير لها طريق المجد .. وما دام هذا الرماد هو مادة الأسفلت التي تعبد السبيل إلى القمة.

*****

هناك نوع من النساء – وهذا أفضل نوع من النساء – يستطيع أن يعطي عاشقيه كل شيء، دون أن يعطيهم شيئًا!

عملية خداع..

ولكنها عملية خداع ماهرة باهرة .. تستطيع بها المرأة التي من هذا النوع، أن تعلق قلوب الرجال حولها، وتقنع كلًا منهم بحبها، وبأنه هو الأثير عندها، والوحيد في حياتها..

ويسمع هو همساتها، ويلمس أطراف أناملها، ويشهد بريق عينيها، فيعتقد أنها أعطته كل شيء .. وتعرف هي أنها أعطته لا شيء!

وإذا أدركت الرجل نوبة أفاقته من هذه الغيبوبة. بادرته هي بشيء من الدموع .. فلا تلبث هذه الدموع أن ترده إلى غيبوبته، وتغرقه في سكرته باللا شيء .. الذي يحس هو بأنه كل شيء.

كانت الكاتبة "مي" من هذا النوع..

ولهذا تعلقت بها عشرات من أكبر القلوب في مصر : قلوب أحمد لطفي السيد وشبلي شميل وإسماعيل صبري وخليل مطران وعباس محمود العقاد وغيرهم من قادة الفكر في الجيلين السابقين.

لم يأخذ أحد منهم شيئًا منها .. حتى ولا قبلة .. ومع هذا. فما من واحد منهم لم

يحس أنها أعطته كل شيء.

هذا النوع من النساء نادر .. ولكنه لذيذ.

مثل هذه المرأة .. تستطيع أن تسميها "نصف قديسة" .. لأنها تعيش في جو صارخ بالحب، بجسد متماسك لم يمسسه بشر..

وتستطيع أن تسميها أيضًا "نصف شريفة" .. لأنها لم تعصم روحها عن الهوى، وإن عصمت جسدها عنه.

وحتى إذا التقت برجل خبير بنفسية المرأة، إلى الحد الذي يستطيع معه تمزيق قناعها، وأدرك أنها "نصف قديسة" .. أو "نصف شريفة" .. فإنه قد لا يملك أن يرفض حبها، وأن يقبلها على علاتها.

أعرف شاعرًا خبيرًا بالنساء، أحب امرأة من هذا النوع، وقال فيها: (*)

سيان إن أخلصت أو خنت	أني أحبك مثلما أنت
ألقي بك الأنثى إذا انفجرت	وأشم فيك براءة البنت
من أي طينة راهب نزق	يتعشق الدنيا تكونت؟
فيك الخطيئة والخلاص معا	يتلونان ... وكم تلونت؟
بطهارة العذراء ذبت تقى	وبلهفة الأنثى تزينت
ما بالوفاء كبرت في نظري	أو بالخداع صغرت
أو هنت أنت الحياة ... وكنت أجهلها	أن الحياة كما تبينت
ألقاك لي، فأقول يا ترفي	ولآخر، فأقول أحسنت..

لم نبتعد كثيرًا عن الموضوع، وإن استدرجنا حديث المرأة والشعر إلى هذا الحد.

لم نبتعد .. لأن صاحبتنا كانت من هذا النوع الفريد من النساء .. الذي يعطي كل شيء دون أن يعطي شيئًا .. ولأنها بحثت – أول ما بحثت – عن شاعر.

ووجدت أمامها شاعرين ... لا شاعرًا واحدًا .. يستطيع اسم أي منهما أن يمهد ثلث الطريق إلى القمة.

وألقت شباكها على الأول.

ولكنها بغريزتها الذكية أدركت لأول وهلة أنه لا يصلح لها، لأنه كان مشغولًا عنها بمغنية أخرى وتستطيع هي أن تخوض المعركة، وتستطيع أن تصرع الأخرى وتغتصبه منها.

ولكنها لا تحب خوض المعارك .. لأن المعارك تتطلب وقتًا، وهي تريد أن تصل إلى القمة في غير وقت.

وألقت شباكها على الشاعر الآخر .. ومن حسن حظها أنه كان يعيش في فراغ، ويتطلع إلى من يملؤه.

وكانت صاحبتنا أقدر النساء على ملئه..

وسرعان ما امتلأ الفراغ، وتحول الشاعر إلى قيس جديد .. إلى مجنون يسهر الليل ويدرس الفلك ويعد النجوم.

ثم بدأ دور البحث عن الرجل الثاني..

الملحن .. الذي يستطيع أن يمهد الثلث الثاني من طريق القمة.

ووجدت أمامها ثلاثة من الملحنين الشوامخ..

كان أولهم عظيمًا .. ولكنه كان مستغرقًا في حياة اللهو والليل والكأس .. وهي لا تريد أن تقرن اسمها برجل من هذا النوع، حتى لا يصبح اسمها على ألسنة رواد الليل واللهو والكأس .. وهي تعرف أن اسم الفنانة إذا لاكته ألسنة مثل هؤلاء الرواد، قام سد عال بينها وبين القمة.

وكان الثاني فنانًا ضخمًا، ولكنه كان – في كل ما اشتهر من غرامياته السابقة – مجنونًا في الغيرة، حتى لقد شرع مرة في قتل حبيبة له، كاد يدخل السجن لولا تدخل الكبراء في الأمر، تقديرًا لفنه وبقي الثالث.. وهو الآخر فنان عملاق .. ولكنه خفيف القلب .. وهذا هو المطلوب.

ووقع الرجل في الفخ بسهولة ويسر.

ويبقى الرجل الثالث ..

الكاتب المرموق، الذي إذا كتب كلمة عنها، رددتها الملايين .. وإذا وقع في حبها، فإنه سيكتب عنها كل يوم .. وحتى إذا كان الموضوع بعيدًا عنها، فإنه سيتسلل من شيء إلى شيء حتى يصل إليها، فيتحدث عنها.

وألقت شباكها على ذلك الكاتب المرموق – شفاه الله – الذي تعتبر قصة حياته "ألبوما" يجمع عشرات من النساء .. وأكثرهن من بنات الفن اللاتي بدأن معه صغيرات مغمورات .. وعلى سنان قلمه أصبحن نجمات لامعات.

كانت في حياته مجموعة كبيرة منهن.. كانت هذه هي هوايته المفضلة .. التي يعتز بها كما يعتز هاوي طوابع البريد بمجموعة جميلة من طوابع البريد وكانت صاحبتنا هي "الطابع" الناقص في مجموعة صاحبنا، الكاتب المرموق.

فما كادت تتسلل إليه، حتى فرح بها، وأقبل عليها، وفي حسبانه أنها ليست إلا "طابعًا" ناقصًا .. يأخذ مكانه في "الألبوم" .. ثم لا يلبث صاحب "الألبوم" أن يبحث عن طابع جديد.

ولكن القدر أراد أن يسخر منه ومنها هذه المرة.

أتعرفون ماذا حدث؟

احتشد الثلاثة .. الشاعر والملحن والكاتب حولها.

وبدأت المغنية الصغيرة – منذ العام الأول – تزحف نحو القمة.

وزحفت خطوتين أو ثلاثًا..

وبقيت نحو سبع خطوات.

ولكن القدر وقف بها عند هذا الحد..

لقد أحبت الكاتب المرموق، فلم تستطع أن تسترسل معه في عملية الخداع المعهودة..

وأحبها هو الآخر .. ولم يستطع أن يمارس معها حكاية الطوابع .. هوايته المفضلة.

في نهاية العام .. لم يستطع أحد منهما أن يقاوم.

وتزوجا..

وأصر هو على أن تترك الغناء، وتخرج من عالم الفن.

قبلت هي دون تردد .. لأنها أحست أن هناك قمة أخرى أجمل من القمة التي تنشدها قمة أخرى .. اسمها الحب!

حبيبتي
لا تمثلي في السينما

هو ... فنان كبير

فنان . يعشق القيم الجمالية العالية، ولا يؤمن إلا بالجمال ذي السمات الواضحة، فهو يكره الرمزية والسيريالية والتجريد.

وهو رغم كراهيته للشيوعية، يحب خروشتشوف .. بدافع ارتباطهما بمذهب واحد في الفن. فخروشتشوف هو الآخر يكره الفن التجريدي، وقد جاهر بهذه الكراهية أكثر من مرة.

مرة .. قال : "لو جاء بيكاسو إلى موسكو، ما اشترينا منه لوحة واحدة، فنحن نكره الصورة التي تظهر فيها عين المرأة في مكان بطنها".

ومرة أخرى .. قال : "إن الريشة التي ترسم الفن التجريدي هي ذيل الحمار".

وقد ضحك الفنان الكبير، الذي أحدثكم عنه اليوم، ملء شدقيه يوم أن قرأ هذه العبارة، وقال لي إن لها أصلًا من الواقع .. فمنذ سنوات قريبة، أقيم في باريس معرض للمصورين التجريديين.

وأراد أحد كبار المصورين الجماليين – أي غير التجريديين – أن يسخر من المعرض وأصحابه، فجاء بحمار، وشده إلى حائط، و"لغمط" ذيله بمجموعة مختلفة من الألوان، ثم نشر عند ذيل الحمار قطعة من القماش مشدودة في إطار، وجعل يضرب الحمار، فيحرك الحمار ذيله بما فيه من ألوان على وجه قطعة القماش، حتى تكونت عليها خطوط مبهمة مضطربة الأشكال والألوان..

وذهب الرسام الكبير بهذه اللوحة، وقال للمسئولين عن المعرض إنه يشترك بها في

معرض الفن التجريدي .. وأنها من رسمه.

وفرحوا بها فرحة كبرى وانهالوا عليها وعليه بالثناء والتقدير.

والأعجب من ذلك .. أن هذه اللوحة ظفرت بالجائزة الأولى في هذا المعرض .. وهي من رسم حمار!

ورغم عبادة صاحبنا – الفنان الكبير الذي أحدثكم عنه اليوم – للجمال الواضح في أعلى درجات صفائه ونقائه، فقد كانت تذهلني، كلما زرته في بيته بمصر الجديدة، لوحة عجيبة معلقة في غرفة نومه منذ ربع قرن.

لوحة زيتية كبيرة، لم يستطع هو أن يرسمها، فكلف صديقًا له من ألمع الرسامين المعاصرين بأن يرسمها له، بعد أن أعطاه كل مواصفاتها.

واللوحة تمثل "تورتاية" فاخرة .. أنيقة الألوان، محلاة بالقشدة والكرز، فهي جديرة بأن تحرك شهية كل ناظر إليها وتسيل لعابه بعنف .. لولا أن شيئًا فوق "التورتاية" يصد العين عنها ويبعث في نفس الناظر إليها شعورًا بالقرف والغثيان!

الذباب والصراصير سارحة فوق التورتة الفاخرة!

في حياتي .. لم أر أجمل من هذه التورتة .. ولا أقبح من اللوحة التي تأملتها أكثر من مرة وتساءلت بيني وبين نفسي أيستطيع هذا الفنان الكبير أن يجمع بين عبادته للجمال في أعلى درجات صفائه ونقائه .. وبين وضع هذه اللوحة في غرفة نومه (*).

وهممت أكثر من مرة بأن أجد جوابًا عن هذا السؤال دائمًا وأشعر أن وراء هذه اللوحة كثيرًا قد لا يحب أن يبوح به.

وقد صدق ظني ..

فمع كراهية صاحبنا للرمزية وللقبح، فإن هذه اللوحة الرمز السحري الذي استطاع أن يشفي بها من أكبر محنة عبرت به في حياته.

*****

منذ بضعة أشهر ودع هذا الفنان الكبير الحياة.

ومنذ أيام، كنا نجلس جلسة شاعرية هادئة ..عزيز أباظة وأحمد رامي وأنا.

وكان معنا صديق لكنه كان أحب الأصدقاء إلى قلب ذلك القلب الكبير الراحل، جعل يحدثنا عن حياته وكفاحه ونتاجه وعتبويته.

وهنا .. تذكرت اللوحة وسألت هذا الصديق وتردد .. تردد طويلًا .. وكان يلوذ بالصمت .

وحكي لنا عن السبب حيث المعاناة وتذكرت بيتًا من الشعر لأمير الشعراء أحمد شوقي، من قصيدته في رثاء المرحوم محمد تيمور.

كان محمد تيمور أديبًا وشاعرًا وقصاصًا ومسرحيًا موهوبًا.

وكان - إلى جانب هذا - كريما إلى أبعد حد.

كان يجمع حوله الأدباء البائسين، ويطعمهم ويكسوهم ويغدق عليهم، وأحيانًا يأويهم - إذ هم بلا مأوى - في قصر أبيه أحمد باشا تيمور.

ولم يكونوا يقابلون بره وإحسانه إلا بالحقد والإساءة.

كانوا يطعنونه في ظهره، ويسخرون من أدبه، ويغضون من قدره .. حتى عانى في أواخر حياته القصيرة محنة نفسية قاسية من تقولاتهم عليه ولهذا رثاه شوقي بقوله :

سعهم، فأنت جمعتهم

والشهد مائدة الذباب

الشهد مائدة للذباب ..

و"التورتة" .. عند فناننا الكبير الراحل، مائدة الذباب والصراصير أيضًا.

هذه النجمة الحسناء التي عرضت عليكم بعض سماتها .. كانت أجمل شيء في حياة فناننا الكبير الراحل.

كانت "تورتته" الفاخرة .. عاشت معه أجمل سنوات العمر، تسعده وتلهمه.

كانت يومئذ مطلقة صغيرة، في أول الشباب، على قدر كبير من الفتنة .. وعلى قدر أكبر من الجهل.

ولكن صاحبنا تعهدها .. جعلها طفلته المدللة .. وكشف عنها عن ذكاء كبير فجعلها تلميذته الأثيرة .. وما زال بها يعلمها ويثقفها حتى أصبحت من أكثر فناناتنا ثقافة وإدراكًا ووعياً وحبًا للأدب والشعر والفن.

لم تكن لها يومئذ صلة بالفن .. ولكن الأضواء استهوتها واجتذبتها .. ووجدت من يقول لها : إن لك مستقبلًا لامعًا على الشاشة.

وراحت تهمس لعاشقها الكبير بحلمها الجميل على الشاشة، وأصر على الحيلولة بينها وبين حلمها الجميل.

وطاوعته .. وخرجت من عنده على هذا الوعد.

ولكنها قبل أن تصل إلى بيتها، عرجت على الرجل الذي قال لها : إن لك مستقبلًا لامعًا على الشاشة.

ومر الأسبوع .. وهي تتنقل بين المنتج والمخرج والمصور والاستوديو.

وحينما ذهبت إلى عاشقها الكبير في نهاية الأسبوع، قالت له باكية إنها لم تستطع أن تبر بالوعد.

وكتم ثورته، وأخذها من يدها برفق، وسار بها إلى الباب، ودفعها إلى خارجه بعنف، وأغلق الباب مقسما بأغلظ الأيمان ألا يفتحه لها مرة أخرى.

وبر بقسمه .. رغم كثرة المحاولات من جانبها .. ورغم عنف صراعه مع قلبه.

لم يعد يعرف بعدها طعمًا للقمة ولا لذة للكأس، ولا معنى للنوم.

والتمس سبيلًا إلى العزاء، في التطلع إلى صورها .. صورها الكثيرة المثيرة التي يحتفظ بها عنده.

إلى أن طرأت على خاطره فكرة في لحظة تأمل .. لعله استوحاها من بيت شوقي في رثاء محمد تيمور.

الشهد مائدة الذباب إنها الآن في السوق ..

"تورتته" الجميلة معروضة في السوق .. يزحف عليها الذباب .. والصراصير أيضًا.

وكان هذا هو سر لوحة التورتة .. والذباب .. والصراصير.

باعت الحب....

... أكتب لكم من العاصمة التشيكوسلوفاكية الجميلة "براغ" أكتب لكم حكاية قلب امرأة كانت يومًا ما راقصة من أجمل راقصات براغ... أتيت إلى براغ لأمثل جمعية المؤلفين والملحنين المصرية في مؤتمر الاتحاد الدولي لجمعيات المؤلفين والملحنين الذي انعقد في المدينة وفي حفل افتتاح المؤتمر، في بيت الفنانين، جاء مقعدي إلى جوار مقعد ملحن بولندي كبير، له عدة أوبرات رائعة مثلت عدة مرات في عاصمته "وارسو" وفي جميع عواصم الكتلة الشرقية، ومنها براغ... ولهذا كان الرجل موضع حفاوة الجميع.

وقبيل افتتاح الجلسة، كان هو الذي بدأني بالحديث، وذكر لي اسمه وبعض أعماله، فتذكرته على الفور.

تذكرت أنني سمعت عنه من الكاتبة البولندية الحسناء "أنا بوكوفسكا" عند زيارتها للقاهرة في العام الماضي.

وذكرت له اسمها، وأضفت أنها من أشد المعجبات بألحانه، فأجاب بأنه هو الآخر من أشد المعجبين بقلمها... وبجمالها أيضًا وكان الحديث عن "آنابوكوفسكا" صلة بيني وبين الرجل، جعلت كلًا منا يحس بأنه صديق، وأنه يعرف الآخر منذ سنوات ، لا منذ لحظات.

وسألني أين أقيم في براغ، فقلت له: في فندق انترناشيونال.. قال لي: صحيح أنه ضخم، وفخم، ولكنه ممل، والليل فيه ميت.

وأضاف أنه يقيم في فندق "يالتا" الزاخر بالحركة الحيوية، وفيه ناد ليلي أنيق، ورقص وغناء ودعاني إلى سهرة في نادي "يالتا" الليلي.

واستجبت لدعوته، وقضينا وقتًا طيبًا في حديث طيب عن الفن والموسيقى والغناء والحب والحياة، إلى أن بدأ البرنامج.

وكانت نجمة البرنامج هي الراقصة الفاتنة "ريناتا" وهي شابة حلوة في نحو الثانية والعشرين من عمرها، خضراء العينين، ذ ت جديلتين من الذهب، في حركاتها رشاقة الشياطين، وفي قسماتها طهر الملائكة.

وما كادت عيناها تقعان على صاحبي وهي ترقص، حتى تهلل وجهها بشرًا وحيته بكل خلجة من خلجات وجهها وجسدها تحية حارة.

قلت لصاحبي: يبدو أنك تعرفها جيدًا

قال: إنني أحب هذه المدينة الجميلة، وقد كنت كثير التردد عليها في أيام الشباب، منذ عشرين سنة، وكانت "ريناتا" يومئذ طفلة في المهد.

وأطرق الرجل، واستغرقته الذكريات حتى انتهت الرقصة، ودخلت "ريناتا" إلى مقصورتها فبدلت ملابسها ثم جاءت لتصافح صاحبي بحرارة وشوق.

وقدمني إليها، وجلست معنا.... وراحا يتحدثان باللغة التشيكية التي لا أحلم بأن أفهمها يومًا ما، وإن كنت قد فهمت من حديثهما – بالوايم – أنه يسألها عن أمها وأهلها وأصدقائها.

وانتهت الليلة كأجمل ما تنتهي الليالي البريئة.... وعدت إلى فندقي الصامت ذي الليل الميت، أستمتع بالأحلام وفي اليوم التالي، حننت إلى جو فندق يالتا فقررت أن أقضي السهرة هناك، وحدي.

وكان الوقت مبكرًا...

كانت الساعة الثامنة من المساء عندما وصلت إلى الفندق، ولا تزال هناك ساعة على الأقل، قبل أن يبدأ البرنامج في النادي الليلي، فآثرت أن أقضي هذه الساعة في شرفة الفندق، والتي لا يفصلها عن الشارع إلا لوح من الزجاج.

وجلست استعرض الرائحين والغادين ، إلى أن فوجئت بشبح جميل يقف إلى جانبي قائلًا بصوت يذوب رقة ونعومة: هاللو... والتفت ، فإذا هي "ريناتا"

وقلت لها: هالو ريناتا ألا تشربين معي قدحًا من القهوة؟

قالت: بكل سرور

وجلست، وسألتني عن صاحبي، فقلت لها إنه كان معي في المؤتمر حتى الساعة السابعة، ولكننا انصرفنا على غير موعد.

وراحت تحدثني عنه، وكيف عرفته منذ طفولتها لأنه كان صديقًا لأمها.

وانتقلنا من حديث إلى حديث، إلى أن لمحنا في الشارع امرأة قد لا تكون في السبعين، ولكن يد الزمن قست عليها فهدمت كيانها ورسمت على وجهها غضون السبعين.

كانت المرأة تتطلع إلى جدران فندق "يالتا" بعينيها الضيقتين في ذهول عجيب.

ورأت "ريناتا" اتجاه عيني وأنا اتطلع إلى هذه المرأة، فألقت عليها نظرة واحدة، ثم استدارت لتواجهني، قائلة: مسكينة. قلت لها: لعل لها مأساة.

قالت: نعم... إنني أسمي مأساتها تسمية عجيبة ... أسميها: ٢٠-٣٠-٤٠-٥٠

وضحكت لهذه التسمية، وسألتها عن سرها، فروت لي قصة هذه التعسة.

كانت هذه التعسة منذ ثلاثين سنة من أجمل نساء المدينة وكانت تشتغل هنا. في هذا الفندق... وفي هذا النادي الليلي كانت راقصة... ولعلها لم تكن رائعة من الطراز الأول، ولكن جمالها الصارخ رفعها إلى الطراز الأول.

ويومئذ... كانت هناك رأسمالية وإقطاع، وبذخ وإسراف، وحياة ليل صاخبة يسيل فيها الذهب كما تسيل الشمبانيا كانت يومئذ في مثل سني... في العشرين أو أكثر قليلًا... وكانت قلوب الأغنياء من الثراة ورجال المال والأعمال تتناثر تحت أقدامها فوق طريق ممهد بالذهب والجواهر.

هكذا عاشت هذه السيدة في المدينة، كأنها ملكة غير متوجة ومرت السنوات وهي في سكرة الشباب، حتى انتهت مرحلة العشرين، وجاءت مرحلة الثلاثين.

وأحبها رجل من ثراة المدينة، وعرض عليها الزواج على أن تهجر الفن، لأنه شديد الغيرة عليها وترددت... ترددت كثيرًا .. لأنها تحب حياة الليل، ومشاغبة القلوب،

بإذلال الرجال، ولكنهما تزوجا في النهاية.

ولم تكن حياتها هادئة... ولكنه احتملها، ودفع ثمن هذا الاحتمال من أعصابه، لا من أجل حبها، فإن الحب قد مات في قلبه من فرط خيانتها له، ولكنه احتملها من أجل الطفلة البريئة الحلوة التي وهبها لهما الله ولكن.. للصبر حدود.

وقد نفد صبر الرجل يومًا ما، فطلقها، وكانت مرحلة الثلاثين قد انتهت، وجاءت مرحلة الأربعين. وبدأ جمالها يذبل، من آثر الليل والكأس والحياة الصاخبة، وبدأت الخطوط السود ترتسم حول عينيها، ويبدأ موكب المعجبين ينفض عنها، فلم تجد أمامها وسيلة إلا أن تشتري الحب بالمال، كما يشتريه عجائز الرجال.

وأنفقت.... أنفقت بسخاء على شبان لا رأسمال لهم إلا البدلة الأنيقة والشعر اللامع والجسد القوي.

ومرت سنة وراء سنة.... وذاب ماعندها من مال سائل ومجمد وحلى ومجوهرات، كما ذاب الشباب.

وبدأت تحس مرارة الكفاف.... وانتهت المرحلة، وجاءت مرحلة الخمسين.

جاءت في فترة تغيرت فيها معالم الحياة في المدينة فقد ذهب عهد الرأسمالية والإقطاع، وأصبحت اللقمة حقًا للكادحين وحدهم.

وذهبت تبحث عن زوجها القديم، لعله يغفر لها ويهبها لقمة العيش ... فوجدته هناك... في مكان بعيد عند قلعة "كارلشتاين".

ولم تجد عنده متسعًا من المغفرة، لأنه كان حاقدًا عليها، ولا متسعًا من المال، لأن الثورة الاشتراكية جردته من كل رأسماله الذي جاء عن طريق الحرام، فاضطر إلى أن يكدح لأول مرة في حياته، وأصبح عاملًا شريفًا في مناجم الحديد.

وعادت إلى براغ.... عادت لتهيم في شوارعها، ولا يفوتها أن تمر كل ليلة من هنا... من أمام فندق "يالتا" لتستنشق عبير عصرها الذهبي الذاهب، وتتغذى بالذكريات.

روت لي ريناتا القصة، ثم سكتت لحظة، وخيل لي أنها انتهت من حكايتها.

ونظرت إلى ساعتها، وقالت لي:- لقد جاء موعد البرنامج. ألا تأتي الليلة؟

قلت لها: لا أظن ... لأنني ذاهب لكتابة هذه القصة. إنني كادح كما تعلمين... ولقمة العيش عندنا للكادحين وحدهم... وأنا مطالب بقصة عن الفن والحب... أتأذنين لي بكتابة هذه القصة؟

وابتسمت ريناتا ابتسامة جميلة وقالت: ولم لا ؟ ولكني نسيت أن أذكر لك نهايتها. نسيت أن أذكر لك أن هذه المسكينة، هي أمي.

قلبي عليه.. وجسمي معه

قد يكون في حياة المرأة رجل واحد... وقد يكون في حياتها عدة رجال...

وقد يعبر بحياتها عشرات من الرجال، فتنساهم واحدًا بعد الآخر، ولكن يبقى بعد ذلك رجل واحد لا يبرح ذاكرتها أبدًا، مهما طال بها العمر، هو الرجل الأول في حياتها!.

هذا الرجل... تظل المرأة تحتفظ بشبحه في مخيلتها مهما تباعد به الأمد.

والفنانة التي أحدثكم عنها اليوم.. هي أنثى قبل أن تكون فنانة.

أنثى.. في حياتها عدة رجال ولكن عذابها الأكبر، أنها تريد أن تنسى الرجل الأول في حياتها، ولا تستطيع!.

الشذوذ موجود في كل جو... ولكنه أكثر ما يكون وجودًا في جو الفن.

وهذه الفنانة قد نشأت في بيت كل من فيه من أهل الفن.

حتى أبيها... ذلك الشيخ الطاعن في السن... الذي تراه فيغرك منه مظهر الملائكة.. كان يومًا ما فنانًا. ولكنه كان الشيطان نفسه إذا نزعت عنه ثوبه الكاذب وعندما ماتت زوجته... أم الأنثى التي أحدثكم عنها.. أسرف في الشراب حتى الثمالة.. وتلفت حوله ذات ليلة في أركان البيت وهو ثمل... فلم يجد أنثى في البيت غير هذه الصغيرة..

فكان الرجل الأول في حياتها!.

ذلك فصل من حياتها، انتهى منذ سنوات طويلة.

ولكنه كا فصلًا قمينا بأن يدمر نفسيتها، ويخرب شخصيتها، ويؤثر في إنسانيتها، ويعلمها الحقد والكراهية.

ولم تستطع بعد هذا بقاء في هذا البيت الشرير الذي تفتح عينيها فيه كل صباح على وجه الشيطان، فقررت أن تخرج إلى أي طريق.

وكان أقرب طريق إليها، هو طريقها إلى بيت أختها... التي هربت من البيت الشرير من قبل ... لتتجنب نفس المأساة.

هذه الأخت... كانت قد شقت طريقها في عالم الفن، فأصبحت نجمة لامعة يسيل الذهب تحت قدميها وتتوج الأضواء هامتها وتتناثر على طريقها قلوب المعجبين وفتحت لها أختها باب البيت، وأوتها إيواء كريمًا ولكن هذا الإيواء لم يكن ليسعدها لأن الحقد والكراهية اللذين يعيشان في أعماقها، كانا أعمق من أن تحل عقدتهما لقمة العيش.

مهما كان الحال في بيت أبيها، فإنها كانت السيدة الأولى في البيت.

أما هنا، فالسيدة الأولى هي أختها وهي هنا تعيش عالة على أختها تأكل من فضلها، وتلبس بقايا أثوابها، وتكلف رعاية أعمال البيت، فهي نصف خادمة ونصف سيدة.

وهؤلاء الرجال الذين يفدون إلى البيت كل ليلة، يحملون الهدايا والعقود والنقود، ويأكلون ويشربون ويضحكون ويصخبون... إنهم يمرون بها وهي تفتح لهم الباب، فلا يأبهون لها ولا يحسون وجودها... ولم كل هذا ؟

إنها جميلة!

أحيانًا تقف أمام المرآة، فتجد في نفسها كل المادة الخام لامرأة جميلة.. لا تنقصها إلا الثياب الأنيقة والحلى الثمينة التي تلبسها أختها... والماكياج الذي تزين به وجهها فيحولها من امرأة عادية، إلى نجمة سينمائية.

وذات يوم... وكانت أختها خارج البيت خطرت لها فكرة.... ودخلت إلى غرفة أختها، واقتحمت خزانة ملابسها، ولبست أفخر ما فيها ثم مدت يدها إلى درج الحلى والمجوهرات، فاختارت أبدعها ولبسته. ثم وقفت أمام المرآة، ووضعت البودرة والأحمر وطلاء العينين وطلت أناملها بالمانيكير .. وراحت تتأمل نفسها في المرآة .. فبهرتها الصورة... وكأنها ترى حقيقتها لأول مرة.

وهتفت لشخصها في المرآة:

والله أجمل من أختي .. ألف مرة

وفجأة جلجل جرس الباب وأحست بشيء من الخوف أن تكون أختها قد عادت فجأة... وخافت أن تفاجئها متلبسة بالجريمة. نظرت من العين السحرية المثبتة بالباب، فلمحت الطارق... إنه النجم الشاب الذي يتردد على البيت كل ليلة، وترشحه الشائعات الصحفية للزواج بأختها وتتهامس دوائر الفن بأن بينه وبين أختها حكاية حب لا تزال في أول الطريق.

واستردت المسكينة جأشها، وفتحت الباب بشجاعة واستقبلت النجم الشاب بابتسامة حلوة.

وما كادت عيناه تقعان عليها، حتى صاح بها:- أنت؟!

قالت بهدوء:- نعم أنا

قال:- والله.. أجمل من أختك ألف مرة.

نفس الكلمات التي هتفت بها لنفسها في المرآة منذ لحظات معدودة!

فوقف النجم الشاب يتأملها مبهورا ثم سألها:

- هل أستطيع أن أدخل؟

قالت له في خوف:

- لا ... إن أختي غير موجودة لا أستطيع.

وجمد في مكانه لحظة، ثم استدار وهو يودعها بنظرة والهة وجاء المساء...

وتوافد الأصدقاء على البيت على عادتهم كل ليلة وجاء النجم الشاب، فأسرعت إليه المسكينة عند الباب، تتوسل إليه ألا يروي لأختها أنها لبست لبسها وتزينت بزينتها في الصباح خشية أن تطردها من البيت ووعدها بالصمت ولكنه لم يصمت... بل ظل يتأملها أكثر من مرة طول الليل، ويختلق العذر بعد العذر للخروج من غرفة الجلوس، ليراها حيث هي في ركن منعزل من البيت، ويلقي إليها في كل مرة بنظرة حادبة أو كلمة

حانية.

وفي الليلة التالية جاء ومعه صاحب له من المخرجين المعروفين وفي الليلة التي تليها، ألقى قنبلة.. وفاتح أختها في الأمر قال لها.

- هل توافقين على اشتغال أختك بالسينما؟

وذهلت أختها، وصاحت:- أختي تشتغل بالسينما ؟

قال لها:

- وأي عيب في هذا؟ ... ألست أنت الأخرى نجمة سينمائية ؟

قالت بكلمات متلعثمة:- أجل .. ولكن ... هل تصلح...

قال بثقة: كل الصلاحية وأخشى أن أقول...

أراد أن يقول إنه يخشى أن يقول إن أختها أكثر صلاحية منها للسينما.. ولكن الكلمات ماتت على شفتيه قبل أن تنفجر وتفجر البيت وأطرقت الأخت الفنانة وقالت:

- على أية حال، أنا لا أمانع... وفي الحال... أبرز من جيبه العقد الذي كان معدًا، لا ينقصه شيء غير التوقيع.

وفي ابتسامة من ابتسامات القدر، وجدت الصغيرة الضائعة في يدها ألف جنيه!.

وفي الاستديو.. في ركن هادئ منه.. بدأت الهمسات بين النجم الشاب ونجمته الجديدة.

وقالت له:- ولكنك تحب أختي... وستتزوجها.. هكذا تقول شائعات الصحف؟

قال مستنكرًا:- أنا ؟ أنا لم أحبها أبدًا. كل الصلة بيننا هي الفن... وإذا فكرت في الزواج يومًا ما ، فلن أفكر في واحدة.. إلا أنت.

وصاحت صيحة سمعها كل من في البلاتوه:- أنا ؟

وانتهى حديثهما عند هذا الحد على أثر صيحة المخرج ببدء اللقطة.

ونجح الفيلم .. والفيلم الثاني .. والفيلم الثالث...

وقصة الحب مستمرة بين النجم الشاب ونحمته الجديدة.

إلى أن كان ذلك اليوم الذي اتضح فيه أنه حب من جانب واحد عندما سمع النجم الشاب أن صاحبته تذهب إلى بيت معين، في ساعة معينة من كل ليلة وأرسل عيونه تتبعها.

واتضحت الحقيقة المذهلة... أنها تذوب في هوى رجل آخر شاب متواضع.. يعمل وراء الأضواء في عالم السينما كمساعد إنتاج.. ويسكن في غرفة ضيقة فوق سطح عمارة سكنية وذهب النجم الشاب يعاتب صاحبته، فقالت له:

حسبي ما أعطيك من جسدي... إنني لا أعطيك إياه عن حب بل اعتراف بالجميل

هزيمة امرأة...!

رأيتها على شاطئ (المعمورة) هذا الأسبوع.. تجلس هادئة أمام كابينتها، والوقار يلف وجهها الذي ارتسمت عليه خطوط السنين، بهالة من الشعر الأبيض الفضي المضموم. ومن حولها. التف أحفادها الصغار يداعبونها ويحاولون أن ينتزعوا من يديها مجلة (الكواكب) لعلها تفرغ لمداعبتهم، وهي تنهرهم برفق، وتحاول أن تفرغ بكل حواسها لقراءة هذا الباب بالذات: "الفن والحب" وجلست أرقبها من بعيد، إلى أن انتهت من القراءة، وغامت على عينيها الذكريات... الذكريات البعيدة.. التي تعود بها إلى ماض عمره أكثر من عشرين سنة.. يوم لم تكن زوجة.. يوم أن كانت نجمة متألقة على أعظم مسارح العاصمة.. إلى أن حدث الحدث الذي بدل حياتها، وحملها على الكفران بالفن، وبمن يعيشون في دنياه.

*****

كانت أبرز سمات ذلك الممثل الكبير، أنه يحب التجديد في كل شيء.. حتي في مأكله ومشربه وملبسه. كان يأخذ دوره فيجيد حفظه عن ظهر قلب، ويؤديه أداء حسنا غير أنه كان يعود إلى بيته بعد نزول الستارة في كل ليلة، فيقدح زناد فكره باحثا عن شيء جديد يضيفه إلى الدور.. ككلمة رنانة.. أو حركة مبتكرة.. أو انفعال مؤثر وكانت في حياته امرأة.. هي تلك السيدة الوقور التي رأيتها على الشاطئ بين أحفادها في الأسبوع الماضي.. كانت في ذلك العهد في أول الشباب، وفي أجمل رونقه وفتونه وكان صاحبنا يحبها حب عبادة.. غير أنه – كما أسلفت القول – كان يحب التجديد.. حتي في مجال العاطفة.. فلم يكن يجد بأسا على تصرفه إذا هو تسلل من ورائها ذات ليلة، بأية حجة، ليختلس لحظة حب أو متعة مع ممثلة ناشئة، أو راقصة من الدرجة الثانية، أو متفرجة معجبة به.. دون أن تؤثر هذه الخلسة على حبه الكبير.. أما هي، فلم تكن تتصور شيئا من

هذا أبدا... كانت تتصور أن الحب الذي يربطها به، لون من العبادة التي تصل إلى حد التصوف والزهد في كل متعة من متع الحياة: إلا الحب الذي يعيشان فيه، ويتبتلان له.

*****

وذات موسم.. انضمت إلى الفرقة ممثلة جديدة.. كانت من قبل راقصة.. ثم ظهرت في دور صغير على الشاشة.. ولكنها استطاعت رغم ضآلة الدور أن تلمع، وأن تجتذب إعجاب الجماهير، وتسرق الأبصار من بطلة الفيلم نفسها.. إلى حد أن الناس كانت تخرج من الفيلم وعلى أفواهها الكلمات الضئيلة التي رددتها الممثلة ذات الدور الضئيل.. التحقت الممثلة الصغيرة بالفرقة... وأتيحت لها فرصة القيام بالأدوار الثانية، التالية لأدوار صاحبتنا الممثلة اللامعة ومنذ الليلة الأولي، أحس مدير المسرح والمخرج والممثلون.. والجمهور أيضا.. بأن هناك عدم توازن... وأن الحق يقضي بأن تكون الممثلة الجديدة هي صاحبة الأدوار الأولي، وأن تكون الممثلة القديمة هي صاحبة الأدوار الثانية ودبت الغيرة في قلب الممثلة الكبيرة ولكن عزاءها الأكبر كان في الحب.. خطر ببالها أكثر من مرة أن تستقيل من الفرقة.. وأن تعتزل عالم الفن كله ولكن خاطرا واحدا ردها عن هذا التفكير، هو أنها لا تستطيع أن تبتعد عن الجو الذي يعيش فيه حبها الكبير... وكان عزاؤها أن النجاح في الحب أكبر في حياتها من النجاح في أي مجال آخر وبدأت الصغيرة تثور، وتطالب بالأدوار الأولي.. أو الاستقالة من الفرقة وذات ليلة وصل شعورها بالثورة على هذا الوضع ساعة الصفر، فقررت أن تحسم الموقف.. إن سدا واحدا منيعا هو الذي يحول بينها وبين الأدوار الأولي.. هو ذلك الممثل الكبير الذي يحب بطلة الفرقة.. ومن أجل حبه لها يخصها بالأدوار الأولي... إذن لا بد أن تحطم هذا السد! واقتحمت مقصورته في المسرح قبيل أن ترتفع الستارة، وأغلقت الباب وراءها، وبدأت تحدثه بلهجة لم يسمعها من شفتي امرأة من قبل، ووضع الممثل الكبير أعصابه في ثلاجة، ورسم على شفتيه ابتسامة هدوء وتماسك، وراح يتملاها وهي ترغي وتزبد، وخداها يشتعلان غضبا فيزدادان حمرة على حمرة، وفتنة على فتنة، وهو يزداد بها افتتانا على افتتان وجاءت اللحظة التي أحس فيها الممثل الكبير بأن الكلمات توشك أن تذوب على شفتيها لتتفجر بدلها

الدموع.. فنهض من مقعده وئيدا، وأمسك بها من كتفيها برفق حتي لا تتهاوي وتسقط على أرض المقصورة ولكنها لم تسقط على أرض المقصورة.. بل سقطت بين ذراعيه.. واستغرقا في قبلة طويلة لا يعرف أحد منهما مداها، ولم يفيقا منها إلا على هذه الدقات الثلاث المؤذنة بموعد ارتفاع الستارة.

وارتفعت الستارة.. وبدأت المسرحية.. ومر المشهد وراء المشهد، والجميع في ذهول مما أصاب النجمة الصغيرة التي رشحوها للمجد عندما تلعثمت في كلماتها وتعثرت في خطواتها أكثرمن مرة... وأكثر من مرة نسيت كلمات دورها، وهرعت إلى الملقن تتوسل أن يسعفها بالكلمات، بعيون مستجدية وما إن نزلت الستارة بعد الفصل الأخير، إلا وكان أهل المجتمع يرثون لها وهي مستلقية على شزلونج مقصورتها في نصف إغماءة، غارقة في الدموع... وجميع أفراد الفرقة يواسونها ويشجعونها ويزعمون لها أن هذا شيء مألوف في حياة كل فنان.. وأن بين نوبات البريق نوبة انطفاء لا تلبث أن تزول ورفعت الصغيرة رأسها.. وقلبت عينيها فيمن حولها، فوجدت جميع زملائها محيطين بها... إلا اثنين: الممثل الكبير والممثلة الأولي... هما وحدهما اللذان لم يفكرا في الوقوف إلى جانبها في هذه المحنة هما وحدهما– كما سري إلى خيالها وهلة – اللذان تركاها حطاما ليذهبا إلى عشهما، وينعما بالحب.

وعادت الممثلة الكبيرة إلى بيتها في تلك الليلة وهي أسعد امرأة في الوجود وراق لها أن تشرب نخب نفسها، فوضعت زجاجة الويسكي أمامها، وشربت مرة ثالثة... في انتظار قدوم حبيبها ليشاركها سعادتها ويطبع على شفتيها قبلة النصر ولكن الزجاجة انتهت قبل أن يأتي حبيبها... ومال رأسها في إغفاءة طويلة، أفاقت منها على خاطر مثير

عادت الممثلة الصغيرة إلى بيتها في تلك الليلة لتستسلم لأشجانها ولكنها لم تكد تخلع القطعة الأولي من ملابسها، حتي سمعت طارقا بالباب وفتحت الباب، لتجد نفسها أمام الممثل الكبير يقول لها:

- ألم تكوني تتوقعين هذه الزيارة؟

قالت له:

- آخر من كنت أتوقع زيارته.. وليس يدري أحد غيرهما ماذا دار بينهما تلك الليلة من حديث، أو أكثر من حديث ولكن الجميع يدرون أن هدأة الفجر تبددت على صوت الممثلة الكبيرة تفاجئها في هذا المكان، وخرجت الممثلة الكبيرة من ذلك الموقف العارم مطرقة مهزومة..وعادت إلى بيتها... ولم يرها المسرح منذ ذلك الفجر وأنا شخصيا لم أرها منذ تلك الليلة.. إلى أن رأيتها هذا الأسبوع على شاطئ المعمورة، تقرأ حكاية من حكايات الحب والفن.

ماذا أصاب البلبل الحيران؟

للعقاد – رحمه الله – قصيدة لطيفة عنوانها ((حديقة حيوانات آدمية)) ... يصف بها أصحابه الأقربين من الشعراء والأدباء والفنانين ، كعبد الرحمن صدقي وصلاح طاهر ومحمد حسن الشجاعي وطاهر الجبلاوي وغيرهم ، ويشبه كلا منهم بنوع من الحيوان ، فهذا قرد لحبه للتقليد ، وذاك نسناس لسرعة حركته ، والثالث بشروش لطول ساقيه ، والرابع أرنب لقلة شجاعته ... إلخ.

وكان العقاد يرى – وهذا صحيح – أن في كل إنسان صفة غالبة من صفات حيوان معين .. ففي الناس من هو أسد بقوته .. أو فيل بضخامته ... أو كلب بوفائه ... أو ثعلب بخبثه ... إلخ.

وفي مرسى مطروح حيوان برمائي صغير ، أسود اللون ، اسمه الخنجل ، يخربش ولا يعض ، ويحلو له أن يتسلق سيقان المصطافات وهن نائمات ..

وهو خفيف الحركة ، يتنقل من ساقي مصطافة إلى ساقي مصطافة أخرى بمنتهى الخفة ، وبغير معاناة ، إلى أن يجد المصطافة الشجاعة التي تصرعه ... بالشبشب !

وفي دنيا الفن حيوانات كثيرة كحيوانات العقاد ... منها مخرج سينمائي ... أسمر اللون ... كان يحلو لي أن أسميه دائما بالخنجل ، لأنه يشترك مع الخنجل في كثير من صفاته ، ولا سيما التسلق على سيقان الفنانات ، وحب الخربشة ، وكثرة التنقل.. في حياة هذا المخرج عشرات من الفنانات: هذه ممثلة ... وتلك مغنية ... والثالثة راقصة ... والرابعة عاملة مونتاج ... والخامسة كومبارس ... إلخ.

المهم ... أنه لم يعرف الحب – إذا جاز أن نسمي العاطفة المتنقلة حبا – إلا في وسط الفن، وكنت كلما لقيته ، راح يحدثني عن آخر غرامياته ، ويسهب في وصف حبيبته الجديدة إسهابًا يرفعها إلى مستوى الملائكة واسأله عنها: من تكون ؟

فيغضي ... ثم يقول هامسا: واحدة من الوسط يعني من الوسط الفني ....

وأسأله عن مدى حبه لها ، فيؤكد لي أنها ستكون حبيبة العمر ... حبيبته إلى الأبد ولا ألبث – بعد أسبوعين أو ثلاثة ... أو شهر على الأكثر – أن أسمع أن الحنجل قد نسى غرامه القديم وتعلق بغرام جديد...

وأن الشي الذي يسميه "إلي الأبد"، لا يزيد عنده على شهر واحد !

وذات يوم ، قرأت في الصحف أن حادث سيارة قد وقع للحنجل حيث كان يسير بسيارته مسرعا في مصر الجديدة ، فاصطدم بسيارة أخرى ، وأصيب بعدة رضوض نقل على أثرها إلى المستشفى، وذهبت لأطمئن عليه ، فوجدت عنده مجموعة من الوجوه المعروفة في الوسط ... أي من حديقة الحيوانات الآدمية ... ولمحت في ركن من الغرفة وجهًا غير مألوف ... لم أره في الوسط أبدا.

قلت لنفسي: لعله وجه جديد.

وحاولت أن أجد له مكانًا في حديقة الحيوانات الآدمية ، فلم أجد ما هو أكثر شبها به من البلبل

وأطلت النظر إلى صاحبة هذا الوجه الهادئ الجميل

ولمحني الحنجل ... فاستدناني إليه ، وهمس لي:- هل تعجبك ؟

قلت:- لا شك إنها جميلة ... جميلة جدا ... من تكون هذه السيدة ؟

قال لي:- إنها ليست من الوسط

قلت:

- وماذا جاء بها إلى هنا ؟

قال:- إنها هي التي جاءت بي إلى هذا المكان ... صاحبة السيارة التي صدمت سيارتي وأصابتني بهذه الرضوض.

ونظر إليها ... نظرة ليس فيها شيء من الحقد على ما أصابه على يديها ... نظرة كلها حب ووله وجنون.

وخرجت من عنده يومئذ وأنا أشعر أن الخنجل قد وجد السيدة الشجاعة التي تصرعه بالشبشب ، بعد أن طال تسلقه على سيقان بنات الوسط الفني.

وخرج الخنجل من المستشفى ... ومرت الأيام ، وأنا أتتبع أنباء الخنجل والبلبل ، فإذا قصة الحب مستمرة على غير العادة ... شهرًا ... وشهرين ... وثلاثة ... وسنة كاملة ... وقصة الحب تدنو من نهايتها السعيدة: الزواج.

كان آخر ما يخطر ببال أحد في الوسط الفني ، أن يقع الخنجل في حب يحمله على الزواج... أما أنا فإنني أؤمن دائما بأن الزواج – كالموت – مصير كل حي ، ولكنه لا يأتي إلا حينما يلتقي الرجل بامرأة من نوع آخر غير النوع الذي ألفه طول شبابه.

والخنجل قد ألف نوعا معينا من النساء ... هن بنات الوسط الفني ... بكل ما فيهن من خصائص لا شك أنها تختلف اختلافًا بينا عن بقية النساء ... فهن متحررات ... مرحات ... صاخبات ... عصبيات ... مسرفات في التبرج ... كثيرات التكاليف .. أما هذه ... أعني ((البلبل)) ... فكان كل شيء فيها عكس ما فيهن: كانت خجولة ... في عينيها حزن جميل، هادئة هدوء الملائكة.. موهوبة من السماء التي منحتها ألوانا تغنيها عن كل ماكياج ... أنيقة في بساطة ... يخيل لك أنها لا تأكل إلا ألسنة البلابل وقلوب العصافير !

ومر العام الأول عليهما في هدوء وفي العام الثاني ... بدأ البلبل يخرج من عشه ويختلط بالوسط .. ويسهر الليلة عند فلانة ... والليلة الثانية في الأوبرج .... والليلة الثالثة في صحاري سيتي ... والليلة الرابعة في ستوديو الهرم ... وبدأت أشفق على البلبل الذي بدأ يتبرج .. ويضحك ضحكة عالية ... ويعبث بجناحيه بين الحين والحين.

وجاءت السنة الثالثة ...

وسافرت إلى أمريكا ، حيث بقيت هناك ثلاثة أشهر أحاضر في إحدى جامعاتها عن الأدب العربي، وعن الصحافة في الشرق الأوسط، وكنت أذهب إلى السفارة المصرية الفينة بعد الفينة لأزور الأصدقاء، وأرى الوجوه المصرية، وأحتسي فنجالًا من القهوة التركية، وأطالع الصحف القادمة من القاهرة.

وذات يوم ... فتحت صفحة الفن بجريدة الأخبار، ففوجئت بصورة البلبل منشورة على عمودين.. وقرأت الخبر.. فإذا هو يقول إنها اندمجت في الوسط الفني، ورشحت لبطولة أحد الأفلام.

وقلت لنفسي: لقد انتهت القصة...

وعندما عدت إلى القاهرة، وسألت عن الخنجل والبلبل، قيل لي إن القصة انتهت بالفعل...انتهت بالطلاق

لقد أحبها هذا الحب الكبير لأنها لم تكن من الوسط...

كان كل ما فيها من خصائص، لا يمت إلى الوسط الفني بصلة...

أما الآن... فقد اندمجت في الوسط، واكتسبت كل خصائصه، ففقدت كل ما كان يشد إليها قلب الخنجل بهذا العنف...وعاد الخنجل إلى حياته الأولي، يتحنجل من جديد...

ومضي البلبل هو الآخر... يتعلم الخنجلة...ويتسلق سيقان الممثلين والمخرجين والمنتجين!

ذكريات إذاعية
تأشيرة مستشار القصر

سألتني إحدى المذيعات منذ أيام: (أين كنت ليلة قيام ثورة يوليو ١٩٥٢).. ورحت أسترجع الذكريات.. وأهاج سؤالها أسئلة أخري في أعماقي.. أين كنا قبل الثورة؟ وأين أصبحنا بعد الثورة ؟....

كنت آنذاك مراقبا للبرامج الثقافية بالإذاعة.. وجاء صيف سنة ١٩٥٢، فقررت أن أذهب إلى أوروبا وأتجول في دور إذاعاتها، على حسابي بعد أن أحسست أن الفن الإذاعي قد أخذ يتجمد، ولابد من شيء من التجديد يحطم الثلج حول فننا الإذاعي.

وذهبت إلى روما وباريس وجنيف وبروكسل ولندن، ودخلت دور إذاعاتها وأحسست أن هناك سرا واحدا هو المسئول عن تجميد الفن الإذاعي في القاهرة، هو فقدان الحرية.. حرية العمل، وحرية التصرف، وحرية التفكير، وحرية الابتكار... كانت شركة ماركوني الإنجليزية هي التي تدير الإذاعة المصرية في أول الأمر، بموجب عقد مع الحكومة المصرية.. وكانت الإذاعة تدار لحساب الإنجليز لا لحساب المصريين وكان مدير الإذاعة إنجليزيا، وكذلك سكرتيرها العام، وكبير مهندسيها وأكثر المهندسين وكان مدير المستخدمين والخزانة يهوديا صهيونيا، اسمه انجيل. وكانت جميع مراقبات الإذاعة مطعمة بعناصر يهودية صهيونية.

وكانت أكثر الأحاديث- ولا سيما في فترة الحرب- دعاية للإنجليز وقضايا الحلفاء.. وكان أكثر هذه الأحاديث يرد من السفارة البريطانية ويذاع بأمر السفير البريطاني!

وحتي تلك الأغاني المائعة والمخنثة التي كانت تذاع ليل نهار.. لاشك أنها كانت لحساب الإنجليز.. عن قصد أو عن غير قصد.. لأنها كانت تشيع الانحلال والتراخي في

نفوس المواطنين وكان محظورا علينا أن نحتفل في الإذاعة بالمناسبات الوطنية، لأن الاحتفال بها اشتغال بالسياسة، وهذا محظور وفقًا للعقد المبرم بين الحكومة المصرية وشركة ماركوني.

*****

وذات يوم، جاءت مناسبة وطنية كبيرة واجتمعنا نحن شباب الإذاعة- أجل.. كنا شبابا في ذلك العهد- محمد فتحي وعلي خليل وعبد الحميد يونس ومحمد محمود شعبان وحافظ عبد الوهاب وعبد الوهاب يوسف وأنا..وقررنا أن نعد برنامجا وطنيا يتفق مع المناسبة الوطنية الكبيرة ووضعنا البرنامج، وقدمناه لمدير الإذاعة الإنجليزي- المستر ريتشاردز. وكان مشهورًا بالحماقة فما كاد يطلع عليه، حتى أرغي وأزبد، وثار وفار، وانتفض من وراء مكتبه وهو يقول لنا:- ما هذا؟!

قلنا له:- هذا برنامج عيد من أعيادنا الوطنية

قال محتدا وهو يضرب بيده على مكتبه:

- هذا البرنامج لن ينفذ.. ولو اقتضاني الأمر أن أعمل وحدي، بدونكم جميعا

وسخرنا منه، وذهبنا إلى وزير الشئون الإجتماعية، بوصفه الوزير المشرف على الإذاعة يومئذ، وروينا له ما حدث.. وكان - رحمه الله رجلا شجاعا، فأمسك بسماعة التليفون، وحاول أن يتفاهم مع المستر ريتشاردز بالحسني: ولكن الحماقة غلبت على الرجل، فأغلظ في رده على الوزير.. الذي كال له الصاع صاعين.. ولعن سنسفيل أجداده... ونزل لفوره فقابل رئيس الوزراء وروي له ما حدث. واجتمع مجلس الوزراء في اليوم نفسه، وقرر الاستيلاء على الإذاعة واسترداد إدارتها من شركة ماركوني، وتولية أمرها للمصريين وحدهم.

وبين يوم وليلة.. وجد المستر ريتشاردز نفسه في عرض الطريق! وإذا كنتم تذكرون ما صنع الاستعمار يوم إعلان تأميم قناة السويس، من انسحاب المرشدين الأجانب دفعة واحدة لتعطيل الملاحة في القناة، فإن الاستعمار قد صنع نفس الشيء من قبل، يوم طرد المستر ريتشاردز من الإذاعة المصرية.. فقد خرج وقرر أن يسحب معه

جميع المهندسين الإنجليز من الإذاعة.. ليتعطل الإرسال.

وفي الحال.. جندت الإذاعة نفرا من كبار مهندسي مصلحة التليفونات، على رأسهم المرحوم إبراهيم حامد صالح، وصلاح عامر..

وجاء المهندسون المصريون، وتسلموا العمل، وأداروه على أحسن وجه، ولم يتعطل الإرسال الإذاعي لحظة واحدة!

إلي هنا.. أحسسنا أننا قد استرددنا حرية العمل وحرية التصرف، وحرية التفكير، وحرية الابتكار

ولكن الأيام أثبتت أننا كنا واهمين.. فقد بعث إلينا القصر بمستشار للإذاعة، ليكون عين القصر على كل كلمة تقال في الميكروفون وعشرات من الأحاديث ألغيت.. وعشرات من البرامج شوهت..

وعشرات.. ومئات.. وآلاف من الأفكار المبتكرة وئدت في المهد، لأن مستشار القصر لشئون الإذاعة لم يوافق عليها.. لأنها تمس الملك ذاته.. أو تمس العرش... أو تمس النظام الملكي من قريب أو من بعيد... أو توقظ الوعي.. أو تحرض على الثورة.

ولا يزال عندي نص قراءة شعرية أحببت أن أقدمها في يوم من الأيام بمناسبة ذكري الشاعر التونسي الراحل أبو القاسم الشابي وعلي هذا النص تأشيرة مستشار القصر لشئون الإذاعة تقول: (لا يذاع)!

أتدرون لماذا؟

لأنه احتوي قصيدة يخاطب بها الشابي ضمائر الشعب.. يلومها على صمتها واستكانتها للقوة، ويدعوها إلى الثورة.

منع مستشار القصر إذاعة هذه القصيدة.. وعشرات مثلها من القصائد والأحاديث والبرامج، لأنها تمس الملك أو الملكية، ولم ينصب الحظر على ما يمس الملك وحده.. بل كان هناك كل يوم محظور جديد.. فهذه تغضب الإنجليز. وهذه تغضب الفرنسيين.. وهذه تغضب الهنود.. وهذه تغضب السعوديين... إلخ.. بل لقد بلغ الأمر

في بعض الأحيان إلى منع إذاعة أغنية معينة، لأن رئيس الوزراء لا يحب هذه الأغنية، و حسسنا جميعًا أننا لم نصنع شيئًا كبيرًا حينما جاهدنا لتمصير الإذاعة.. وأن الإذاعة لا تزال في أيدي القوي الاستعمارية والرجعية إذن... لابد من حدث كبير، حدث لا نعرف صورته ولا لونه، يحقق ما نصبو إليه من حرية في العمل والتصرف والتفكير والابتكار

وجاء صيف سنة ١٩٥٢ وذهبت إلى أوروبا.. وفي لندن دعاني الشاعر المعروف الدكتور عبد العزيز عتيق- وكان يومئذ مستشارنا الثقافي في لندن- إلى الغداء

وكانت معنا على الغداء سيدة أمريكية جميلة مثقفة، قدمها لي صاحبي، وقال لي:

- لقد أحببت أن أقدمها إليك، لأنها تقوم برحلة حول العالم، لتدرس الفولكلور، وتؤلف كتابا عنه. وهي قادمة إلى مصر قريبا، فأرجو أن تحتفي بها، وتمهد لها أسباب دراستها حتي يكون للفنون الشعبية مكان في كتابها العالمي.

وبدأت السيدة تحدثني ونحن نستعد لتناول الغداء، فكان أول سؤال لها:

- كيف حال كنج كونج!

وفهمت قصدها، ولكني تغابيت وعدت أسألها:

- ماذا تعنين يا سيدتي بكلمة كنج كونج!

قالت:

- أعني كنج فاروق (الملك فاروق).. ألا يزال يداعب النساء بلحيته في الأماكن العامة، ويمسك بالقطط من ذيولها ويدوخها في الهواء حتى تسقط ميتة؟

هكذا كانت صورتنا- نحن المصريين- في عيون العالم بسبب حكام ذلك العهد.

وسافرت بعدها إلى باريس، ثم إلى روما، وفي روما سمعت باعة الصحف يهرولون في الشوارع. ويصيحون بأعلي أصواتهم:

- سوبلمنتو.. سوبلمنتو... كوبودي ستابي إن إيجبتو وفهمت هذه الكلمات على قلة معرفتي باللغة الإيطالية يومئذ... كان معناها:

- ملحق... ملحق.. انقلاب عسكري في مصر.

واشتريت الجريدة.. وقرأت..

وهرعت إلى محطة الإذاعة، وقابلت السنيور زافراني الذي كان مديرًا للإذاعة الإيطالية يومئذ. وإذا بالرجل يشد على يدي، ويهنئني قائلا:

- مبروك .. يبدو أنكم قد تخلصتم من الملك فاروق

وروي لي تفاصيل ما حدث..

وكان أول خاطر جاش بصدري يومئذ هو: هل يكون هذا هو الحدث الذي طالما حلمنا به- نحن شباب الإذاعة- دون أن ندري ماذا تكون صورته، وماذا يكون لونه، ولا متي يأتي؟

وقفز إلى خاطري بيت من قصيدة أبي القاسم الشابي- التي شطبها مستشار القصر- هو قوله للشعب:

إن - الحيـــــاة يـــــدوي حواليـــــك

فـــــأين المغـــــامر المقـــــدام؟

لقد أقبل هذا المقدام الذي حلم به الشاعر...إنه جمال عبد الناصر

وركبت القطار لفوري من روما إلى فينيسيا.. وركبت الباخرة (أسبريا) عائدا إلى القاهرة

وفي اليوم الثاني في عرض البحر.. كنت ساهرا فوق سطح الباخرة والليلة غير مقمرة حينما جاء قبطان الباخرة يشير إلى باخرة تسير في الظلام، وقال لي:

- أتري هذه الباخرة ذات الأنوار الخافتة.. المتجهة إلى أوروبا؟

أتعرف من فيها؟

قلت:- لا

قال:- ملك مصر السابق.. فاروق

قلت والفرحة تقفز من قلبي:- أتعني...

قال الرجل:- أجل.. لقد خلعته الثورة.

كأس... وكتاب... وفراشة

كلما رأيت المآس تعبر واحدة إثر أخري في حياة هذه الفنانة الكبيرة أحسست أنني نصف مسئول عن تعاستها، لأنني أنا الذي كنت - عن غير قصد - الجسر الذي عبرت فوقه الطريق من بيت الزوجية والأمومة، إلى دنيا الأضواء الباهرة الخادعة.

*****

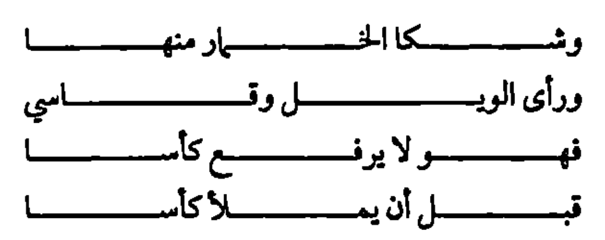
زمان... أيام الشقاوة... وأنا طالب بالجامعة... كنت أعاكس طوب الأرض، إلى حد أن أصحاب المجلات الفنية كانوا يستغلون حبي للصحافة، ويحرضونني على فتح أبواب المشاكل في مجلاتهم وكنت - وأنا طالب - أحرر في إحدى المجلات الأسبوعية بابا ثابتا عنوانه: شكل للبيع!

وكانت المشاكل التى أعثر بها في طريقي كثيرة في أول الأمر.. فلما استمر الباب، أعوزتني المادة في بعض الأسابيع، فكنت أضطر إلى خلق المشاكل بنفسي على أنني لست أدري هل أنا الذي خلقت مشكلة الفنانة الكبيرة التي أحدثكم عنها اليوم، أم هي التي خلقتها، أم أن المشكلة هي التي خلقت نفسها.

*****

كنا في الصيف.. بالإسكندرية وكنت أجلس في كازينو (باسترودس) بشاطئ ستانلي، أيام كان هذا الكازينو قائما على الشاطئ مباشرة، وأيام كان الشاطئ ستانلي ملهي الحسان ومسرح الغانيات وتلفت حولي... أبحث عن مشكلة وكان الصيد الذي وقعت عليه، يتمثل في شابة في نحو العشرين... ذات جمال صارخ، تسدل نقابا شفافا جدا على قسماتها الحلوة، خوفا من أن تجرح خطرات النسيم خديها الناعمين كانت تجلس وحدها إلى مائدة، في الظهيرة، وفي يدها كتاب تقرأ فيه بنهم وإقبال وهي ترشف بين الفتية والفنية رشفة من كأس الويسكي التي أمامها، ولا تنتهي من كأس قبل أن تكون قد طلبت كأسا

أخري... أو كما يقول الشاعر الذي وصف هذا المشهد.. وأظنه أنا:


وشـــــكا الخـــــمار منهـــــا
ورأى الويــــــل وقــــــاسي
فهـــــو لا يرفـــــع كأســـــا
قبـــــل أن يمـــــلأ كأســـــا

كانت الصورة عجيبة، وحلوة تستحق المتابعة... شابة فاتنة... وغلالة على وجهها... وكأس وراء كأس... وكتاب... وركزت عيني على غلاف الكتاب وهو يتحرك بين يديها كلما غيرت موضعها على المقعد، لعلي ألتقط اسمه، لأعرف ماذا تقرأ، لأن المثل يقول: "قل لي ماذا تقرأ... أقل لك من أنت" غير أنني لم أتمكن... إلى أن جاء الجرسون يستدعيها للتليفون ونهضت من مكانها، وأكفأت الكتاب على الصفحة التي تقرأ فيها، فأصبح غلافه مواجها لنور الشمس وذهبت لتتكلم في التليفون... وقمت من فوري، فمررت بجانب مائدتها، وعرفت اسم الكتاب... أما مؤلفه، فلم أكن بحاجة إلى قراءة اسمه، لأنني أعرفه وأعرف كل كتاب ألفه، وكل سطر كتبه أنه من أقرب الناس إلى قلبي إنه الأديب والقصصي والشاعر... الذي قضيت معه – قبل هذه الواقعة بشهر واحد – ليلة كاملة أشهد فيها دموعه وهو يروي لي قصة حب كبيرة في حياته.. قصة حب انتهت نهاية حزينة، ترك حبيبته أطلال جسد، وتركته هو أطلال روح!(*)

وغادرت الشاطئ... وذهبت لأكتب بابي الأسبوعي، وكان عنوانه "السيدة ذات النقاب" وظهرت المجلة... وبعد يوم واحد، كتبت السيدة ذات النقاب ردها على ما نشرت عنها وبعثت به إلى رئيس التحرير وأطلعني رئيس التحرير على هذا الرد، وسلمني إياه، للتصرف، وأحببت أن أشاكلها من جديد... فنشرت ردها، وعقبت عليه تعقيبا من نوع جر الشكل، وردت مرة أخري... وثالثة... ورابعة... وانا أعقب في كل مرة بقدر أكثر من الشقاوة والعفرتة... في تلك الأثناء، حدث حادث جانبي... قابلت صديقي الأديب القصصي، الشاعر.. وسهرت معه ولم يسكب دمعة واحدة في هذه الليلة.. بل كان على العكس، يكاد يطير من الفرحة بالحياة والحب... الحب الجديد... الذي أنساه مأساة

الحب الذاهب.

أقول... كان يحدثني عن حبه الجديد وهو يكاد يطير من الفرحة.. فلا أكاد أجد وصفا لفرحته أجمل من قول ناجي... الذي تغنيه أم كلثوم:

هـــل رأى الحـــب ســـكارى مثلنــا

كـــم بنينـــا مـــن خيـــال حولنـــا

ومـــشينا في طريـــــق مقمـــــر

تثـــب الفرحـــــة فيـــــه قبلنـــــا

وتطلعنـــــــــا إلى أنجمــــــــــه

فتهـــــاوين وأصـــــبحن لنـــــا

وضــــحكنا ضــــحك طفلـــين معـــا

وعــــدونا فــــسبقنا ظلنـــــا

ولم يذكر لي من تكون هذه الحبيبة الجديدة، وإن كان قد رسم لي سماتها رسما خفيفا.. وبالحاسة السابعة.. حاسة الصحفي.. أحسست أن هناك ارتباطا بين قصته وقصة صاحبتنا التي كانت تقرأ كتابه على الشاطئ.. "السيدة ذات النقاب" وتوكلت على الله... واعتبرت أن إحساسي لم يخب وكتبت في الباب الأسبوعي التالي عنها وعنه... وتحدثت عن فرحته الجديدة بالحياة بعد هذا الحب... وبعد ما جرت عليه من اليأس ربة الحب السابق التي تحولت إلى أطلال جسد، وحولته إلى أطلال روح.

وكان صاحبي قد روي لي بعض ما كان بينه وبين حبيبته الجديدة – دون أن يذكر لي من هي – من وقائع طريفة، وتلا على بعض سطور من خطاب عاطفي ملتهب بعثت به إليه، دون أن يذكر لي اسمها.

من هذه الوقائع، أنها ذكرت له أنها مسافرة إلى الإسكندرية، لتصطاف، دون أن تذكر له أين تنزل في الإسكندرية وتركته على هذه اللوعة... ولكنه لم يخلد إلى اليأس هذه المرة، بل راح يجري ويتحري هنا وهناك: حتي عرف أين تقيم بالإسكندرية... وسافر إلى الإسكندرية، ولمح الشقة التي تنزل فيها، وجعل يلف ويدور ويبحث في العمارات

المحيطة بها، لعله يعثر على شقة تطل عليها... بأي ثمن... إلى أن اهتدي إلى بنسيون يطل على غرفة نومها تمام، وذهب إلى صاحبة البنسيون

- وطلب إليها غرفة تطل على تلك الواجهة، فاعتذرت له بأن الحمام والمطبخ وحدهما هما اللذان يطلان على هذه الواجهة فطلب إليها أن تضع له سريرًا في المطبخ، ينام عليه.. واستغربت السيدة هذا المطلب، وظنت أنه مجنون... ولكنه أبرز لها بطاقته، فعرفت شخصيته... فنان... والجنون فنون... والفنون جنون وقالت له:

- ولكن... لماذا لا تنزل في غرفة يا سيدي؟

قال: - المطبخ... وإلا فلا

- ولكني محتاجة إلى المطبخ طول النهار

- لا مانع... فإني لن أنام فيه إلا بالليل... ولك أن تستخدميه كما تشائين طول النهار.

وظلت السيدة مترددة... ولكن ترددها زال على الفور، حينما أعرب صاحبنا عن استعداده لدفع أجر مضاعف في سبيل المطبخ... أي أجر غرفتين، وقضي الأديب القصصي الشاعر الموهوب... أكثر من ليلة في المطبخ... ساهرا يطل على أمل حياته طول الليل!

أما الخطاب العاطفي الذي بعثت به إليه، وتلا على بعض سطور منه، فقد استطعت أن ألتقط منه في ذاكرتي بضع كلمات.. لا أزال أذكرها حتي الآن. كانت هذه الكلمات تقول: "ما قولك فيمن يمشي قلبها على الشوك، فيدمي وهو يسعي إليك.. ويعلم ظلام المصير.. ولكنه لا يبالي بأي مصير"؟!

*****

نشرت كل هذا ضمن ما نشرت من قصة "السيدة ذات النقاب".. دون أن أكون واثقا من أنها هي الحبيبة... إلا بمجرد إحساس.. عن طريق الحاسة السابعة وظهر المقال... وصدقت الحاسة السابعة... وانقلبت الدنيا.. وجاء صاحبي - الأديب القصصي الشاعر - يعاتبني عتابا قاسيا، ويعلنها قطيعة بيني وبينه.. على أن القطيعة لم

تستمر أكثر من يومين، فقد كان – رحمه الله – صاحب قلب من أطيب القلوب.

*****

أما صاحبتنا – السيدة ذات النقاب – فقد هرولت مرغية مزبدة إلى رئيس التحرير وكان صحفيا لبقا إلى أبعد حدود اللباقة... فجعل يهدئ من ثائرتها حتي اطمأنت إليه... وفتحت له قلبها... وروت له قصة حياتها، ومأساة الزواج التي تعيش فيها، وكيف أنها بسبيل الطلاق، لأنها لم تعد تحتمل هذه الحيـاة الجافية وقال لها رئيس التحرير:

– ولماذا لا تغيرين هذه الحياة الجافية؟... لماذا لا تنطلقين إلى حياة حافلة بالمرح، زاخرة بالأضواء؟

– ماذا تقصد؟

– أقصد أن تشتغلي بالسينما

– وهل تراني أصلح لها؟

– وستكونين من ألمع الوجوه على الشاشة... وبينما هما يتحدثان، جاء زائر... وكان هذا الزائر فنانا كبيرا... ومنتجا كبيرا أيضا وبهرته النظرة الأولي إلى وجه الشابة الحسناء وقال له رئيس التحرير:

– ما رأيك في هذا الوجه؟

ولم يتردد الفنان الكبير لحظة واحدة.. وقال:

– إنني مستعد أن أوقع معها عقدًا على الفور... وأنجز الرجل وعده، ووقع العقد على الفور!

*****

ونعود إلى حكاية المصير... إلى حكاية القلب الذي يمشي على الشوك، فيدمي وهو يسعي إلى الحب، ويعلم ظلام المصير، ولكنه لا يبالي بأي مصير... التقي العاشقان – بعد ظهور المقال – لقاء صاخبا... لأنه فضح قصة الحب، حتي باتت حديثا على وجوه الصحف،

وكان لقاء الوداع... وانتهت قصة الحب... وانتهت بعد ذلك قصة الزواج الشقي.

وعلي جسر ذلك المقال، الذي لم أقصد به إلا وجه الشكل، سارت السيدة ذات النقاب إلى دنيا الفن، لتصبح وجها من ألمع الوجوه على الشاشة. على أن طريق الفن لم يكن مليئا بالزهور.. فقد نجحت هذه الفنانة... ونالت الشهرة والمال.. ولكن حياتها تعرضت لكثير من المتاعب والمآسي والأحزان... وربما لو بقيت في بيتها.. لعاشت سعيدة إلى اليوم ولكنها كانت مثل الفراشة أرادت أن تحترق بالحب فتركت بيتها وأسرتها لتحترق.. ولكن بالفن!

محمد رضوان

- ولد محمد محمود رضوان بمدينة الجمالية – محافظة الدقهلية بمصر في ١٥ سبتمبر ١٩٤٨.
- حصل على ليسانس كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٧١ وعمل كاتبًا صحفيًا بمجلة الهلال منذ (١٩٧٣).
- عضو نقابة الصحفيين – عضو اتحاد كتاب مصر (جوال: ٠١٠٠٦٧٥٩٢٢٤ (مصر ٢٠٢).
- من الأدباء والنقاد الذين تناولوا مؤلفاته بالدراسة والنقد والتحليل (صالح جودت – أنيس منصور – أحمد عبد المجيد – عبد العليم القباني – د.مقداد يالجن – كمال نشأت – فاروق شوشة – محمد ابراهيم أبو سنة – حسن فتح الباب – د.ماهر شفيق فريد – د.يوسف نوفل).
- له خبرة في الصحافة الأدبية والسياسية، حيث عمل في سلطنة عمان رئيسا لتحرير مجلة السراج الأدبية (١٩٧٦ – ١٩٧٧)، (١٩٩٢ – ١٩٩٤)، ومديرا لتحرير مجلة (النهضة) السياسية (١٩٨٢ – ١٩٩٣).
- ابتدع لنفسه منهجًا أدبيًا في كتابة السير سماه (المنهج الوجداني) يجمع بين الموضوعية والعاطفية، بين التحليل الأدبي النفسي وذاتية الكاتب وذوقه الأدبي، وكانت بداياته القصصية هي التي ساعدته في تأصيل هذا المنهج، فوصفه السفير الشاعر أحمد عبد المجيد (حين يتولي محمد رضوان كتابة سيرة لشاعر من الشعراء نراه يدلف إلى روحه وإلي حياته وما اضطرب فيها من حال إلى حال،ويتشح برداء عصره الذي عاشه، ويتنسم ما كان يستنشقه، فتجيء ترجمته كظل الغصن أو رجع الصدي).
- له أكثر من ثلاثين كتابا في أدب السير منها: "صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك –

مأساة شاعر البؤس: عبد الحميد الديب – اعترافات شاعر الكرنك أحمد فتحي – شاعر الأطلال، ناجي – رحلتي مع القلم – عندما يحب الشعراء – شعراء الحب – شاعر الروابي الخضر: أحمد خميس – شاعر الهمسات: أحمد عبد المجيد" - شاعر الحب والحرمان: كامل الشناوي – الملاح التائه : علي محمود طه.

- **قام بجمع وتحقيق ودراسة:**

١- ديوان شاعر البؤس ، عبد الحميد الديب (المجلس الأعلي للثقافة)- القاهرة ٢٠٠٠.

٢- ديوان شاعر الجندول، على محمود طه (وزارة الثقافة)- القاهرة ٢٠١٠.

٣- ديوان شاعر الكرنك، أحمد فتحي (مكتبة جزيرة الورد)- القاهرة ٢٠١٢.

٤- شاعر الحب: صالح جودت (مكتبة جزيرة الورد)- القاهرة ٢٠١٢.

فهرست

الموضوع	صفحة